

المطبعة

2

# المورييسكري الأخير

رواية

صباحي موسى

الدار المصرية اللبنانية

الموريسكي  
الأخضر  
رواية

موسى، صبحي

الموريسكي الأخير: رواية صبحي موسى . - ط2. -

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2015.

296 ص؛ 20 سم.

تدمك: 7 - 973 - 427 - 977 - 978

1 - القصص العربية.

أ - العنوان 813

رقم الإيداع: 2015/ 3139

©

## الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.

تليفون: 23910250 202 +

فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022

E-mail: info@almasriah.com

www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: ربيع آخر 1436 هـ - يناير 2015 م

الطبعة الثانية: 2015 م

كُتبت هذه الرواية بدعم من الصندوق العربي للثقافة والفنون «آفاق»

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،

بأي صورة من الصور، التوصليل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحتها عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن

كتابي مسبق من الدار.

# الموريسكي الأخير

رواية

صبيحي موسى

الدار المصرية اللبنانية



إهداء

إلى عبير وآيات  
دونهما ما كان لهذا العمل أن يكون.



# 1

العالم أضيق من ثقب إبره، هكذا قال الموريسكي في نفسه، فثمة حشود كثيرة تملأ الميدان، حشود من كل القرى والمدن والمذاهب والأحزاب والطوائف والفئات، باتت الحياة في مصر شبه متوقفة، ولا عمل لها غير الثورة، حتى إن المشهد اليومي لم يعد يعرف غير أناس تبيت في الشارع محتفية بأنها ما زالت على قيد الحياة، رغم أن أنفاسهم مطعمة برائحة دخان قنابل الغاز، وأعضاءهم ترتجف من الخوف والبرد وتوقع ما لا يُحتمل، مشهد ثابت لكنه يموج بالحركة الدائبة في كل تفاصيله الصغيرة، يموج بالإصرار على الثبات في مواجهة آليات القمع الساعية لإبادتهم، وكأنهم قرروا دون اتفاق مسبق وضع نهاية للطاغية العجوز عبر أجسادهم الممددة على الأرصفة، الشيء الوحيد الذي بدا جديدًا ومختلفًا عما اعتاده الجميع هو الظهور المفاجئ لطائرات «F16» بصوتها العالي في طريقها إلى الميدان، تلك التي سرعان ما أخذت تميل بأجنحتها يمينًا ويسارًا منحنية برأسها كما لو أنها ترغب في النزول وسط المتظاهرين، هؤلاء الذين أصابتهم المفاجأة بالجمود، فظلوا ثابتين



في أماكنهم كبشر من نحاس، ينظرون في عين الموت المحلّق على رؤوسهم بعيون وآذان مشدوّهة على اتساعها، ينظرون إلى نوافذ الأبنية التي استحالت نثارًا أمامهم، وكأن يوم القيامة قد بدأ وليس عليهم سوى أن يتسلّموا كتبهم إما باليمين أو باليسار.

لكن هؤلاء الشهود لم يتوقفوا لحظة عن حرصهم على الحياة، فمع الارتفاع السريع للطائرات نحو السماء هتف الموريسكي بشيء غير مسموع، وأشار بيده حول رأسه إشارة يعرفها الجميع، فراحوا يتلقفونها بفرح هاتفين خلف الصوت المتباعد، مُشكّكين حلقة حول صاحب الإشارة والصرخة غير المسموعة وهو يرقص في عمقها رقصة تشبه حركات زوربا العجوز، حين عادت الطائرات من جديد كان الجميع يلوّحون لها بإشارة الجنون، وبدأ أن قائديها قد وصلتهم الرسالة، فراحت حدة الصوت تقل، وبدأ تموج الطائرات على الرؤوس غير مخيف، وصعودها وهبوطها نحوهم هادئ على نحو جعلها جزءًا لا ينفصل عن المشهد الكبير، بعدها غابت في السماء تاركة لونًا من البهجة في المكان، وإحساسًا لدى المحلّقين حول الكعكة الحجرية أن النصر قريب؛ لأن الطائر العملاق لم يعد مخيفًا، وقدرة الأرواح صارت أكبر من الشبح الجاثم على النفوس منذ سنين.

على نحو ما كان الموريسكي قد مات بالفعل، فما حدث جعله شخصًا غير الذي وطأت أقدامه الميدان هذا الصباح لأول مرة، ربما لأن رعبه الشخصي كان أكثر من رعب الآخرين، وربما ليقينه بأنه من سلالة

على وشك الانقراض، سلالة تفرقت ما بين المغرب والشام وبلدان العالم القديم والجديد، وظل آباؤها عبر ترحالهم الطويل يحلمون بأن يجتمع شملها ولو على متر واحد من الأرض، متر واحد يتسع للجميع، لكن ها هو الشخص الوحيد الباقي من بينهم يحلّق الموت على رأسه كواحدٍ من بين الحشود التي خرجت على الخوف الأبدي في شوارع المحروسة، ربما كان إصراره على الحياة أكثر منهم، أو أن خوفه أكبر من خوفهم جميعاً؛ لذا لم يشعر بنفسه إلا وهو يجأر في وجه قائد السرب: «توقف.. هذا جنون»، بينما راحت يده تدور حول رأسه لتترجم صرخة بعمق عشرات العقود، هذا الرأس الذي أطلّ على نحوٍ ما من الشاشة الموضوعة أمام قائد السرب، صارخاً في عينيه: «توقف»، حتى بدا للأخير أن المطل برأسه عليه قادر على تفجير الطائرة وما خلفها، فلامحه كانت حاسمة إلى حد كبير، وحركة يده لم تكن تحمل كثيراً من التأويل، فارتعد القائد واهتزّ يدها وتموّجت الطائرة رغماً عنه، فتبعتها طائرات السرب في تلويحها للجماهير، ولم يكن أمام القائد سوى أن يعلن انضمامه إليهم، فينحني كأنه يقبّل الرؤوس بطائرته، مبدئاً لصاحب الرسالة أنه الآن فهمهم.

كان الأمر مفاجأة بالنسبة للموريسكي، فقد رأى الرجل رؤية العيان، وصرخ في وجهه بالعودة من حيث أتى، صرخ فيه بأن ما هو مقبل عليه ليس سوى خطيئة لا غفران لها، ولا سبيل أمامه سوى الرجوع، رأى شبح الخوف على وجهه، رأى انحناء الطائرات نحو الرؤوس ولم

يفزع، وظل شاخصًا ببصره نحو السماء، مهددًا قائد السرب برسالة لم يقرأها سواه، كانت فرحته بلا حدود حين اكتشف أنها وصلته بكل هذا الوضوح، فأخذ يرقص على إيقاع فلانكو قديم يتردد صداه في أذنيه وحده، مائجًا بذراعيه نحو اليمين ونحو اليسار كطائرة توشك على الإقلاع، باسطًا يديه لعجوز ترغب في عبور أمواج الميدان الواسع، حين حملها بين ذراعيه لم يشعر بأنها ثقيلة أو خفيفة، فقط رأى أنه يعبر بها بين الناس كما لو أنه يمشي على صفحة الماء، حين أوصلها إلى حيث أيقن أنه لم يعد مراد القديم، فالموريسكي الغريب لم يعد غريبًا، وثمة شيء كبير يربطه الآن بهذا المكان.

عاد في طريقه نحو الذين كان يقف بينهم، وشخص بنظره من جديد نحو السماء، شخص بعيدًا حيث الدخان المتبقي من رحيل السرب الغائب في زرقة الصفحة البيضاء لذلك النهار الشتوي، رأى قائد السرب مضطربًا كما لو أنه نجا من الموت المحقق، ابتسم في وجهه، وطلب منه العودة لتحية المجموع، على نحو ما بادلته القائد ابتسامًا بابتسام، ومال بطائرته من جديد، حينها وقف مراد يعيد حركة يديه حول رأسه من جديد، بدت للناس كما لو أنها صيحة النصر التي تلقفوها فراحوا يرسمونها حول آذانهم مبتهجين، بينما يريق أعينهم يتعالى خلف سرب الطائرات الذي ترك دخانًا متقطعًا على هيئة أقواس نصر عظيمة، ساحبًا خلفه شبح الموت من الميدان، تاركًا الموريسكي في حالة من السكينة التي قرر بعدها العودة إلى بيته، حيث جدته العجوز المقعدة التي نادى عليه ثلاث مرات ولم يجيبها.

تحدّث فرناندو بطلاقة في ذلك اليوم، كان يعلم أن والدي اعتزل الحياة العامة بعد مقتل ابنته وانتحار زوجته، وأنه مهما سعى الجميع لإخراجه من هذه الحالة فلن يخرج منها، حتى إن البعض نصح بتجهيز مقبرته تحسباً لرحيله في أي وقت، لكن سنوات مرّت وهو جالس في ذلك الركن المنزوي من غرفة الجلوس بالبيت دون أن يحدث شيء، ولولا تكفّل فرناندو بنا ورعايته لأرضنا ربما لمتنا جوعاً أو قتلاً بالترك، قال فرناندو إن الأمور لم تُعد تُطاق، لقد خسرنا ديننا ولغتنا وكتبنا وأزياءنا، لقد خسرنا أنفسنا ولم يعد بمقدورنا التنفس دون إذن من القس أو الشرطة، فأن تكون موريسكيّاً فذلك لا يعني سوى أنك الشيطان، الجميع ينظر إلينا ليس بوصفنا بشرًا مثلهم لكن على أننا غنيمة سقطت في أيديهم، ملوكهم يريدوننا نصارى، والقساوسة لا يريدون سوى التفتيش في ضمائنا ليل نهار، والنبلاء يريدوننا عبيدًا في أرضهم، ورجال الشرطة لا همّ لهم سوى أن يستريحوا من وجوهنا، كل شيء هنا يدفعنا إلى الجنون، وليس أمامنا سوى الموت أو أن نحمل أشلاءنا

وننتجه إلى الجنوب، حيث اختار آخر ملوكنا أن يبيع ضيعته ويذهب،  
وحيث الأتراك المنشغلون بفتوحاتهم هناك، وأنت قابع في ركنك المظلم  
تتذكر وتتحب، وكأن النحيب سيعيد ما كان، أنت البقية الباقية من بني  
جهور في هذه البلاد لا ترشدنا إلى شيء، كأنك لست كبيرنا ولا كبير قرية  
قديار، ولم تكن يوماً وزيراً لبني الأحمر، أو واحداً من أعلام السياسة  
في غرناطة، تركتنا لتعيش في أحزانك على زوجتك وابنتك الراحلتين  
منتظراً للحاق بهما، فوالله إن الموت على خشبة التعذيب لأشرف لنا  
من خنادق الجبن التي نعيش فيها يا سيدي الوزير عبد الله بن جهور.

عند هذه النقطة توقف فرناندو ليرتشف بعضاً من قطرات النبيذ، تاركاً  
لأبي فرصة التفكير في موقفه مما تجري به الأيام على الموريسكيين،  
لكن أبي لم يرفع عينه عن المدفأة التي تصطرع أطراف نيرانها، وظل  
ساذراً في صمته كما لو أن كلمات فرناندو لم تزد سوى مزيد من الغرق  
في بحار الحزن على مُلك أضاعه بنو الأحمر، بصراعهم وضعفهم  
وتباريهم في الاستعانة بالنصارى على بعضهم، شعرت أن دولاب  
الذكريات راح يدور في رأسه كطاحونة هواء في يوم ريح شديد، طاوياً  
أربعة قرون من التربع على كراسي الخلافة والملك؛ ليقذف بكل  
ذلك في غمضة عين إلى كأس من الهوان عليه وعلى مَنْ بقوا في هذه  
الأرض أن يتجرّعوه حتى النهاية، شعرت أنه تذكر كيف دخلوا عليه  
بعجثة أختي مهجة أو ماريّا، عارية إلا من مفرش لفوها به، يومها غلت  
الدماء في شرايينه ناسياً مَنْ هو وأين يعيش وبأي الشروط، فتناول ببلطته

وخرج دون أن يرسل لأحد كي يكون في معونته، كان صوته ذو السبعين عامًا يجأر في جنبات القرية على خوسيه أرمانديز، ذلك القاتل بصحبة مجموعة العاطلين الذين يرافقونه ولا همّ لهم سوى السكر والتناول على المستضعفين، حين وجدهم على باب الكنيسة يمزحون كأنهم يعيدون تمثيل المشهد لبعضهم بعضًا، نادى عليه، فتوقفوا في مكانهم جامدين كأن صاعقة نزلت على رؤوسهم من السماء، بعضهم تجنب العراك وقرر الانسحاب بعيدًا، بعضهم وقف في مواجهته إلى جانب خوسيه، صاح والدي فيه: «مَن الذي فعل ذلك بابتني؟»، فانفجر القاتل في ضحك مليء بالسكر والسخرية: «نحن فعلناها، فهل تريدنا أن نفعلها بك أيضًا أيها النصراني المستجد»، هنالك اشتعلت أعصاب العجوز صائحًا: «لست نصرانيًا ولا يشرفني أن أنتمي لدين يضم أمثالكم»، ورفع يده بالبلطة متقدمًا تجاههم، إلا أن الذين تجنبوا العراك عادوا فجأة من الخلف وهاجموه، وكادوا يفعلون به مثلما فعلوا بها، لولا أن شرطيًا خرج بصحبة قس من الكنيسة، فتركوه قائلين: «هذا الرجل سب ديننا قائلًا إنه لا يشرفه الانتماء إليه»، فابتسم القس الذي كان يعرف عبد الله بن جهور أكثر مما يعرف آباءه، ودون أن يهتم لمصابه أو مقتل ابنته قال في برود: «اكشفوا عنه ملابسه»، فجردوه منها وهم يصرخون: «إنه مختون، إنه مسلم»، فأمرهم بصلبه على شجرة أمام الكنيسة طالبًا من الشرطي حراسته حتى الصباح، فلما أوثقوه جَلَدَه الشرطي بعصا مرصعة بالمسامير حتى كَلَّت ذراعه فألقاها وجلس يفرِّق الناس إلى بيوتهم.

كانت محاكم التفتيش بدأت عملها منذ زمن في غرناطة، ولم يكن لقضاتها هم سوى البحث في ضمائر من ورثوهم عن آبائهم من المسلمين حتى وإن تنصروا على أيديهم، كانوا يبحثون عن دليل إدانة في الزي أو الكلام أو الممتلكات كي يسلبوهم أموالهم وأرواحهم، مغلقين حُماماتهم العامة وهادمين نوافذ بيوتهم ومصارع أبوابهم مستبشرين لأنفسهم الدخول عليهم في أي وقت، وكان يكفي لأن يشهد شخص واحد على أي منهم أنه ما زال على دينه القديم كي يحمله جنود الرئيس ديسا إلى قاعات التعذيب، وإما أن يموت هنا فترحمه السماء من أيديهم، وإما أن يظل في العذاب إلى أن يعترف بإثم لم يرتكبه، فيحكم عليه بمصادرة ماله وتهجير من قريته هو ومن يعترف عليهم، كان مجرد ذكر اسم في أقبية المحكمة زورًا أو حقًا يعني أن صاحبه أصبح على قائمة المشردين، ولم يكن أمام أمي سوى الذهاب بنفسها لتبكي تحت أقدام القس إيمانويل في قريتنا كي ينقذ عائلتها من الجحيم المنتظر، ولم يكن إيمانويل راغبًا في أكثر من ذلك، فلسنوات كان يعبر على حينًا بدعوى التفتيش من أجل رؤيتها، لكنه لم يكن يخشى أكثر من عبد الله ابن جهور وغضبه، سنوات ضيق فيها على الأهل والجيران حتى لحقوا بمن سبقوهم إلى المغرب، ولم يبق سوى عبد الله وابن أخيه فرناندو من تلك العائلة التي توزعت على قرى وسفوح البشرات، قالت أمي: «أنت تعلم أنه شيخ عجوز، لم يولد نصرانيًا، لكنه تنصّر بعد مجيئه من البيازين، والدك الذي عمّده بيديه في هذه الكنيسة، فكيف تتهمه بما ليس فيه». نهض إيمانويل من مقعده ليُجلسها مكانه قائلاً: «سير الجميلة لا ينبغي

أن تقف على قدميها أمام شخص ضعيف مثلي»، لكنها دفعته عنها قائلة: «اسمي عائشة، أبي وأعمامي أسموني عائشة، ولن أتخلى عن اسمي ما حييت»، فراوغها من جديد: «الأسماء يا سيرا لا تعني شيئاً في ملكوت السماء»، حينها دفعته إلى كرسيه وراحت تعلّمه كيف يتحدث إلى سادته، فابتسم ساخراً: «يؤسفني يا عزيزتي أننا سنفتقد عائلتك الكريمة بيننا، وسنسريح مما يلوكة بني جهور كل لحظة عن ملكهم وتاريخ نبلائهم العظيم»، في تلك اللحظة تذكرت ما أتت من أجله، تذكرت أن زوجها المعلق على شجرة أمام الكنيسة ينتظر يد الخلاص، وأنه لا وجود لهذا الخلاص إلا في يد هذا القس العفن، حين بدت ملامح الخوف على وجهها ابتسم إيمانويل كثعبانٍ عجوز: «الشهود يا عزيزتي يزدون على عشرة أشخاص، من بينهم شرطي وقس ورجل معتدى عليه، وزوجك العظيم يا سيرا اعترف أمام الجميع أنه ليس نصرانياً، فما الذي سيحكم به قاضي التفتيش في غرناطة؟»، لم يكن أمامها سوى أن تسأله عن مخرج من المأزق، فعبث في لحيته قليلاً قبل أن يقول: «لكل شيء ثمن، ولم يبقَ سوى بضع ساعات قبل أن يأتي جنود ديسا في الصباح، وبعدها لا يملك القس الجالس أمامك الآن أن ينفع عائلتك بشيء مما تحلمين به».

حين عادت إلى البيت وجدت بعضاً من الأقارب والجيران يجلسون بجانبها في غرفة المعيشة، فوقفت على الباب شامخة بوجهها الباكي متقبلة العزاء من الجميع وهي تقول: «عبد الله سيعود في الصباح لبيته كي يتلقّى عزاء ابنته بنفسه»، ثم أخذتني من يدي إلى غرفتها قائلة: «تذكر دائماً أنك من بني جهور، وأنه لا ينبغي لحرٍّ أن يخضع لعبدٍ مهما كان».



كانت تتحدث ودموعها تنهمر كالسيل أمام عيني، دون أن تخبرني بسبب لهذه الدموع، في النهاية احتضنتني طويلاً قبل أن تعطيني المراهم والماء الفاتر هامة: «نظف جروح أليك بنفسك، وقل له إن بقاءه حياة لمن مات، وأن موته حياة لمن أكرم»، ثم أخرجت ورقة من صدرها: «أعطيها للشرطي كي لا يمانعك في شيء»، يومها جلست بجانبه لا أقدر على فك وثاقه، فرحت أمسح الدماء عن ظهره وكتفيه، وأدس الطعام في فمه رغماً عنه، حتى أوشك الفجر على البزوغ، فأمرني الشرطي بتركه والعودة إلى البيت، لكنها لم تكن هناك، رحت أطرق أبواب الجيران لأسألهم دون جدوى، عدت من جديد أطرق باب فرناندو المغلق منذ المساء، ذلك الذي عثرنا عليه في الصباح فاقد الوعي بالقرب من بيت خوسية أرمانديز، أمي التي قالت: «ليس للحر أن يخضع للعبد مهما كان» جاءنا بعد ثلاثة أيام خبر بوجود جثتها طافية على وجه ماء جدول في قرية بعيدة، تعرّفنا عليها وتعجبنا من جرف الماء لها كل هذه المسافة بعيداً عنّا، وجلس الناس حولنا لا يعرفون هل يقدمون العزاء لنا فيها أم في مهجة النفوس أم في فرناندو الذي ظلّ بين الحياة والموت عدة أيام، أم في والدي الذي عاد إلى بيته جسداً بلا روح، عاد مغلقاً نوافذه على نفسه، فلا يحدث أحداً، ولا يقبل عزاء من أحد، ولا يهتم حتى بتطبيب جراحه، فقد اختار لنفسه ذلك الركن القصي من حجرة الجلوس ليدفن نفسه فيه، فظل في أعيننا حيّاً ميتاً إلى أن قال فرناندو ما قاله في ذلك اليوم، فجلست أمامه باكياً وأنا أخاطب عيني قائلاً: «لو كنت تحبها حقاً فإنها قالت إن حياتك بقاء لمن مات وموتك بقاء لمن أكرم».

### 3

كانت الوفود تجيء وتذهب مرددة هتافات تطالب برحيل النظام طيلة الطريق من دار القضاء العالي إلى ميدان التحرير مرورًا ببيت الموريسكي في شارع طلعت حرب، وكانت الخطى تصطدم ببعضها بعضًا، ومراد يسحب نفسه من الزحام إلى الأرصفة الجانبية، لم يكن يتوقع منذ أيام أن يفتح هذا الشعب فمه في وجه أمين شرطة أو خفير نظامي، لكنهم فجأة خرجوا كجيوش النمل من الأحياء الأكثر فقرًا تجاه الميدان الشهير، حشود قررت الخروج من قمقمها لتجلس في العراء قائلة: «لن نرحل حتى يرحل»، ورغم مرور أكثر من أسبوع إلا أن الزعيم الذي نفدت صلاحيته للحياة لم يستجب لهم، وكأن ما يحدث ليس أكثر من فيلم سينمائي طويل سيتجلى الأخير في نهايته بخطاب يؤكد أنه لن يرحل حتى لو ظلوا أبد الدهر نائمين في الشوارع، لكن الرافضين له كانوا أكثر عنادًا منه، فقد حملوا أبناءهم وزوجاتهم تاركين أعمالهم ليجلسوا أمام الكاميرات المعلقة بالشرفات المطلة على التحرير، مؤكدين أنهم أحرقوا سفنهم خلفهم ولم يعد لهم طريق إلى الوراء، سحب الموريسكي خطاه

بعيدًا عن مسيرة قادمة في طلعت حرب وراح يتأمل كتل الجص التي تزين واجهات العمائر، رأى جدائل الجبس معقوفة على هيئة أوراق وزهور لوتس خالدة، متتهية بعقوفات على هيئة رؤوس تطل بوجوها نحو العابرين في الشارع الطويل، كانت بعض العقوفات على هيئة مفتاح حياة لم ينشغل المصريون يومًا إن كان رمزًا لحضارتهم القديمة أم أن صناعه خبثوا فيه ديانتهم التي لم يعلنوا عنها، تذكر أن جده رزق الله اختار المحروسة مقامًا له لأن أهلها لم يشغلوا أنفسهم يومًا بلعبة الأديان، أو أنهم كانوا قد تجاوزوا هذا الصراع المرير فقرروا الاحتفاء بالحياة دون انشغال بالرموز، لكن أنى لهذا الزمان أن يعود، فقد تغيرت الأحوال، وصارت الناس تقيم لبعضها المشانق على ما في السرائر والقلوب، كأنهم قضاة محاكم تفتيش جديدة بعثوا من القبور، ولم يعد للموريسكي أن يعلن عن نفسه كموريسكي جاء من البعيد بدين ظل يتقلّى على جمرة سنوات طويله، فزملاؤه في الجريدة التي ينتسب إليها يظنون أنفسهم أكثر تدينًا منه، يصرون على دعوته للصلاة كل أذان متفاخرين بكونهم يحملون علامات سوداء في وجوههم من أثر الركوع، معتقدين أن الله ليس سوى مجموعة من الطقوس، رغم أنهم لا يتوقفون عن الكذب والرياء ومشاهدة المواقع الممنوعة، كثيرًا ما هُزم في النقاش أمامهم، وكلما فضل الانسحاب إلى ذاته بعيدًا عنهم أخذوا في التفتيش خلفه، في النهاية تزايد همسهم بأنه موريسكي، ولا يعرف معنى الصلاة، حين سألوه عن ذلك كان ضجره منهم قد بلغ به حد أن صاح في وجوههم:

«نعم أنا موريسكي»، كان ذلك بمثابة الفرار إلى الجحيم، أغلبهم ابتسم في وجهه ساعيًا لإدخاله إلى الدين، وقلة هي التي أعتتها موقفها العدائي منه بوضوح، لكنهم جميعًا كانوا قد قرروا التعامل معه كجنس ثالث أكثر ما يمكن تقديمه إليه هو الحياد، ولم يكن أمامه سوى أن ينسحب من الحياة ليجلس في بيته مكتفيًا بقراءة الجريدة على المقهى النائم في ممر بيته، لكن هذا لم يكن كافيًا بالنسبة لهم، فكثير منهم سعوا بهمسهم للرؤساء عن غيابه المتكرر، ولما لم تُجدِ أفعالهم بالكثير تحدثوا عن علاقة غريبة بينه وبين رئيس التحرير، علاقة جعلت الأخير الذي لا يقبل أحدًا ولا يتساهل في غياب أحد ينصت ويتسم ولا يفعل شيئًا.

أخذ يصعد درجات السلم الرخامية الباردة، تاركًا الأسانسير المعطل منذ سنوات واقفًا أمامه كمسلة تخترق الفضاء الخلفي للبيت القديم، كانت لديه رغبة في أن يهلك نفسه في السير قبل أن تهلكه جدته في الكلام، يعرف أن لديها أعضارها، فقد رحل كل من كانت تعرفهم، ولم يبقَ لها غير ذاكرة أصبحت وقودها الوحيد للحياة، على بسطة السلم رأى مجموعة من القطط الواقفة أمام شيخ كبير، جميعها كانت تقف في احترام غريب لذلك الواقف بالقرب من سلة مهملات قديمة لم يرها مراد من قبل، كان القط الكبير يقف في مواجهتهم متأهبًا كحارس عجوز لسلة المهملات، وكأنه يأمرهم بالاصطفاف إلى جانب الحائط كي لا تصطدم بهم أقدام الصاعد لدرجات الرخام، جميعها كانت تصدر مواءات خفيفة كأنها تؤكد سماع الأمر وانصياعها له، جذب كبرياء القط العجوز وشموخته أمام قومه انتباه مراد، واجتاحت الأخير رغبة، لا يعرف

حتى الآن سببًا لتفسيرها، في أن يكسر هيبة ذلك العجوز أمامهم، قرر أن يطرده من مكانه على مرأى ومسمع منهم، لكن القط اتخذ خطوة للوراء مصدرًا صوتًا غليظًا كما لو أنه إنذار بإعلان حرب، شعر الموريسكي برهبة تجتاحه فتباطأت خطواته وأخذ يصدر صوتًا موازيًا: «بس.. بس»، لكن الآخر لم يغير مكانه، ولم يزد ذلك سوى أن فتح عينين حمراوين مؤكدًا على غلظة صوته وتأهب أعضائه للهجوم، مفسحًا عن نايتين كبيرين كمن يضع متاريس أمام مدينته، ووجد مراد نفسه على مسافة تسمح بأن يطيح غريمه بركلة واحدة، غير أن الضربة ضاعت في الهواء بعدما صعد العجوز في قفزة واحدة ثلاث درجات، وأخذت عيناه تتنقلان ما بين السلة التي تخلق عنها والبسطة التي تعلوه، هنالك وات مراد الجراءة لمطاردته ولو إلى عنان السماء، لكنه بمجرد صعوده أول درجتين تجاه غريمه فوجئ بصرخة ترددت أصداؤها بين جدران البيت، وانطلاق القط من موقعه كرمح نافذ ليخترق ساقيه تجاه سلة المهملات من جديد، ومنها إلى الدرجات السفلى حيث غاب في ظلمة الجدران، كانت الهجمة مباغتة لدرجة أنها أصابت الموريسكي بالفزع واختلال التوازن، فارتكن بظهره على الحائط مقرًا بهزيمته، ومبتسمًا في فتور كمن يصفق لخصمه المنتصر بشرف كبير، حين لملم أعضائه مستديرًا بجذعه ليكمل صعود ما بقي له من درجات إلى شقته وجد نفسه يصطدم بكتف شخص عفي في طريقه للنزول، كتف شخص غير مرئي أنزلته إلى الدرجة السفلى، لم يكن هناك لا القط ولا رفاقه ولا حتى سلة المهملات، ففتح عينيه بقوة الدهشة التي أصابته وراح ينظر إلى أسفل وأعلى باحثًا عن ذلك الذي اصطدم به، وكلما لم يجد شيئًا أخذ يقول

لنفسه إن اصطدامه كان حقيقة، وإن ثمة شخصًا كان في طريقه للنزول، لكنه لم يجد دليلًا واحدًا يؤكد حقيقة ما حدث، فابتسم لنفسه وهو يكمل الصعود نحو شقته مؤقتًا أنه أصبح مصابًا بالتهيؤات.

حين وصل إلى بسطة السلم التي عليها باب شقته، وفي مواجهتها الشقة التي كانت تسكن بها ناريمان ابنة عمته، تطلع إليها مستحضرًا صورة ناريمان بمريلوها الأصفر، وهز كتفه ربما سخرية من استحالة بقائها على قيد الحياة، وربما تأكيدًا على أن اصطدامه كان حقيقة وليس خيالًا، بعدها وضع المفتاح الكبير في الباب ذي الضلفتين والشرّاعة العالية المقوسة منتظرًا سماع حركة اللسان، لكن المفتاح ظل عصبيًا على الحركة، ثابتًا في مكانه، حاول مرتين وثلاثًا، وفي النهاية أخرجه ليضعه في فمه ثم يعيده إلى ثقب الباب من جديد، حين سمع التكة المعتادة لديه ابتسم دافعًا الضلفة الكبيرة على ردهة شبه مظلمة وصمت يضرب جنبات المكان، وانتابه شعور مفاجئ بالخوف والرهبة مؤقتًا أن ثمة شيئًا غريبًا قد حدث لجده، فقطعت أقدامه الردهة المؤدية إلى الصالة في سرعة مناديا عليها، وفتح باب غرفتها فلم يجدها، نظر في الحمام المفتوح ولم يجدها، وبلهفة شديدة عاد لبحث عنها في مكانها المعتاد بشرفة البيت فوجدها ممددة على الأرض بعينين مفتوحتين على الفراغ إلى جانب كرسيها المتحرك.

قلت لفرناندو: «أبي يقول: جهزوا حالكم»، لا أعرف كيف أصف فرحته وقتئذ، فقد أخذ يتقافز في الهواء كما لو أنه حصل على مُلك غرناطة أو بلنسية، وراح يحضر تفاحًا وعتبًا ويضعه في حجري قائلًا: «قل له سنلتقي الليلة»، لم يزد على هذه الكلمات ثم دفعني بيديه كي أخرج من الفتحة الصغيرة للباب، حين أبلغت أبي بجملته لم يتحدث كعادته، فقط أشار لي أن أخرج لأرغب مجيء محفّظ أختي زهراء، مما يعني ألا أدخل عليه إلا إذا طلبني من جديد، كانت زهراء في السادسة من عمرها، وكان المحفّظ يجيئها متخفيًا على هيئة متسول أو بائع متجول، وإذا حضر فلا أحد يدخل أو يخرج من البيت، ورغم أطواره الغريبة إلا أنه كان يتلو القرآن بترنيم عذب. صوت هادئ ونفس طويل وإضغام وغنة واضحان لكل أذن محبة، شيء ما كان يجذبني للمكوث بجانبه وهو يشرح الحروف بتشكيلاتها على اللوح الخشبي، كان أفضل من معلمي الذي حفظت على يديه عشر سور كاملة في مثل سنّها، كان صوته الأجش ونهمه الزائد في تناول الطعام يخيفاني منه، وحين توفيت والدتي

انقطع عن المجيء إلينا، ولم يكن أمامي سوى أن أعرف طريق الممرات في الصعود والهبوط من أعلى الجبل، حيث تجمعات المسلمين في تلك القرى أكثر مما عليه الحال في قريننا، كانوا يعيشون دون خوف أو جهد، لا أحد يراقبهم أو يلزمهم بشيء، ونادرًا ما كانت تصل إليهم الشرطة أو يراهم القساوسة، حتى إنهم كانوا يرتدون أحيانًا أزياءهم العربية ويتجولون في الشوارع بها، وبعضهم لم يكن له اسم مسيحي أو حتى يرسم على رسغه الصليب، في بيوتهم ذات الأبواب والنوافذ والستائر كنا نجلس في غرفة الدرس لنخطّ على الحوائط والألواح، مرددين بصوت عالٍ خلف المعلم، كانت بيوتهم بلا آذان أو عيون، وكان المعلم ينشدنا الموشحات القديمة بين حصص الدروس قائلاً: «هذا شعر الأندلس»، وأحيانًا كان يحكي لنا عن حب ابن زيدون لوّادة، ومحنة التوحّيدي مع الوزيرين، ومصاحبة أبي الوليد للناصر، ويفخر دائمًا بأن لديه نسخة من مخطوط قديم قال إنه لأناس سموا أنفسهم بإخوان الصفا، كنت أمضي الصيف كله بصحبته، لكن مع مجيء الشتاء كنت ألزم بيتنا، فالجليد كان يكسو السفوح، والرياح كانت تصفر في كل مكان، وأبي مع مجيء ديسمبر لا يأمن على أي متّا إلا بجواره، كان يقول إن الحشرات هي التي تنجو من الجليد وليس أماننا سوى الدخول في بيات شتوي مثلها، لكن مع بدايات مارس كانت الحياة تسفر عن وجه آخر، حيث الخضرة التي تدب في كل شيء، وروائح الزهور التي تكسو السفوح كسجادة من القطيفة متعددة الألوان، كان لأبي وفرناندو مساحة مزروعة بالزيتون والكروم



على مقربة من البشرات، ما إن أقوم بعبورها حتى أجد نفسي في الطريق إلى ممر الصعود، قال لي فرناندو إن أبي ووالده هما اللذان شجرا هذه الأرض بعدما حفرا الآبار وأقاما الخزانات ومدّا المصارف إليها، حدث هذا بعد أن هاجرت العائلة من البيازين، فلم يجدوا سوى الجبال ليلجئوا إليها حافرين بأيديهم ملكهم الجديد، كان فرناندو يتحدث بحزن عن ماضي الأندلس وما جرى من صراعات بين بني هود وبني زيري وبني حمود وغيرهم، موقنًا أنهم الذين أوصلونا لما نحن فيه، كان يقول إن المسيحيين أنفسهم في تلك العصور ما كانوا يتجاوزون أصابع اليد في القرية الواحدة، وأنهم عاشوا بسلام دون أن يعيّرهم أحد بمسيحيّتهم، حين نظرت إلى الصليب الذي على رسغه سائلًا: «هل نحن مسيحيون أم مسلمون؟»، صرخ في وجهي: «نحن مسلمون وسنظل هكذا مهما جرى»، فأقول من جديد: «ولم اسمك فرناندو واسمي أرنولد؟»، كان يضحك ساخرًا: «ما لله لله وما لقيصر لقيصر، ألم يقل قسهم هذا؟ فلم لا نفعل مثلهم؟»، كنت أطأ رأسي متذكرًا كيف يصطحبني كل يوم أحد إلى الكنيسة وقسها إيمانويل البغيض، فنجلس ساعة لنستمع إلى ترانيم لا يحبها، ومواعظ تصييه بالغيثان، وكلمات إيمانويل المكرورة عن أجدادنا أعداء المسيح، وكيف أرسل الله الملكين المقدسين إيزابيلا وفرناندو ليطهرا البلاد ويدخلونا حظيرة الإيمان، هكذا كان يتحدث ناظرًا في عيون الموريسكيين من بين كل الحضور وكأنه يخبرهم بأنه يعرفهم جميعًا، تاليًا علينا دعاء الطويل بهلاك المسلمين، وليس بإمكاننا سوى

أن نؤمن خلفه على ما يقول، كان فرناندو كلما سمع هذا الكلام يتمتم باللعنة على كل ما حوله، ثم يقف في طابور طويل ينتهي بإيمانويل وهو يمنح الجميع البركة، كان فرناندو يستقبل رشّات الماء المقدس برأسٍ محني كأنه في حضور الإله ذاته، وما إن يعود إلى البيت حتى يشوي نفسه بماء يغلي كي يذيب ما علق به من أدران، ثم يسرد على مسامع والذي من عظة إيمانويل كل ما يشعل النار في جسده الميت، وأبي يتقلب في مكانه كمسيح يتحمل الشوك على الصليب بعين منكسرة وأسنان تطحن بعضها، حين ينتهي فرناندو من مهمته المؤلمة يغادر البيت وهو يلعن اليوم الذي ولد فيه موريسكيًا، لا أنسى يوم تزوج من حباة أو إيزابيلا، ووقف خاضعًا لكلمات القس البدين، منتظرًا بركته وماء المعطر وضربة الصليب على كتفه هو وحباة، معلنا أنهما أصبحا زوجين باسم المسيح، وما جمعه الرب لا يفرقه أحد، بعدها خرجنا من الكنيسة إلى بيته المطلي باللون الوردي حديثًا، يومها همس في أذني أن أسبقه لأغلي ماءً يكفي لحموه هو وزوجته، وما إن دخل بقدمه البيت حتى صاح منادياً عليّ: «هل انتهيت؟»، وحين هزرت رأسي مبتسمًا رأيته يكاد ينفجر غيظًا، وسرعان ما تركنا وهرع إلى الحمام بعدها حتى انتحى بحباة ليلغها بأن تقتدي به، بدا لي أنها أسقط في يدها، فلا يمكنها أن تزيل ثياب عرسها بهذه الطريقة ولا على هذا النحو، لكنها أيضًا رأت وجهه المحتقن فأسرعت لتغسل أدرانها، بعدها وجدت شيخًا أظنه من أهل البشرات العليا يجلس على الأريكة واضعًا يده على يدي فرناندو ووالد حباة،

وأخذ يقرأ الفاتحة معلناً زواجهما على مذهب الإمام ابن حنبل، ثم قبّل الجميع بعضهم بعضاً وانطلق الطبل والرقص في باحة الدار. كانت حباية أصغر منه بخمسة أعوام، وأكبر مني بمثلها، لكنها كانت ما تزال تحمل عقل طفلة جميلة، تهفو للعب الكرة والحب والحجلة معي أنا وزهراء، ما إن تنتهي من أعمال بيتها حتى تجيء إلى بيتنا لتبقى إلى أن يجيء زوجها في المساء فيأخذها معه، حتى حين وضعت طفلها ماركيز لم تفقد روحها الجميلة الرغبة في اللعب معنا، وكأنها صبية لم تكبر بعد، غير أنها في الشهور الأخيرة لم تعد تأتي لبيتنا، وإن أتت فلا تنتظر مجيء المساء، وأصبح عليّ أنا وزهراء أن نقوم بواجبات منزلنا دون انتظار لحضورها المتباعد كل يوم عن الآخر.

ظللت طيلة الليل أنتظر مجيء فرناندو، حاولت تسلية الوقت في إشعال نيران المدفأة آملاً في معرفة السر الذي يخبئه هو ووالدي عني، لكنه تأخر أكثر مما أحتمل، وأخذ رأسي يتساقط على كتفي حتى أمرني أبي بالدخول للنوم في غرفتي، ولم أجد بداً من ذلك، فأبى نفسه كان قد فرد جسده في مكانه المعتاد وسحب حرامه الثقيل على كتفيه معلناً أنه سينام، حاولت في فراشي جاهداً أن أظل مستيقظاً، فظللت أغفو وأصحو كما لو أنني مصاب بداء القحط، حتى سمعت أزيز الباب فنهضت مسرعاً لأفاجئ فرناندو ييقظني، لكنني فوجئت أن الداخل إلى البيت ليس سوى والدي، وبوجه متجهّم تماماً نظر إليّ أمراً بالعودة إلى سريرتي، فأطفأت

السراج ودخلت الغرفة سائلاً نفسي إن كان ما رأيته حقيقة أم جزءاً من حلم طويل.

لم أرَ فرناندو في اليوم التالي، ولم أستطع أن أسأل أبي عنه، وتشاغلت بمتابعة ما كلفني به معلمي في الدرس، لكنني لاحظت أن والدي الذي لم يترك من قبل ركنه القصي في غرفة المعيشة إلا للذهاب إلى المرحاض قد أخذ يتحرك بنشاط واضح في باحة البيت، في اليوم التالي رأيته يذهب إلى الحمّام العام في القرية، كان هذا الحمّام كغيره قد أُغلق بقرار من الرئيس ديسا، لكن صاحبه أجنائيو فرنانديز كان يعرف كيف يستغل الظلام مثلما يستغل شهوة القس ورجاله للمال، فتأخر أبي حتى نزل الظلام على الأرض ووضع ثيابه النظيفة تحت إبطه وخرج، فرحت أنتظره ساعات على عتبة الباب حتى رأيته وقد عاد شخصاً مختلفاً عما عهدته منذ سنوات، شخصاً حليق اللحية، مهذب الشعر، تطل من وجهه الأحمر عيناان ضاحكتان، تلقفت منه ثيابه ووضعتها في طست الغسيل النحاسي آملاً أن تأتي حباية في الغد لتقوم بغسلها، في الصباح لم تخيّب حباية ظني وجاءت مبكرة على غير عاداتها، بعدها جاء فرناندو، وجلس مع أبي في غرفته يتناقشان، سمعت الأخير يقول له إنه خائف على محمد ولا بد من إرساله بعيداً، قال فرناندو: «يمكننا أن نجعله يصعد الجبل ليقوم مع جماعتنا في البشرات»، فنظر إليه غاضباً كأنه يتهمه بالغباء، وخيم الصمت على جلستهما حتى قرر فرناندو الانسحاب، لم يأخذ

زوجته في ذلك اليوم، لكن أثرًا من صمته ظل مخيمًا على المكان لعدة أيام، بعدها طلب والدي أن أجمع ملابسي كلها في صرة واحدة لأننا ذاهبان في رحلة طويلة، ودون أن يخبرني بأكثر من ذلك أردفني خلفه على جواده الأبيض وأخذ يقطع طرقًا طويلة بين أحراش وجداول وصخور ورمال وغابات، كان صمته طويلًا، وإجاباته مختصرة ووجهته محددة إلى مدينة بعينها، علمت فيما بعد أنها طليطلة الجميلة.

كان قد حمل جدته إلى سريرها ثم اتصل بالمستشفى طالبًا الطبيب الذي يتابع حالتها منذ سنوات، كان يتوقع قدوم ذلك الشيخ العجوز المتهالك صاحب الخبرة العالية في التعامل مع العجائز، لكنه ما إن فتح الباب حتى وجد شابًا في العقد الرابع من عمره يقول إن إدارة المستشفى أمرته بمتابعة الحالة بعد رحيل أستاذه، قام بالكشف عليها وطلب من مراد أن يحضر على وجه السرعة مجموعة من الأدوية، فاتصل الأخير بصيدلية ذات خدمة توصيل للمنزل، ثم تركه يستريح في الصالة وذهب إلى المطبخ ليعد كوبين من الشاي الأخضر، حين عاد إليه وجده يتطلع إلى اللوحات المعلقة على الجدران بتمعن شديد، ظل يتنقل من لوحة إلى أخرى حتى فاجأته آية الكرسي المرسومة على هيئة العذراء بطفلها المسيح، فاستدار بوجهه النحيل سائلًا في حزم: «حضرتك مسلم ولا مسيحي؟»، فابتسم مراد مقررًا عدم إفادته بشيء: «موريسكي»، لوهلة احمر وجه الطبيب كما لو أن الكلمة صدمته، مما جعل مراد يبتسم في وجهه قائلاً: «مسلم من أصول أندلسية»، انتاب الطبيب الارتباك فقبض

على كوب الشاي مرتشفًا منه مرتين أو ثلاثًا قائلًا: «أخبرني والذي أن مصرها جر إليها أكثر من مئة عائلة من الموريسكيين، كالتميمي والمقريزي والمرسي أبي العباس والسيد البدوي»، لكن مراد قاطعه: «هؤلاء أندلسيون تركوا بلدانهم بمحض إرادتهم قبل سقوط غرناطة بزمان طويل، لكن الموريسكيين هم الذين وقع عليهم قرار التنصير الإجباري بعد أن سقط ملك بني الأحمر، فظلوا يدافعون عن دينهم وانتمائهم للمكان الذي وُلُوا فيه حتى تم تهجيرهم قسرًا عن الأندلس»، اتسعت المتاهة على مخيلة الطبيب الذي فتح عينيه لبرهة غير مستوعب الفارق بين الموريسكي والأندلسي، وسرعان ما أخذ يقلب وجهه بين الأقواس التي تعلو النوافذ والأبواب والمداخل، متأملًا الكرائيش التي صيغت على هيئة أسماك يلاحق بعضها بعضًا، ولم يكسر حاجز الصمت الذي حطَّ في صالة بيت الموريسكي سوى جرس الباب، فالتقط الطبيب الدواء من يد مراد مبدئيًا انشغاله باستكشاف ما فيه.

ظل مراد والطبيب بجانب السرير حتى استفاقت الجدة من نومها الطويل، حينها استأذن الطبيب فنهض مراد لوداعه بحياد تام، بينما رسمت جدته ابتسامة عريضة على وجهها وجلست بانتظار حفيدها، حين رآها على هذا النحو سألها عمًا حدث، فأشارت إليه بالاقتراب منها، ثم همست في أذنه بفرح: «جداك يقرؤك السلام»، أو مأ برأسه مرتبًا كتفها دون أن يسألها عن أي أجداده تقصد، فالرسائل دائمًا ما تجيء باسم العين الراعية عبد الله بن جهور، وللحظة انتظر أن تكمل ما بدأت،

لكنها شردت بعينها نحو الغزالة المتقافزة على مفرش السرير، وسرعان ما غلبها النوم فدخلت في عالمها السحري الأثير، عدل من وضع المفرش على جسدها الضئيل ثم خرج إلى غرفته باحثًا في فضاء الشبكة العنكبوتية عن صديقه راشيل إنفانتي.

حين فكر مراد في طريقة للتعرف على أي من أهله الذين أقاموا في بيت الموريسكي ثم تركوا ليدوبوا بين الناس في بلاد الله الواسعة، لم يجد أمامه سوى أن يلتقط صورة للبيت ويرسلها بالإيميل عشوائيًا إلى كل من يعرف ومن لا يعرف، موجهًا نداءً عامًا لكل من أقام في هذا البيت يومًا ما بالتواصل معه، لكن أحدًا لم يهتم بالرد عليه غير راشيل لويس بلاس إنفانتي، تلك التي أبدت إعجابها بالبيت دون أن تدري سببًا لذلك، جرت بينهما الرسائل في الفترة الأولى كمياء هادرة في شلال كبير، أخبرته أنها أسترالية من أصول موريسكية، وأنها تعمل بالصحافة لصالح جريدة لها طبعة عربية، تبادلًا الأفكار والمقالات المكتوبة عن المسلمين الذين نُصِّروا قسرًا بعد سقوط غرناطة، ومحتهم لما يزيد على قرن من الزمان دون أن يفرطوا في ميراثهم عن آبائهم، حتى واجهوا المصير المحتوم، كان خوف مراد أن تكون راشيل يهودية وليست مسلمة، فكل من اليهود والمسلمين عاشوا نفس المحنة، لكن لأن المسلمين كانوا أغلبية، وجميعهم نزلوا إلى الأندلس من بوابة المغرب، فقد صار كل من ليس كاثوليكيًا هو مغربي، ومع قرار التنصير الجبري أصبحت كلمة موريسكي لا تعني سوى مغربي مستنصر، أو نصراني جديد، لكنها عمليًا



كانت تعني مستضعف، وكان المسلمون واليهود في الهم سواء، فظل مراد مترددًا في السؤال عن دينها لأن السؤال عن الأديان صار بالنسبة إليه من الأسئلة المقيتة، ويبدو أنها شعرت بذلك من رسائله فأوضحت له دون طلب منه أنها من الموريسكيين المسلمين، وأن أهلها توزعوا ما بين المغرب وتونس ومصر والشام، حتى إنها لم يعد يعينها الآن سوى حق الحياة.

ظلت العلاقة بينه وبين راشيل مجرد رسائل تجيء وتذهب، في البدء كانت كثيرة ومتواترة، لكنها سرعان ما فترت وتقطعت وصارت نادرة، لكن ذلك لم يوقف العلاقة التي نشأت بينهما، وظل كل منهما يلتمس للآخر أعذاره في التأخر على الرد، حتى فاجأته بأنها انتقلت مع والدها إلى إسبانيا، وأنها الآن تعمل في وكالة كبرى للصحافة والإعلام، ولم تمضِ شهور حتى طلبت منه أن يكتب لها تقريرًا أسبوعيًا عما تقوله الصحافة المصرية، ومع قيام الثورة طلبت منه أن يكون تقريره يوميًا مشمولًا بمشاهدات من الميدان، في تلك الليلة بدأ بجولة على المواقع الإخبارية لمعرفة ما فاتته من أحداث، مستعرضا ما قيل عن اللجان الشعبية ودورها البديل عن الشرطة في تأمين المنازل وتسيير حركة المرور، راصدًا تصريحات القوى السياسية المطالبة برحيل النظام.

انتهى من تقريره وقرر أن يكتب لراشيل رسالة على الخاص، لم يكن يعرف من أين يبدأ ولا أين ينتهي، فكر في الكتابة عن سرب الطائرات الذي جعله ينحني ليحيي المعتصمين في التحرير، فكر أيضًا في الكتابة

عن القط الذي وقف بجانب سلة المهملات، والكتف التي اصطدم بها  
آن صعوده السلم، وعن جدته التي كاد يفقدها هذا المساء، وطبيبها الذي  
استبدلوا به طبيباً شاباً لا يعرف الفرق بين المسيحيين والمورييسكيين،  
في كل مرة كان يكتب ويمحو ما كتب، حتى انتهى إلى جملة وحيدة قال  
فيها: «عزيزتي راشيل، يبدو أنني صرت مصاباً بالتهيزات».

أغلق حاسوبه وذهب ليطمئن على جدته في سريرها، وجدها تغط  
في نوم عميق، وعبوة المحلول المعلقة في ضلفة دولابها أوشت على  
النفاذ، فألقى بها في سلة المهملات، خلع «الكميونة» من يدها بحرص  
شديد، ثم أطفأ الأنوار، وعاد إلى غرفته لينام، كان من المفترض بعد  
إجهاذ هذا اليوم الطويل أن يذهب في النوم بمجرد أن يلقي بجسده على  
السريّر، لكن مشهد القط بزغ فجأة في رأسه، وراحت أحداث اليوم كله  
تتوافد على ذاكرته كأنها ما زالت تحدث وأن الوقت ما زال في وضح  
النهار، لم يكن أمامه سوى أن ينهض من مكانه باحثاً عن علبة السجائر  
كي يخدر أعصابه بواحدة منها، لكنه ما إن مدّ يده في الظلمة ليجث  
عنها على الكوميدينو النائم بجانب سريره حتى شعر أنه قبض على يد  
شخص آخر في الغرفة، فانتفض كما لو أن ثعباناً لدغه ليقف على البلاط  
البارد بقدمين حافيتين، وبغريزة الخوف على الحياة انطلق صوب مفتاح  
النور في الغرفة فضغطة عدة مرات، لكن النور لم يأت، كانت ضربات  
قلبه تتسارع، ومفاصل ساقه آخذة في الارتجاف، تحسّس الحوائط  
والظلمة حتى وصل إلى مفتاح إنارة الصالة، ولم تكن أفضل حالاً،

لم يعرف ما الذي ينبغي عليه في ذلك الوقت، وما بين الارتجاف من البرد والخوف الذي يتصاعد بداخله، تعثر بمنضدة الشاي، ونهض من جديد يبحث عن الردهة المؤدية للبواب الكبير، حين فتحه كالهارب من الموت فوجئ بأجواء من الونسنة تتدفق إليه، بدا له أن الهواء البارد على بسطة السلم أكثر أماناً، شعر أن أنفاسه تعود إلى الانتظام، وأن أعصابه أخذت في الاسترخاء، أدرك أن الكهرباء منقطعة عن الشارع كله، وتذكر مشهد القطط والكتف التي اصطدم بها موقتاً أنه أصبح مصاباً بالتهبؤات وعليه من الآن البحث عن طيب نفسي لمراجعته، دخل الصالة ليرى ضوءاً شحيحاً منبسّطاً من أشعة القمر على سور الشرفة، زاد ذلك من ثقته بنفسه، عبر الممر الذهاب به إلى غرفة الجدة، وجدها نائمة في وداعة وعلى وجهها شبح ابتسامة صغيرة، بادلها الابتسام متأملاً ضوء القمر المتسرب إلى الغرفة من النافذة، فطبع قبلة على جبينها قبل أن يسحب أقدامه عائداً إلى غرفته، كانت ضربات قلبه قد هدأت تماماً، بينما تخذرت أعضاؤه بما يكفي لأن يستلقي على سريره مستقبلاً النوم العزيز، شعر أنه سقط على تلّ من الورق الكبير، كان يرغب في النهوض لاستطلاع ذلك الشيء الغريب، لكنه كان مجهداً بما يكفي، فأزاحه جانباً ودخل في نوم طويل.

عبرنا وادي نهر تاجة، وعدنا بالأوراق والأحجار والأتربة اللونية المطلوبة من طَلَبِيَّة، حين وصلنا إلى حدود طليطلة مع كاستيا لا مانتشا تهللت وجوه الرجال بالفرح، وراحوا يتصايحون بأسماء حبيباتهم معلنين أنهم في الطريق إليهن، كانت هذه واحدة من المهام التي أوكلها إليَّ العم باديث منذ اعتبرني بديلاً عن ابنه المتوفى في حادث سير، مخلقاً بذرة طفل في رحم زوجته الصغيرة، تلك التي في سن حبابة زوجة فرناندو، جعل لي العم باديث غرفة في بيته وعاملني كابن له، وأخذ يحدثني كلما رأيته عن عبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الناصر وهشام المؤيد وبني زيري وبني هود وغيرهم، كما لو أن والدي أودعني إليه ليحفظني عن ظهر قلب تاريخ الأندلس، لكنه لأمر ما لم يكن يحدثني عن سقوط طليطلة، حتى شككت أن عائلته كانت سبباً في ذلك، وإن كان العجائز من المدجنين أكدوا أن أجدادهم استسلموا في الدفاع عنها، حتى أذلهم الجوع وأحنى رقابهم الخوف، قائلين إن أعيان طليطلة اتفقوا على تولية الحكم لكبير بني ذي النون عبد الملك بن

متيوه، لكنه أساء السيرة، فأجمعوا أمرهم على خلعه وتولية ابنه إسماعيل الذي عين أبا بكر الحديدي وزيراً له، فلما توفي إسماعيل تولى ابنه يحيى من بعده، ثم حفيده القادر بالله من بعدهما، كل هذا والحديدي ممتلك وزارة البلاد، فخشي القادر من سطوته ودبر لقتله، فلما مات الحديدي أطلّت الفتن برأسها في البلاد، وأخذ والي سرقسطة المقتدر بن هوديشن غاراته عليها، بينما أعلن والي بلنسية أبو بكر بن عبد العزيز استقلاله عن طليطلة والقادر، وكاد ملك أراغون سانشو راميرو يتنزع قونية لولا أن القادر افتداها بمبلغ كبير من المال، ثم بحث القادر عمّن يعينه على مواجهة أعدائه، فلم يجد غير صديقه القديم ألفونسو السادس ملك قشتالة، فوافق على أن يتنازل له القادر عن سرية وفورية وقنالش، فضلاً عن أداء جزية سنوية، فأثار ذلك غضب أهل طليطلة، ورأوا أنه لا مناص من خلعه، فاندلعت الثورة التي فرّ القادر من أمامها إلى وبدة، ومنها إلى قونية، لاجئاً إلى صديقه ألفونسو كي يعيده إلى الحكم، فأرسل أعيان طليطلة للمتوكل بن الأفطس حاكم سرقسطة كي يجيئهم لضبط شئون البلاد، فلما جاء جيش ألفونسو وجد المتوكل بجيشه في المدينة، فأخذ يضيق الخناق عليه حتى فرّ المتوكل بما استطاع حملة من تحف وأثاث، وعاد القادر إلى كرسيه في حماية القشتاليين لمدة عشرة أشهر، لكن الناس ثاروا عليه من جديد وخلعوه مبايعين القاضي أبو بكر يعش، وكان المعتمد بن عباد ملك إشبيلية يراقب الأمور عن بعد، فأرسل وزيره ابن عمار إلى ألفونسو ملك قشتالة قائلاً إن المعتمد لا يمانع في حصولكم

على طليطلة، وإنه هو نفسه سيدفع جزية سنوية لكم، وذلك مقابل أن تتركوا له الأراضي الواقعة خلف جبال الشارات، فظلت طليطلة وحيدة في مواجهة قشتالة لمدة أربع سنوات، دون أن يسعى أحد لنجبتها، حتى نفذت الغلال وأكل الناس الميتة والحصى، فذهب الأعيان إلى ألفونسو مطالبين بفك الحصار مقابل دفع الجزية والتنازل عن بعض الحصون، لكنه ردّهم على أعقابهم خائبين، وفي النهاية قبل الجميع بتسليم المدينة للقشتاليين حفاظًا على ما بقي فيها من أرواح، فدخلها ألفونسو بجيشه الكبير رافعًا صليبه الفضى على مئذنة مسجدتها الجامع.

لا أعرف لِمَ اختار والدي العم باديث من بين كل أصدقائه ليتركني معه في هذه المدينة التي تبعد عشرات الفراسخ عن جبال البشرات وقراها، لم يذكر باديث أمرى إلا لقلّة من أصدقائه العجائز، فكانوا يفردون لي أرديتهم مرحبين بالوزير ابن الوزراء والأمير ابن الأمراء، رغم أن غرناطة سقطت منذ ما يزيد على نصف قرن، وبني جهور اندثر حكمهم منذ ما يزيد على أربعة قرون، غير أنهم كانوا يتحدثون عن دولة بني جهور بوصفها الجنة المفقودة، كان الجميع في طليطلة يحمل أسماء إسبانية، ويتردد بشكل دائم على الكنيسة كل أحد، بعضهم كان يزيد فيُعلّق في محاله ويبوته صورًا للمسيح وأمه، ولم يكن يعرف العربية غير بعض العجائز، لكن أغلبهم من ذوي الحرف، يتقنون الزراعة والحدادة والتجارة والنسيج والبناء، وأغلبهم يجيد لغة القشتاليين، وبعضهم يعرف اليونانية ولهجة أراغون، قلة هي التي كانت تعرف لغة بني عثمان، ولم

تكن مناصب المدينة تخلو من المدجنين الذين تنصروا بمحض إرادتهم قبل سقوط غرناطة بزمان، فالإسبان وحدهم ما كانوا يصلحون لتدبير الأمور؛ لذا كانوا في البدء يبدون الود للأندلسيين، غير مجبرين أحدًا على ترك دينه أو زيه أو لغته، لكن الناس تماشيا مع الدولة الجديدة كانوا يدخلون المسيحية بمحض إرادتهم في الظاهر، مؤكدين أن الدين في القلب وليس وشما على الجلد، وأنهم حين يموت ميت لهم يتركونه ينال الأمجاد السماوية في الكنيسة ويعودون ليقرأوا القرآن في بيته.

حين دخل والدي على باديث في ورشته انتفض الأخير مهللاً: «هر ناندو ابن جهور؟! يا مرحباً»، لكن أبي تبيس في مكانه كما لو أن الرجل وجه إليه إهانة لا تُغتفر، فتأسف باديث معتذراً وهو يحتضنه: «إنها العادة يا صاحبي، لكن ورب الكعبة حضورك إلى طليطلة معجزة تحسب للمسيح»، فانفجرت أسارير والدي واحتضن باديث الساخر بحرارة ومزاح لا مثيل لهما، كانت ضحكاتهما تتعالى بين الحين والآخر، كأنهما لا يعرفان من الدنيا سوى النكات، بعدها تركاني أثقل على جمر الانتظار في الورشة، عين على الباب الذي خرجا منه، وأخرى على العاملين بأدواتهم ورسومهم وهيئاتهم التي تشبه التماثيل. وجوه معفرة، وثياب متسخة، وعيون يكاد يطمسها الرماد، حين عاد والدي انتحي بي جانباً وهو يقول: «لقد كبرت يا محمد، وعليك الآن أن تعتمد على نفسك، سأتركك لتتعلم مهنة تنفع بها نفسك وناسك، فاحرص على ألا يفوتك منها شيء، وأن تكون لعمرك باديث كولد الذي فقده»، يومها رأيت في نظرة عينه الصارمة

ووقفته الحازمة ووجهه المنحوت كقطعة من صخر البشرات قراره الذي لن يحيد عنه، فأمسكت بنفسي عن البكاء، وأومأت بالموافقة، فضمني ضمة أدخلت أضلعي في بعضها ثم أفلتني سائلاً: «هل تريد شيئاً؟»، فطلبت منه أن يبلغ سلامي لزهراء وحياة وفرناندو وابنهما ماركيز.

حمل باديث صرة ملابسي واصطحبني إلى بيته، لم يكن هناك غير زوجته وطفل صغير في حجرها، فنادى على مَنْ في البيت ليتعرفوا عليّ: «هذا خوسيه ابن صديقي أرماندو، جاء به والده من مجريط ليقيم معنا إلى أن يعود من رحلته للعالم الجديد». حين وقعت عيناى على صبية في عمر حباة بوجه مستدير وعينين تشوبهما سحابة من الحزن، وضع يده على كتفي قائلاً: «هذه بيلارا زوجة ابني جابريل»، وتلقّف من على صدرها الطفل: «هذا الشقي حفيدي الحبيب بدرو»، وأشار إلى السيدة التي تجاوزت الستين: «وهذه زوجتي برنانديث، يمكنك اعتبارها أمك الجديدة»، فهمت فيما بعد أنه ما كان بمقدوره أن يفرط في بيلارا بعد وفاة زوجها، ليس خوفاً من الوحدة ولا رغبة في أن يكون هناك مَنْ يخدمه، ولكن لأنه لا يستطيع مفارقة حفيده بدرو.

«أبي أعلم مني بالطرق التي ينبغي على أقدامى أن ترتادها»، هكذا أقنعت نفسي، فبذلت جهدي في تعلّم كل ما تقع عيناى عليه، حتى أن باديث كان يُشبّهني بالأرض التي لا تشبع، وكلما رأيت شيئاً جديداً ظننت أن أبي تأخر عليّ في مجيئه من أجل تعلّمه، وكلما التقيت بيلارا أضع عيني في الأرض متجنباً النظر إليها كي لا أقع في حبها، حتى



إنني كنت أستيقظ مفزوعاً من نومي إن رأيت طيفها في المنام، مؤكداً أن ذلك ليس سوى خيانة للأمانة والعهد، شعرت أيضاً أنها تبذل كل ما في وسعها كي لا تراني، فظلت أنهمك طيلة النهار في عملي ولا أعود إلا وقت النوم، وظلت هي تحرص على خدمتي دون أن نلتقي إلا مصادفة، رغم أن وجهها الباسم الحزين يطاردني في كل مكان، وظل الأمر لسنوات مخبئاً في قلبي حتى فاجأني العم باديث ونحن نرمم بعض حوائط الكنيسة الكبرى قائلاً: «أريد أن أخطبك لابتني». ودهشت لعلمي أنه ليس لديه بنات، فابتسم قائلاً: «ابتني بيلارا، هي خير زوجة لخير ولد، ولم يبق من العمر الكثير كي أحمل طفلكما على يدي». يومها تماسكت عن الطيران من الفرح، وتجلدت عابثاً أمامه كي لا يتخيل أن نفسي رغبت في زوجة ابنه، وتحدثت بجدية المتمنع: «حين يعود أبي يمكننا أن نتحدث في ذلك»، لكن الأخبار التي جاءتنا من غرناطة قالت إن الثورة قامت هناك، وإن أبي قائد في جيش ابن أمية، وإن البشرات صارت دولة للمسلمين، كان الجميع يتناقل هذه الأخبار بتعجب في العلن، وربما برفض في بعض الأحيان، لكنهم من داخلهم كانوا يباركونها بالدعاء، لم يعلم أحد أنني من البشرات، ولا أن والدي من المتورطين في الثورة، وظل الكل يعاملني على أنني خوسيه أرماندو، وظلت الورشة مهبط الأخبار، فمن يأت لعمل رسوم القديسين يُدل بما يعرف، ومن يرغب في تزيين بيته يجرى بما لديه، ومن يسع لعمل تطريز لحواشي مخطوط لديه يحك عما يعرف، قصص القديسين كانت تبدأ وكلام الفلاسفة والشعراء يمر سريعاً، لكن البشرات دائماً ما تستقر أمامي، البشرات بأهلها وناسها

وطرقها وشعابها تطاردني في كل شيء. في الظاهر كان الكل يتحدث كمن يهمس بسر لعابر في طريق طويل، لكن طليطلة في الواقع كانت تدوي كخلية نحل حول الحدث الجلل، دون أن يطرح أي من أسئلتها سؤاله المخبأ عن موقفه لو أن البشرات طلبت منه المساعدة.

في هذه الرحلة كنت بصحبة خمسة من زملاء، خرجنا لنبني مقبرة لواحد من النبلاء، فأمضينا أسبوعاً في مجريط، أنهيت خلاله عدة مهام أمرني بها العم باديث، من بينها شراء أتربة نحتاجها في عملنا، وورق مصقول للنسخ عليه، وتوصيل عدد من الخطابات وصرر الأموال لأصدقاء له، حين أنهيت مهامني أخذت زملائي وعدنا بالبغال مع قافلة في طريقها إلى طليطلة، فعلمنا من رجل بها أن ابن أمية انتصر في الحرب على قائد جيش غرناطة، وأنه أسره وتزوج امرأته الجميلة، قالوا أيضاً إنها حين رأت فروسيته وأخلاقه أعلنت إسلامها كي تتزوجه، ولا أعلم ما الذي جعل نفسي تهفو لرؤية أبي وفرناندو والزهاء وحبابة، وتجيش بالحنين إلى البشرات وقراها ومعلمي هناك، فانهمرت مني الدموع، حين سألتني رفقائي عن السبب قلت إن العم باديث توحشني، فانفجروا في نوبة من الضحك والسخرية، وراح كل منهم يسارع بمجرد وصولنا كي يحكي له الأمر بطريقة الخاصة، لكن الرجل لم يكن في حال تسمح له لا بالضحك ولا الكلام، فقد انتظر حتى انتهيت من عملي ثم انتحى بي جانباً وهو يقول: «كل نفس ذائقة الموت، وما يبقى غير وجه ربك ذي الجلال والإكرام».

لا يعرف كم استغرق من ساعات في النوم، لكنه حين استيقظ وجد جدته بكرسيها المتحرك رابضة إلى جانب سريريه، بدا على ملامحها الإرهاق أكثر من العجز، حاول أن ينادي عليها لكنه شعر أن لسانه أثقل من أن يستجيب له، بعد جهد طويل خرجت من فمه آهة، فانتبهت الجدة وحركت كرسيها باتجاهه مبتسمة: «ما كل هذا النوم؟»، هكذا سألت، لكن عينه تركتها وراحت تتطلع إلى عبوة الجلوكوز المعلقة أعلى رأسه، وخرطومها الرفيع الأبيض الواصل بينها وبين الكميونة المنغرزة في رسغه الأيسر، لاحقته جدته: «حمدًا لله على السلامة»، بعدها بيومين استطاع أن يفهم ما جرى، قالت له إنه أخذ يصبح في نومه كما لو أنه يتعذب، حين أتت إلى غرفته وجدته مبللًا بالعرق وحرارته مرتفعة، فاتصلت بالمستشفى وطلبت الطبيب المتابع لحالتها، فجاءها بدلًا منه شاب قال إنه صديقه، وإنه يعاني من حمى حادة، ثم جلس بالساعات إلى جانبه حتى تحسنت حالته.

انشغل ذهن مراد بالطبيب الذي لم يره غير مرة واحدة، واعتبر نفسه من خلالها صديقًا له، نددت عنه ابتسامة ساخرة والتفت إلى جدته ليقول إنه

لا يعرفه، لكنه فوجئ بتوهج الفرح في عينيها، حين سألها عن السبب ضحكت قائلة: «رأيت جدك بالأمس، قال إنه لا خوف عليك». استدار عنها إلى الجانب الآخر هامساً لنفسه: «عدنا إلى الهذيان»، ولا يعرف إن كانت قد سمعته أم أنها فقط كانت تكمل المسار الذي بدأته، فقد ضربت على يده بدلال. «جدك راضٍ عنك يا مراد». فتمتم بصوتٍ غير مفهوم، لكنها سألت: «أنت ما شفتوش؟!»، فتح عينيه دهشة من صيغة السؤال الذي يقرر فعلاً أكثر مما يستنكره، وكأنها لا تسأل بقدر ما تعلن عن تواطؤ على سر ما، فلم يعرف بِمَ ينبغي عليه أن يجيبها وقتئذٍ، فاختصر حديثه في ابتسامة عريضة وهو يقول: «أنا؟!»، لكنها بنفس لمعان الفرح القائم في عينيها مدّت يدها أسفل المفروش النائم على ساقبها وأخرجت رزمة من الأوراق ذات الحجم الكبير: «وهذه.. ألم ترها؟!»، كانت الأوراق من النوع السميك بدائي الصنع، بدا له أنها أقدم من فكرة الكتابة ذاتها، وأدهشته هوامشها المزينة برسوم لوجوه ملثمة في طرق جبلية، وفي المنتصف تنام برسوخ كتلة الكلام المكتوب بخط كوفي لريشة فنان قديم، فتح عينيه، وأخذ يقرأ: «هذا ما كتبه محمد بن عبد الله بن جهور، الملقب بالموريسكي في تطوان وشفشاون، إلى أولاده وأحفاده من بعده، كي لا تموت الذكرى في قلوبهم، فتضل أهواؤهم ويصبحوا من بعده هالكين».

حين انتهى من قراءة الجملة رفع عينيه ليسأل جدته عما تعنيه، لكنه لم يجدها، تحامل على نفسه وخرج من غرفته باحثاً عنها في الصالة وفي

الغرفة التي تنام فيها، وفي الحمام والمطبخ وحجرة الخادمة العجوز، لكنه لم يجدها، أخيراً فطن إلى أنها في مكانها الأثير بالشرفة، وتذكر كيف اختار جده أبو جذام هذا المكان ليكون على مقربة من ذكرى تخص الباشا الكبير الذي خدمه أكثر من عشرين عامًا، فقد عمل في بحرية محمد علي حتى أصبح نائبًا لقائد أسطوله، ونال جفلكًا يغنيه وعائلته عن ضنك الحياة، فظهر له عبد الله بن جهور في ليلة مقمرة قائلاً: «اتبعني إلى المحروسة، فإن وصلتها عد بأهلك وناسك إلى أرضك الجديدة»، فلما عاد بهم غدروا به في منتصف الطريق، فقسا عليهم وتركهم في تيه السخرة سنين طوالاً، حتى غضبت منه العين الراعية وراحت تلاحقه بإنداراتها المتوالية، في البدء ماتت ابنته في بئر الساقية، لكن الموت لم يكن له واعظاً، وسخر منه قائلاً: «لو تخطفت كل أبنائي في ليلة واحدة فلن أنحني لأنقذ لصاً واحداً من عقاب يستحقه، ولا خائناً من مصيبة ألمت برأسه»، فراحت الكواويس تطارده وهو غير منصت لوعيدها، حتى أصابه الجذام، ونفر منه الناس، فعزلته زوجته وأبناءؤه بغرفة أعلى قصره الكبير، أغلقوا أبوابها ونوافذها ولم يتركوا له غير كوة يمدونه منها بالطعام، فظل حبيساً في ظلمته يتآكل منه اللحم والعظم صارخاً في الظلام: «افعل ما شئت فلن أنقذ خائناً من عقاب يستحقه»، كان قاسي القلب شديد المراس، سيئ الخلق مع الأجداد، رغم أنه أكثر الأبناء حظوة وحظاً، لكنه لم يكن يغفر الخيانة ولا يقبل بالأدنياء، فرعدت السماء وتزلزلت البيوت حتى تساقط حصص الحوائط، وانكسرت

أخشاب النوافذ والأسقف أمام عينية، فخرج من محبسه يصرخ: «أيها الجد الذي لا يعرف نسله، اغضب كما تريد، فلو انهدم البيت على رأسي ورأس أهلي فلن أغفر لمن خانوا، ولن أفتح قلبي للقياهم من جديد»، ويبدو أن العين الراعية رأت ذلك تحديًا لها، فاهتزت الأرض إلى أن تفصدت أواصر القصر، وخرَّ ككومة من تراب أمام عينية، ولم ينج منه سواه، فراح ينفض الأنقاض عن أبنائه وخدمه صارخًا: «اغضب أكثر، أريد المزيد، لأنني قاسي القلب ولن أستجيب»، فاندلعت الريح وبرقت البروق واشتعلت النيران في إسطبلات الخيول، وامتدت ألسنتها لثلاثهم الزروع والأشجار، امتدت لتأكل كل ما تراه عيناها، وهو يصرخ ساخرًا: «أهذا كل ما لديك، أين الجحيم، أريد الجحيم»، بعدها سقطت السيول العظيمة، فكسحت كل ما في طريقها نحوه، حتى جرفته إلى وادٍ بعيدٍ عن أرضه، أو ما كان يعتبره أرضه، وتوقفت الحرائق ونزلت الثلوج، فظل يرتعد من البرد وجروحه تتفجر بالصدید والدماء، ولا يعرف أين يختبئ من قدره وعجزه، حتى وجد العين الراعية أمامه سواءً بسواء، فجلس على الأرض نازفًا ومكابيرًا بالضحك، فسألته العين الراعية بصوت حزين: «أما زلت تريد المزيد يا بني؟!»، فنظر إلى جده باكيًا: «ألا يزال هناك المزيد؟!»، فطأ الجدر رأسه: «هذا جزء مما شهدناه في طريقنا من الفردوس إلى الأرض»، ثم ضجَّ بنشيج مكتوم، فتوقف المجذوم عن بكائه ونظر إليه متعجبًا: «أوتبكي العين الراعية؟»، فأجابه: «لقد بكت الرمال والأحجار من أجل عذابنا معك، فلم كل هذا العناد، ولم أنت

قاس إلى هذا الحد؟!»، حينها مسح أبو جذام دموعه واعتدل في مكانه قائلاً: «لا أحب الجبناء يا جدي، فلمَ تريدني أن أبسط يدي من أجلهم؟!»، فمسح الجد دموعه ناظرًا في عينيه: «كأنك لم تنجب، ولم ترغب في حماية أطفالك الضعاف من الذئاب، كأنك ولدت من حجر، فلا ترحم ولا تسمع ولا تطيع»، فبكى حبيب الله: «من أجلهم ذهبت، ومن أجلهم تخلّيت عن مجدي، من أجلهم أرسلت خدمي ليفرشوا الغرف بالستائر لهم، ويحضروا الجياد لركوبهم»، هنالك سقطت من عين العين الراحية دمعة أحرقت ما تحتها على الأرض قائلاً: «ومن أجلهم وهبناك المال والمجد، وسرنا أمامك في الطرقات المظلمة، ولم نضللك السبيل يومًا كما أضللناهم، ولم نحمل عليك سخرة كما حملنا عليهم، فهل تريد أن تنزل عذايبن على قلب؟!»، لم يكن المجذوم قد انتبه إلى أن جذامه اختفى، ولا إلى أن السماء أفصححت عن وجه منير به قمر ساطع، وثلج تتطاير نتفه على الوجوه كما الريح العليل، ولم ينتبه إلا في تلك اللحظة إلى أن اختيار صواب الطريق منحة، وأن الترفع عن الأذى منحة، وأن الشكر في وقت الضيق منحة، فرفع عينيه متأملًا وجه جده الرحيم قائلاً: «غدا.. أذهب لأرضيهم».

ومثلي مَن تهفوه بنشوة الصبا      ومثلك مَن يعفو وما لك من مثل  
هي النعل زلّت بي فهل أنت مكذب      لقليل الأعادي إنها زلة الحسل

تهادت إلى أذن مراد أشجان ابن زيدون بمجرد اقترابه من باب الشرفة، كانت الجدة تسمعها من جهاز يعمل بالريموت كنترول، حين لمحت شبح حفيدها وهو يطل بشعر رأسه المهوش من الباب الزجاجي الرابط بين الشرفة والصالون، عدلت من كرسيها وأشارت إليه بالجلوس في المقعد المواجه لها، فارتمى أمامها بجسد مهدم، وراح يتمايل مع الصوت الشجي للمطربة غير المعروفة، كان من المفترض أنه يبحث عن الجدة ليسألها عما تعنيه الأوراق التي دفعت بها إليه، لكنه كان قد نسي الأمر في رحلة البحث عنها، وأحاله التفكير في مكان البيت إلى تذكر جده أبي جذام وما جرى له، حين سأله عن شروده سألها عما دار بخاطره، فهدأت من صوت الكاسيت بحيث يصبح خلفية مناسبة لحديثها، وهي تقول: «حين صفى قلب المجذوم صفت له العين الراعية، وردت إليه عافيته، فعاد يبحث عن أبناء عمومته، كان أغلبهم قد مات في سخرة حفر القناة، ومن عاد منهم كان كثوب مهترئ لا يصلح لشيء، فعمه إبراهيم كان قد كف بصره وطعن سنه، لكن أذنه كانت ما تزال قادرة على العمل، حين ألقى عليه السلام وجده ينتفض في مكانه وعلى وجهه الفزع، فاحتضنه باكياً: لم كل هذا الخوف يا عمي؟! فجأوبه بكاءً وبكاءٍ: قضيت عمري كله في الخوف، فما الذي يمنعني عنه الآن؟! لم يكن لدى المجذوم إجابة عن سؤاله، فصمت طويلاً قبل أن يسأله: ما الذي يجعلك تعود إلى سابق عهدك؟ بدا وكأن إبراهيم ليس لديه وصفة واضحة لمنع الخوف عن النفوس، فطأ رأسه أسفاً: لو كان لي بصر كي أراك ربما أيقنت أن عهد الأشباح قد ولى. ولم تكن لدى المجذوم عصا سحرية ليلبي بها طلبه، لكنه اصططحبه إلى قسم الرمد بمستشفى قصر العيني، فظل هناك



أسبوعاً ليخرج منه كأول موريسكي يرتدي نظارة سميكة على وجهه، حين أبصر بها ما أمامه تأمل المجذوم ضاحكاً: كأن الدهر لم يغير شيئاً فيك، فطأ حبيب الله رأسه: ضاعت مني زوجتي وأولادي، وأريد أن أعمر من جديد، فدلني كيف أبدأ الطريق في هذه السن؟! تنهد إبراهيم معدلاً من نظارته: هل تجوز لك هانم ابنة أخيك سعد؟! فأجابه حبيب: تجوز يا عمي، قال: هي لك، قال: وما شرطها؟ تنهد إبراهيم قائلاً: بيت في المحروسة، فوافقه مشروطاً أن تنتقل العائلة كلها معها، لكن عمه هز رأسه نافيًا: لقد كبرت على الرحيل، وأمنيته أن أموت على فراشي في بيتي، فخذ من يتبعك من أبناء عمك إلى مقرك الجديد، فحملهم معه في رحلة لم يرض أبائهم أن يكملوها من قبل.

لم يشأ أن ينتظر بزواجه من هانم إلى أن يبني بيته الجديد، فاستأجر لها بيتاً في المنيرة ظلت فيه حتى أنجبت له سميح وفخري، وشعر حبيب الله أن العين الراحية صفحت عنه، فشرع في بناء هذا البيت، كان مكاناً فضاءً خلف الفيلات والقصور، ولم يكن مسموحاً بالبناء إلا بإذن من الشركة المصرية العقارية، فاشترى منها قطعتين بنى على الأولى البيت، وجعل من الثانية حديقة له، حين أحضر العمال وضرب الطوب اللازم للبناء تذكر كيف ضاعت هيئته وفقد جانباً من أرضه بسبب تخاذل أبناء عمه في رحلتهم معه إلى كفر الدوار، قال للمهندس: أريد حديقة كبيرة أمامها بيت كبير من عدة أدوار، بكل دور شقتان أو ثلاث، وأمامه فيلاً صغيرة من دورين، تفتح أبوابها على الشارع الكبير. وحين بدأ العمال البناء، ضربوا على البيت والفيل والحديقة سوراً كبيراً يشبه أسوار

القلاع، وكسوه بالقرميد من أعلى، جاعلين السطح لخزان المياه وغرفة الغسيل، وتاركين ما بين السور وفيلا حبيب الله ممرًا يؤدي إلى البيت الذي توزع الموريسكيون في شققه وأدواره، وعندما انتقل حبيب الله بأهله إليه كانت هانم قد وضعت بطنها الثاني منجبة سعيد وهيام، ولم تمضِ أعوام حتى سقط حبيب الله في مرضه الأخير، تاركًا الجميع في بيت واحد ظل يجمعهم حتى شاءت الأقدار وتفرقت المصائر».

حين نظر في هاتفه وجد أن راشيل اتصلت به أكثر من مرة، فأيقن أن فترة مرضه طالت أكثر مما ينبغي، وأن ثمة أمراً مهماً تحتاجه فيه، فتح حاسوبه فوجد أربع رسائل منها، في الأولى كانت تضحك هازئة من متاهته كموريسكي وحيد قاتلة: «رجاء انتبه لعملنا»، في الثانية وجدها تقول إن الأوضاع في مصر أصبحت مهينة لرحيل النظام، وفي الثالثة كانت تصرخ: «مراراً أدين أنت؟»، لم يفتح الرابعة وقرر أن يعتذر موضحاً أنه لازم الفراش ثلاثة أيام، فظهرت له على الشات: «حمد الله على السلامة، لدينا عمل كثير ولا بد من إنجازه»، سألها عن ماهية العمل فجاءته كلماتها تلاحق بعضها بعضاً على الشاشة: «الوكالة قررت تعيينك مراسلاً دائماً من مصر بدلاً من العمل بالقطعة، بذلت مجهوداً كبيراً لإقناعهم بذلك».

لم يكن مراد يتوقع في يوم ما أن يكون صحفياً، فحين جاءه خطاب مكتب التنسيق وجد نفسه مرشحاً للدراسة في كلية دار العلوم، وكان النحو والبلاغة أكثر ما يكره في دراسته، فقرر تحويل أوراقه إلى كلية

أخرى، أشارت عليه جدته بكلية التجارة كي يكون محاسبًا كجده رقيق، وبعد مناقشة طويلة تمكن من إقناعها بأن الفنون الجميلة أكثر ما يناسبه، لكنه لا يعرف كيفية التقدم إليها، فابتسمت موضحة أن أعز أصدقاء والده يعمل أستاذًا فيها، وسرعان ما التقطت الهاتف واتصلت بالأستاذ شارحة رغبة مراد في التعلم على يديه، بعدها أخبرته أن الدكتور رؤوف حسن سينتظره غدًا في مكتبه، وضع رؤوف أمامه دفتر اسكتشات كبيرًا قائلاً: «ارسم لي شيئًا هنا»، ثم تركه ساعة وعاد ليجده قد استخدم أقلام الرصاص والفحم في رسم عدة لوحات عن البحر والمراكب المكتظة بالراكبين على متنها، كان بعضهم يصارع الموج من أجل النجاة، وبعضهم كان قد مات بالفعل، كل الصفحات كانت مزدحمة بالبشر في المياه وعلى الشواطئ والجبال والوهاد، جميعها كانت تبدو كلقطات بالأبيض والأسود عن يوم الحشر في عصور قديمة، أبدى الرجل إعجابه به كفنان له فكره وموقفه الخاص، مقررًا إدراجه في قوائم راغبي الدخول لامتحان القدرات الفنية، بعد شهر أصبح مراد طالبًا في كلية الفنون، وأظهر تفوقًا في الرسم والتشريح والنحت على زملائه وبعض مدرسيه، فضمه رؤوف إلى فريق العمل في ورشته الخاصة، ومع بداية العام الثاني صار قائدًا للفريق، كانت مهمتهم إعادة رسم اللوحات الشهيرة لتعميم الفائدة من الفن، فالأعمال المصورة لا تزيد العالم إلا تسطيحًا، هكذا أقنعه رؤوف، فعكف على استنساخ عشرات الأعمال الخالدة لدافنشي ورامبرانت ورفايللو ومايكل أنجلو وجوفاني وأنطونيو كانال وجورجوني وغيرهم، وسرعان ما انتقل إلى أعمال بيكاسو ودالي وميرو

وأقرانهم من أبناء العصر الحديث، في نهاية العام الدراسي قبل الأخير طلب رؤوف من مراد أن يرسم له عشر لوحات من مخيلته، مستفيداً من المدارس والأساليب التي عمل عليها في الورشة، ففُضِيَ الإجازة كاملة في رسمها، يومها أبدى أستاذه انبهاراً بتقدمه الفني، ومنحه مبلغاً مالياً لم يكن يتوقع الحصول عليه، ولم يخبره بشيء عن مصير هذه اللوحات، ولم يشغل مراد باله بالأمر، فقط ظل يمارس تيهه على أصدقائه بأنه أفضل فناني الدفعة، غير أنه في منتصف العام دعاه صديق لحضور افتتاح معرض واحد من الفنانين العرب، وفي جولته بالمكان توقف أمام ثلاث من اللوحات التي منحه رؤوف مكافأة عليها، كان أكثر ما شغله أنه رأى توقيع الفنان العربي بارزاً عليها، فلم يستطع أن يتمالك نفسه وهو يصرخ بأن هذا الفنان لص وهذه ليست لوحاته، حدثت بطبيعة الحال جلبة في المكان وحضر الأمن ليحمله كمهوس للفن ويلقي به خارج القاعة، ولم يكن أمامه غير رؤوف ليعرف منه كيف وصلت لوحاته إلى هذا الرجل العربي، لكن صدمته إجابة أستاذه: «انس الأمر حفاظاً على مستقبلك»، كانت صدمته كبيرة في كل ما حوله، فامتنع عن الذهاب إلى الورشة، وفكر كثيراً في الطريقة التي يعاقب بها الجميع، حين علم بأن الكلية ستقيم ندوة عن حقوق الملكية الفكرية للأعمال الفنية بحضور العميد ورئيس الجامعة ذهب وانتظر اللحظة المناسبة، ما إن فتح العميد باب المداخلات حتى التقط المايك سائلاً عن موقف الجامعة من أستاذ يعمل في تزييف اللوحات، فأجاب الأخير بحسم أنه سيتم فصله على الفور، فأخذ مراد يصرخ في الجميع بأن رؤوف لديه ورشة في بيته

متخصصة في ذلك، وأنه يستغل جهده تلامذته لبيعته لفنانين عرب، وأنه تاجر لوحات مزيفة، وانفعل رؤوف غاضبًا، فدخل الأمن وحمل مراد بشورته إلى خارج القاعة للتحقيق معه، ولم يعرف كيف صدر قرار بفصله عامين.

كان قرار الكلية هو فصل مراد منها لتشهيره بأستاذ جليل دون بينة، حينها ضاقت عليه الدنيا ولزم بيته لا يخرج منه ولا يرغب في رؤية أحد، ظلت الجدة عاكفة إلى جواره لتقنعه بنسيان الأمر وسحب أوراقه إلى كلية التجارة، كان شعوره بالهزيمة كبيرًا، ورغبته في الانتقام بلا حدود، فظل يفكر في طريقة لمعرفة ما الذي حدث، في النهاية هداه تفكيره إلى الذهاب لقاعة العرض التي تعاقدت مع الفنان العربي لمعرفة وسيلة اتصال به، وبعد حيل كثيرة حصل على رقم هاتفه واتصل به عدة مرات حتى تمكن من محادثته، يومها ضحك الرجل مواعداً إياه بعد شهر في أحد الفنادق الشهيرة على النيل، حين التقى به قال إنه غير مقتنع بفكرة اعتذاره، لكنه يدرك رغبته في الانتقام من أستاذه مثلما يدرك قيمة إمكانياته كفنان، قالها بوضوح: «أريدك أن تعمل معي بدلاً من العمل مع رؤوف»، وكان شرط مراد هو الحصول على بكالوريوس الفنون الجميلة بتقدير ممتاز.

كان الرجل أميرًا عربيًا مغرمًا بالفن والتجارة فيه، وبداله أن العمل مع مراد مباشرة أفضل من وساطة رؤوف بينهما، يومها خصص لمراد فيلا بالتجمع الخامس قائلاً: «هي لك ما دمت معي»، فحمل الأخير

أغراضه وانتقل إليها، رسم بها أكثر من مئتي لوحة دون تحديد لسعر أو مقابل، كان يترك الأمر للأمير وكأنه زاهد في كل شيء، فقط تدفعه الرغبة في الانتقام لرسم عشرات اللوحات دون نوم أو طعام، وحين حصل على الشهادة ذهب ليلتقي عميد الكلية كي يخبره أنه لا يقل فسادًا عن رؤوف، كانت المفاجأة أن الرجل خرج على المعاش واحتل رؤوف مكانه، فلم يتراجع ولم يقرر الانسحاب، بل أكمل طريقه للدخول عليه، ولدهشته كانت دماثة رؤوف معه في ذلك اليوم بلا حد، بدا له أن الرجل مهزوم من الأساس، وأنه صار يتمتع بالحكمة أكثر من أي وقت مضى، بعد فترة من الصمت وضع رؤوف عينه على نقطة باهتة في الحائط متنهدًا: «أعرف أنك جئت لتخبرني أنك حين تقرر بيع نفسك فإنك الذي تحدد الثمن، لكن كل هذا بلا جدوى، فقد دخلت المسار الذي دخلته منذ أربعين عامًا، أنت الآن تربح لكنك تبتعد عن ذاتك، ولن تكون فنانًا في يوم ما، فقط ستظل محترقًا للفن، وربما تتحول بعد وقت إلى تاجر جديد، جميعنا بدأنا من هذه النقطة، وتحولنا إلى هذه القمة الفاسدة». ورغم تقززه من كلمات أستاذه ورغبة الأخير في إفساد فرحته بالانتقام منه، إلا أن الكلمات ظلت تدور في رأسه كرحى لا تعرف معنى التوقف.

حين فاجأ الأمير العربي برغبته في إقامة معرض خاص به لم يمانع ولم يقف في وجهه، لكنه قال: «فكر قليلًا.. فالحياة ليست بالبساطة التي تراها»، اعتبر مراد ذلك نوعًا من الغيرة وخوف الرجل على الطائر الذي يبيض ذهبًا في قفصه، فعكف على أن يرسم عددًا من اللوحات التي توقع

أن تحدث مفاجأة للوسط الفني، وتعلن عن ميلاد فنان كبير بدرجة شاب، من جانبه قام الأمير بحجز واحدة من أهم قاعات العرض في القاهرة كإهداء منه لصديقه، وحرص على أن يساعده بنفسه في إحضار البراوير وطبع بوسترات الدعاية، وذهب كلاهما إلى القاعة يوم الافتتاح في انتظار عشرات الضيوف من كبار النقاد والأساتذة الذين تمت دعوتهم، لكن أحدًا لم يأت، وكل الذين حضروا كانوا زملاء قدامى لمراد، ورغم ذلك فقد فوجئ الأخير بلوحة له مع مقال على نصف صفحة في واحدة من أشهر الجرائد القومية تحت عنوان: «مهنة تقليد الكبار»، تحدث فيه الناقد الشهير عن رغبة بعض الشباب في الشهرة عبر تقليد لوحات لفنانين مشاهير في عصرنا الراهن، وكان من الصعوبة على مراد أن يثبت للناس أن الآخرين هم الذين سرقوا أعماله، فمزق لوحاته وأغلق على نفسه غرفته مدركًا أن الحياة ليست بالبساطة التي يتصورها، وتحت وطأة الغضب والشعور بالفشل قرر أن يهجر عالم الفن التشكيلي، وحين سأله صديقه الأمير عن المجال الذي سيعمل به، أجابه بأنه يبحث عن جريدة ليعمل بها رسامًا للصفحات، ورغم أن ذلك لم يكن حقيقة إلا أن الأمير ضحك قائلًا: «وهذه أيضًا ستكون هدية مني»، ثم أخرج «كارت» شخصيًا وكتب عليه توصية لرئيس تحرير جريدة شهيرة.

هكذا وجد مراد نفسه منتميًا إلى عالم الصحافة، فقد حمل الكارت ودخل على رئيس التحرير الذي رحّب به كفارس عظيم، ثم أمر بتعيينه كمصور



لا يحتاجه أحد في شيء، في البدء اعتقد أن الجريدة ستكون فرصة طيبة لتحويل المسار الذي اختطه لنفسه، لكن المضايقات التي لاحقته جعلت الحياة تتخذ وتيرتها الباهتة معه، حيث جلس في البيت لا يفعل شيئاً سوى مطالعة النت ومشاهدة التلفزيون وقراءة الجرائد أو النزول للجلوس على المقاهي المجاورة للبيت، ونادراً ما كان يذهب للجريدة أو يتابع عملاً ما، ظل على هذه الحالة أكثر من عام ونصف العام، قبل أن يفاجأ باتصال من مدير مكتب مسئول كبير، حين ذهب وجد المسئول في انتظاره برفقة أستاذه رؤوف حسن، قال المسئول: «الوزير معجب بلوحاتك»، فضحك مراد: «لكن مهنتي هي تقليد الكبار»، هنالك تدخل أستاذه: «الوزارة تريد أن تعتمد عليك في مشروع كبير»، يومها ضحك قائلاً: «لكنني لا أستطيع الزواج من اثنتين»، مشيراً إلى عمله مع الأمير العربي، ففتح رؤوف حقيقته وأخرج مجلة على غلافها صورة الأمير وتحته عنوان عريض. «رحيل الأمير الفنان»، في هذه اللحظة فقد مراد توازنه وطرق رؤوف على الحديد وهو ساخن، موضحاً أنه لم يكن يوماً بعيداً عن أعينهم.

كان خوف مراد من اتهامه بالمشاركة في عمليات تزيف هو ما جعله يقبل بالمهمة التي تم تكليفه بها، ولم تزد على إعادة رسم عدد من لوحات فناني عصر النهضة، كان أغلبها قد رسمه مرات ومرات من قبل، الفارق الوحيد أنه سيرسمها بأدوات وتقنيات ستجعلها تنمهي مع اللوحات الأصلية في القدم، قال رؤوف إن ذلك مشروع كبير لإعادة إحياء الفن، وإنه لن يعمل فيه وحده، فثمة مرممون وكيميائيون وأساتذة كبار

سيكونون معه، لكن مهمته ستكون بمثابة حجر الأساس الذي سيعمل عليه كل هؤلاء، لم ينشغل مراد بأيّ من هذا، وقرر أن ينهي مهمته بأسرع وقت كي يغلق ملفه القديم في هذا المجال، بعد عدة شهور تسلموا منه اللوحات التي كلفوه بها ثم أبلغوه أن المشروع توقف لانعدام التمويل الكافي، فحمد الله أنه انتهى من الأمر بسلام، وعاد ليستمتع بعزلته، ولم تمضِ شهور حتى فوجئ بمقال في الجريدة التي يعمل فيها تحت عنوان: «سرقة لوحة شهيرة»، لدهشته كانت اللوحة إحدى الأعمال التي اشتمل عليها المشروع، ففكر في أن يذهب لرئيس التحرير كي يخبره بالحقيقة، لكن الأحداث كانت قد تسارعت، واجتاحه الخوف من كل شيء حوله، فأغلق هاتفه لاعتنا اليوم الذي قرر أن يدخل فيه كلية الفنون، وظل يعيش في هدوء برائحة الخوف حتى طلبت منه راشيل كتابة تقرير أسبوعي عما تقوله الصحافة في مصر، ثم عادت لتقول إن الوكالة اعتمدته مراسلاً دائماً لها في القاهرة، يومها طلب إعفاءه من المهمة، فلا يمكنه أن يغالب خوفه، ولا رغبة لديه في الاحتكاك بأيّ من المسؤولين، يومها تعلل بكونه ليس صحفياً، ولا يجيد أبسط قواعد اللغة، وأنه آخر شخص يمكن الاعتماد عليه في عمل منتظم، لكنها كانت حاسمة، قالت بوضوح: «لقد راهنت عليك.. وقضي الأمر».

قضيت خمسة أيام بين الحياة والموت، يعاودني البيطاري كل صباح ومساءً، ولا يخدمني في غرفتي غير العم باديث وزوجته، فقد منع الخدم من الدخول عليّ حتى لا يتسمعوا ما أهرف به من كلام في هذياني، كان والدي طيلة الوقت معي بوجهه المنحوت وملامحه البارزة وطوله الفارع، بينما جواده العربي ينتقل به من مكان إلى مكان، مرة في أعالي الجبال وأخرى على السفوح، وتارة بين الرياض والبساتين وأخرى في الفيافي والصحاري القفار، رأيته يقود قومه في معارك صغيرة تتوسع وتكبر ولا تنتهي، ومَن يُمَت منهم يترجل من على حصانه كي يدفنه بملابسه ويضع عليه علامة كبيرة من الحجر الجيري، يحفر عليه اسمه ولقبه بالعربية، ويقف ليدعوله بالفردوس العظيم، ثم يركب جواده ويطير كفراشة بين البساتين والحقول، رأيت اقتتالاً وخوفاً وحماساً وشجاعة منقطعة النظير، جميعهم كانوا أبطالاً في مواقفهم العصبية، لم يتأخر أحد عن نجدة غيره، وكأنهم تحولوا إلى كرة من لهب تندرج من أعلى التل ولا تتوقف حتى تدخل أبواب غرناطة الجميلة، نظرت

بعيني فيمن أرى فلم أرَ فرناندو ولا حبابة بينهم، نظرت في كل الأماكن بعيني صقر حتى كدت أرى الدودة في الأرض والخط الصغير في ورق الشجر لكن دون جدوى، وحده أبي كان يمرح بمن معه على مدى البصر أينما وليت وجهي، يتصل بكتائب تارة ويفصل عنها تارة أخرى، يغزو قرى وحصونًا ويحمل أسلابًا ويجمع عبيدًا ويطير من مشهد لآخر، لم يحادثني أو حتى يتسم في وجهي، وكلما ناديت عليه كان يشيح بوجهه عني كأنني أخطأت، أو كأنه لا يريد أن يتبه الناس لمكاني، كانت نداءاتي تدوي مع الريح على قمم الجبال وبين الصخور، كنت أسمع أصداها تتردد بين البيوت والصوامع ومجاري المياه، بعد لأي لمحت على البعد زهراء، ناديت عليها وأشارت لي بحجابها، وكلما هرولنا تجاه بعضنا بعضًا كانت القمم تزيد وتتكاثر لتحول بيننا، والأرض تتسع وتكبر حتى صرنا كحصاتين في طريق مليء بالأحجار والصخور، لهفي عليك يا زهراء، وحدها أُمِّي التي جاءتني في مخبئي، ربت ظهري، وقالت: «لقد فعلت ما أمرت فاهدأ يا بني»، حسبتها تذكّرني بليلة أرسلتني فيها بالطعام لأبي ورسالتها له في فمي تقول: «حياتك بقاء لمن مات، وموتك بقاء لمن أجرم»، لكنها كانت تشير إلى الأعالي في الغرب، فنظرت نحو الإشارة، فإذا بالعم باديث يقرأ في مصحف كبير، وإذا بزوجه تملأ يديها طمئًا من جير الجبال لتمسح به على جدران مسجد قديم، حين التفت لم أجدها، ولم أجد أبي ولا زهراء، وجدتني وحدي أبكي كصبي في متاهة لا خروج منها، وقد ألقى الليل أستاره على كل ما حوله، حينها فقط، فتحت عيني،

نعم لم أكن أحلم ولا أهذي، كنت يقظًا كما أنا الآن، وكان أبي بجانبني ممسكًا بملعقة خشبية وطبق من فخار، يدفع بالثرید نحو فمي، فأزدرده رغمًا عني، كانت إيماءاته بالسكوت كما اعتدتها دائمًا، لكن شيئًا ما تغير في طبعه، فقد أصبح رقيقًا بما يكفي، أصبح ممزوجًا بأمومة كنت أحوج ما أكون إليها في هذه الليلة، وكلما سقط الطعام من فمي أمسك بذيله الطويل ونظف ملابسي، حين شعرت بالشبع توقفت من فوره مرتبًا كتفي: «نم الآن يا محمد، فغدًا سأجيئك من جديد، غدًا سيكون لنا حديث طويل». حينها أغلقت عيني مثلما فتحتهما ورحت في سبات أهل الكهف، لا أعرف كم مرّ من الوقت، ولا كم جرى من الأحداث، لكنني كنت مطمئنًا كالنائم في بيته، فلا فزع ولا خوف، لا جوع ولا عطش، وحدها أذني التي سمعت صوت البيطاري وهو يجس يديه نبضي: «اليوم أفضل بكثير»، هكذا قال، وهكذا تهادى إلى أذني صوت زوجة العم باديث: «لقد تناول طعامه كاملاً»، ضحك البيطاري: «عمره سيكون مديدًا»، ثم وضع راحته على جبیني، وفتح بإصبعه جفني فرأيتهما يقفان كزوالين على حائط، وجفلت مقلتي من الضوء الصارخ فأغلقتها رغمًا عنه، فكأ كأ بصوته الرفيع ضاحكًا: «حمدًا لله على السلامة، من زهراء التي أرتك كل هذه الأيام؟!». لكنني لم أجب، وهو بدوره لم ينتظر ليرى الدهشة على ملامحي، فقد وضع أدواته في محفظته واستدار خارجًا.

رفاقي في الورشة هم الذين حملوني على أذرعهم نحو بيت العم باديث، أما هو فلم يكن يعرف ما الذي ينبغي عليه فعله، كان يهرول

خلفهم مرتبكا وموقنا بأنني في عداد الأموات، وجهه تلوّن بألف لون حين سقطت دون كلمة أمامه في الورشة، قالوا إن الرجل يحبني أكثر من نفسه، قالوا تحللت أعصابه وفقد رشده وراح يصيح دون أن يدري ما الذي يريد مني، يصيح فقط حتى تنبّه بعضهم وهروا إليه، بينما هروا آخرون إلى بيت البيطاري، فحملوني إلى البيت وهو يلطم وجهه خلفهم، في البدء قال البيطاري: «إغماء بسيطة وسيفيق منها على المساء»، لكن حرارتي تزايدت، وعرقى انهمر كالسيل العرم، ولم يعد بوسعهم ترك المفارش غارقة بالماء، فاختلط على البيطاري الأمر، وأمرهم بعزلي عن الجميع بغرفة رطبة: «وادعوا له بالشفاء»، فسقط الرعب في مفاصلهم: «هل تموت الأمانة عندنا؟ وما الذي يمكننا أن نقوله لصاحبها؟!»، لكنه مثلما جاء طوفان فجأة فقد انقطع فجأة، وهبطت السكينة مثلما زالت الحمى، ورأوني أتأرجح من جديد بين جنبات الغرفة سائلا: «متى يمكنني النزول للعمل؟!»، فقهقه البيطاري العجوز: «يا لك من شقي غريب الأطوار!»، كان جسدي قد عاف الفراش ورائحة العرق ورطوبة الغرفة، فقلت: «راحتي في الورشة بضجيجها وأشغالها وعمالها»، لكنني وجدت قلبي قد عاف طليطلة وما فيها، كانت لديّ رغبة للحركة أكبر مما أتوقع، أكبر من قدرة أي مكان على الإمساك بي، فأبي وجواده يمرحان على مدّ البصر، وقلبي يأكلني على زهراء، وفرناندو الغائب الحاضر يهش بعصاه أمام عيني كطاحونة هواء، «فما الذي حدث في البشرات؟»، هكذا حدثني نفسي، ويسألني باديث عما حلّ بي، فأقول: «رأيت أبي»، ويجيبني: «كان فارسا.. رحمه الله»، أقول: «رأيت بال فعل»، فيستعبد بالله

من الشيطان مستغفراً، وموقناً بأنني أُصبت بالمس أو الجنون، «لعلك ما زلت مريضاً، غداً نذهب إلى الكنيسة، بها تعاويذ تحرق الصخر»، هكذا بادith في وادٍ، وأنا في وادٍ آخر، لا يجمعنا سوى الحزن واليأس والخوف، فلزمت الصمت مدة حتى هزني قائلاً: «أوتشعر بشيء؟»، فهزرت رأسي نائفاً، ثم رفعت عيني المنكسرة لأضعها على وجهه: «أريد السفر»، فتبسّم الرجل كما لو أنه وجد الخلاص: «مع اكتمال المحاق تصحب الرجال لشراء أثربة وأوراق»، لكنني قاطعته: «البشرات أريد يا عمي»، حينها تجعدت ملامحه و غارت عيناه، فهزرت رأسي أسفاً: «نعم البشرات»، ورأيته يحاول كسب الوقت: «لكنها في حرب، والطريق غير مأمون، ولن يسمح الإسبان بالدخول أو الخروج منها»، غير أنني وضعته أمام الرجل الذي لا يمكنه أن يخالف له أمراً: «أبي أمرني بذلك»، فوضع يده على الأرض قابضاً يأس على الحصى: «لك الله يا بن جهور، لا تتورع أن ترج بنفسك وبينك في وادي الصعاب»، حين انتهى من عتابه لوالدي رفع رأسه نحوي مستسلماً: «غداً نتدبر الأمر».

القاهرة تضج بالزغاريد كما لو أنها لم تعرف معنى للفرح من قبل، فقد سقط الزعيم وتم تفويض الجيش في إدارة شئون البلاد، وتغافل الناس عن ذلك مبتهجين بالنصر، كانوا قد جلسوا على المقاهي في اليوم السابق منذ الظهيرة حتى العاشرة ليلاً منتظرين الخطاب الأخير، ذلك الذي أعلنت كل وكالات الأنباء أنه سيعلن تنحيه فيه، لكنه خرج عليهم بعد طول انتظار ليقول إنه راغب في إكمال مدته والموت على أرض هذه البلاد، كان ذلك بمثابة صدمة للجميع، فقررت الجموع في الصباح أن تؤدي صلاة الجمعة في الشوارع والميادين وتزحف لمحاصرة القصور الرئاسية، حينها لم يكن أمام قادة جيشه سوى أن ينصحوه بالتنحي، فاشتعلت القاهرة بالتهاليل والأحضان وأضواء الألعاب النارية التي شقت طريقها نحو السماء.

أرسل الموريسكي تقريره وخرج يبحث عن جدته في غرفتها، نادى عليها مرتين ولم يجدها، توقع أنها في شرفة البيت، فدفع بخطواته ليراها تقلب فنجانها كمن يقرأ طالع الأيام، بينما مطربة قديمة تترنم بصوت شجي:



عَذِيرِي مِنْ خَلِيلٍ يَسْتَطِيلُ      يَمِيلُ مَعَ الزَّمَانِ كَمَا يَمِيلُ  
وَيَرْضَى أَنْ تَضِيعَ سَدَى حَقُوقِي      وَبَاعِي فِي الْهَوَى بَاعٌ طَوِيلُ

راح يسابق الصوت في غنائه وكأنه يقدم مشهدًا تمثيليًا أمامها، حتى إن الجدة خجلت من حر كاته وضغطت على الريموت فأوقفت صوت الكاسيت، فأنحني طابعًا قبله على خدها قائلاً: «جنى هانم تهيم عشقًا فيمن؟»، رفعت عينها تجاهه: «تذكرت يوم خطبني جدك»، لم يتمالك نفسه من الضحك، فارتسمت مسحة من الحزن على وجهها واستدارت عنه، شعر أنه أخطأ التصرف وأنحني ليقبل رأسها معذراً: «اعتقدت أنك نسيت هذه الأمور منذ زمن طويل»، فاستدارت إليه ببريق هادئ في عينيها: «وهل أنسى أن الجدة هانم هي التي اختارتني زوجة له»، بدا أنها جادة في تذكرها للأمر، فتوقف مراد عن الضحك واتكأ بذراعه على سور الشرفة: «كيف؟»، تنهّدت وكأنها تسافر في الزمن البعيد: «كنت في الثالثة عشر، وكان أحفاد حبيب الله يقيمون في هذا الدور بعدما انتقلت إليه الجدة هانم، كانت شفتنا مواجهة لشفتهم، لم أكن أتوقع يوماً أن يكون رفيق زوجا لي، ربما لأنه يكبرني بعشر سنوات، وربما لأنني كنت مشغولة بشاب آخر، فحين دخلت التوجيهية تعرفت عليه أمام المدرسة، فصرنا نلتقي بعد انتهاء الدراسة كل يوم بالقرب من مسجد الشيخ العبيط، ثم نذهب للسير على كورنيش جاردن سيتي، حين أرسلت المدرسة إلى البيت تقريراً عن هروبي المتكرر كلفت الجدة رفيق بمراقبتي، ظل ينتظرني أمام المدرسة حتى التقيت ذلك الشاب، وذهبنا كالعادة إلى الكورنيش،

حينها وجدناه أمامنا فجأة وكأنه سقط من السماء، صفعني على وجهي وأخذني من يدي كمن يجر عنزة إلى البيت، يومها اجتمعت العائلة وتلت الجدة هانم قرارها على والدي: سمح طلب يد ابنتك جنى لابنه رفيق يا فخري، وأنا وافقت. فتمتم والدي بخضوع: الرأي رأيك. ولم يستغرق الأمر أكثر من أسبوع لشراء الأثاث وتعليق الزينة ودعوة الضيوف، كانت صفعته ما تزال حاضرة على وجهي، حين اقترب مني أصابتني رجفة كما لو أنني أمام وحشٍ ضارٍ، وكلما حاول التقرب مني ازداد الرعب في داخلي، حتى أشفق عليّ وتركني أنام على السرير ووضع لنفسه فراشاً على الأرض، في الصباح تفحصتني الجدة هانم بعين خبيرة، ثم اصططحته معها إلى الخارج، حين عاد وجدته ينظر إليّ وكأنني غير موجودة، بينما كل من في البيت يهتئونني ليس على زواجي من رفيق، ولكن لأن الجدة هي التي اختارتني له، لكن ذلك لم يمخُ خوفي منه، ودام الأمر بيننا على هذا النحو ما يقرب من عام كامل، فلا هو يقربني ولا خوفي منه يزول، ولا أعرف إن كانت العائلة كلها تواطأت على الأمر بالصمت أم أننا بدونا أمامها كزوجين عاديين تمامًا، حين شعرت أن الحصار ضاق عليّ أكثر من اللازم ذهبت إلى الجدة قائلة: طلقيني من رفيق. فأخذتني في حضنها ضاحكة: سأنظر في الأمر. بعدها وجدته يدخل عليّ قائلاً: قابليني في الظهيرة في ميدان سليمان. كنت أظنه سيأخذني لمأذون كي يتم مسألة الطلاق، لكنني فوجئت به يتخذ بنا طريقاً إلى الكورنيش، ومنه إلى حديقة الحيوان لنجلس صامتين وكأننا غرباء لا يعرف أيّ منّا الآخر، فأخذ اثنان من الشباب يغازلانني على مرأى منه وهو صامت، ولم يكن

أمامي سوى أن أحتمي به، هنالك نهض من مكانه وتشاجر من أجلي، يومها ضربهما لكنه لم يخلُ من بعض الجروح في وجهه وعينه، فرحت أمسح الدماء عنه وأنا أعيد حساباتي، فهو اختيار جدتي لي، وابن عمي ومسئول حسابات الوكالة، يتمتع بوسامة أفضل من الشاب الذي تعلقت به، ومعه البكالوريا ولو شاء لأكمل تعليمه في الجامعة، فهل جنت كي أرفض رجلاً يسعى الجميع للتقرب منه واصفينه بالعاقل الحنون، يومها أيقنت أنه بالفعل اختيار العين الراعية وأنني الأكثر حظاً بين النساء، لكننا كنا كلما رزقنا بمولود توفي في أسبوعه الأول، وتكرر الأمر مرات حتى نجا من الموت أبوك يوسف ومن بعده عمك نجاة».

تذكر مراد علاقته غير المفهومة مع راشيل، فلاهما يعيشان قصة حب ولا عقله يخلو من الانشغال بها، رغم أنه لآن لا يعرف منها سوى صوتها، صوت ليس فيه أنوثة ولا ذكورة لكنه يشبه ماكنة الحياة التي تعيشها، جذبتة جنى هانم من شروده: «لعلك تذكرت ناريمان؟»، لم يعرف بم يرد عليها، فناريمان التي قال جده إنها لمراد ومراد لها مخفية منذ سافرت مع عمها عفيف إلى لبنان، كانت بمريول المدرسة حين توفيت عمته نجاة تاركة إياها وشقيقها وديع، لكن عفيف الذي غادر البلاد منذ سنوات جاء وأخذهما من جدهما رقيق، ولم يستطع الأخير أن يقول له «لا»، وعلى النقيض مما توقعه الجميع كان سخيًا معه بما جعل الموريسكيين جميعًا يظالبونه بمعاملتهم مثلما عامل عفيف.

تنهدت الجدة قائلة: «سامحها الله جواهر، مزقت شمل العائلة وأثارت المشكلات حتى من قبل زواجها بعفيف، كم عارض والده

سميح تلك الزيجة، حتى إنه حبسه في مخزن الخردة بمصنع الزجاج  
قائلاً: ليس من صليبي مَنْ يخرج على قانون الموريسكي ويتزوج من غير  
الموريسكيين، إلا أن الجميع اضطروا لعمل الزينة وإقامة الأفراح بعدما  
ذهب رفيق لأخيه سميح قائلاً إن العين الراعية بسيفها المسنون جاءت في  
المنام قائلة: زوّجوا الغريب للغريبة، ولا تخشوا على دماء الموريسكي  
من الدنس. كان ذلك في عام الانفصال عن سوريا، وعام الحزن الذي  
عمّ الجميع، فلم تمضِ شهور حتى رحل سميح حزناً على ابنه عفيف من  
غضب العين الراعية، بعدها أصرت جواهر على ترك البيت والإقامة بعيداً  
عن الموريسكيين، طلب رفيق يومها من ابن أخيه ألا يسمع كلامها، فقد  
وعدت العين الراعية جده حبيب الله أن مَنْ يخرج من بيته هذا دون عذر  
لا يناله إلا غضبها، لكن عفيف لم يكن ينصت إلا لحديث زوجته،  
فاشترى بيتاً بالقرب من قصر البارون إنبان، وطلب ميراثه عن أبيه، طامعاً  
في مصنع الزجاج له ولأخيه أسعد، وظن الجميع أن رفيق سيرفض،  
لكنه قال لهم: يكفيه ظلمه لنفسه. ويبدو أن العين الراعية لم تكن راضية،  
فلم يمضِ عام وآخر إلا وصدر قرار بمصادرة المصنع، فاشتعل غضب  
جواهر على البلد بأسره، وكاد عفيف يُعتقل بسببها، لولا أن أصدقاء  
نصحوه بالخروج من البلاد، فكانت لبنان مستقراً لهم قبل أن تنقطع بهما  
الأخبار.

وضعت الجدة يدها على خدها وصمّت مسترجعة أياً ما بكى فيها  
رفيق على صدرها، وشعر مراد أن هذا يوم الذكريات المؤلمة، فهمّ أن  
يتناول الريموت ليعيد الصوت الشجي إلى الحياة، لكنها أمسكت بيده،

ومسحت عينيها قائلة: «في تلك الآونة احتضن رفيق ابن أخيه أسعد، فزوجه من ابنته نجاة، قائلاً له: من اليوم أنت ويوسف أشقاء، تعملان يداً بيد، وإذا مت فما أملكه إرث لكما بالعدل، كل شيء قسمة بينكما، عسى أن تكون العين الراعية راضية عنا. حين أنجبا ناريما ن كنت ما تزال في العاشرة من عمرك، حملها جدك رفيق على يديه ووضعها في حجره، ثم جمع يوسف وأسعد أمامه قائلاً: ناريما ن لمراد.. ومراد لناريما ن. فاحتضن كل منهما الآخر مباركاً له، لكن الأيام السعيدة لا تدوم، فقد مات أسعد تاركاً في أحشاء نجاة ابنهما وديع، فكان يأخذهما في حضنه كل ليلة قائلاً: ولا تعلم نفس بأي أرض تموت. وسرعان ما مرضت نجاة ولحقت بزوجه، فراح يبكي كما لو أنه لم يبكِ من قبل، ولزم فراشه بالأسابيع لا يأكل ولا يشرب إلا غصّباً، وما كاد يخرج من حزنه حتى جاءنا عفيف وجواهر قائلين. نريد أبناء أسعد وإرثهما، كاد يوسف يفقد عقله ويقتلها في ذلك اليوم، لكن رفيق قال: ابحث عن مشترٍ لحديقة البيت. حين نظر يوسف مستنكراً احتضنه وهو يقول. الله لم يجمع ظلمين على قلب، فهل نجمعهما نحن؟».

جهزني عمي باديث بمثونة تكفي أسبوعًا، رغم أن الطريق لا يستغرق أكثر من يومين، قال إنه لا يعلم ظروف الحرب بين الإسبان والبشرات، وطلب مني أن أبلغ فرناندو منه السلام، وأن أسأله إذا كان بحاجة إلى أهله هنا، موضحًا: «إنهم يعتقدون أننا خذلناهم، لكن هذا لم يحدث، فقط نحن لا نستطيع أن ننكر النعمة التي نعيشها، ولو كانوا في مثل ظروفنا ما فكروا في الثورة، لكن الله وحده يعلم ما في النفوس». رأيت عينه منكسرة وفي حلقه غصة من شيء ما، لم أعرف وقتها إن كان غاضبًا من الثورة أم لأنه لم يشارك فيها، لكنه كان حريصًا على ألا أصاب بأذى، فأحضر ثلاثة بغالٍ ورجلين كي يكونوا في معيتي، ووجدته يدفع لي بدرع وسيفًا ثلثًا. «لتقشير جوزة الهند إن اعترضتك في الطريق»، أصابني كرمه بالخجل، ورفضت اصطحاب الرجال والسلاح «إن أنجوني من اللصوص فإنهم سيقتلونني على يد الجنود»، هكذا قلت مكتفيًا بخنجر دسسته في طياب ملابسي، وما إن وضعت رحلي على الجواد حتى قام كل من في الر

لتوديعي كأنني ذاهب إلى حرب لا عودة منها، فتركهم والدموع تملأ عيني متجهًا إلى البيت كي أودع بيلارا وبيدرو وزوجة العم باديث، على درجات السلم المؤدي لغرفتي في الدور العلوي رأيتهما واقفة وفي عيناها دمعة لا تنزل ولا تزول، وقفت أمامها ولديّ سؤال واحد لا أستطيع النطق به، بينما في رأسها آلاف الأسئلة عن المجهول الذي لا أعرفه، كنت أعلم أنها في أشد الاحتياج لمن يربت كتفها ويأخذها في حضنه، أنا نفسي كنت أحتاجها لأن تفعل معي ذلك، لكنها لم تفتح فمها بأكثر من: «سنتظرك كما نحن»، ثم رأيتهما تنهوى جالسة على السلم، كدت أنهاوى معها لولا أن يداً مسّت كتفي برفق من الخلف، فاستدرت لألقي بنفسي في أحضان صاحبها، كانت هذه يد العم باديث التي استسلمت لها عائداً إلى الباب، كان يجبر أعضائه كالعائد من معركة خسر فيها كل شيء، لكنه أصر على مساعدتي في امتطاء الجواد بيديه المرتعشتين وعينه الجبلى بأنهار لا تجف، قلت: «ادعُ لي»، فانفجرت مقلته بالدموع: «سنتظرك جميعاً»، حملت جملتيهما كبشارة في قلبي، ورحت أحث الجواد بالسير في اتجاه الجنوب الشرقي نحو غرناطة، آملاً أن ألتف بعيداً عن العيون التي تترصد العابرين في هذه الأيام، ودعوت الله ألا تكون هيئتي قد تغيرت كثيراً كي لا يقتلني أصحاب ابن أمية قبل الوصول إلى فرناندو، حين رأيت جواداً مسرعاً باتجاهي أسفل الجبل شعرت أن شيئاً ما يُحاك ضدي، أرخيت العنان لجوادي ورحت أضربه بقدمي كي يسرع في سيره، لكن ضربني له بدا كما لو أنني أهدهه، فاستسلمت لقدري وأخذت أسير بثقة مارك

بولو في بلاد المغول والتتر، أو متطلعًا لمعالم الجبال والسهول كما لو أنني كرسنوفر كولومبوس في بلاد العالم الجديد، تشاغلّت بهذه الفكرة حتى تساوى جواده مع جوادي، فالتفت لألقي عليه تحية الصباح، لكنه كان ملثمًا ولم أرَ ملامحه، هو بدوره لم ينظر لي ولم يرد على تحيتي، وحين سبقني ببضع مترات توقف بجواده كما لو أنه نسي شيئًا، تأملت هيئته من الخلف فوجدتها مألوفة لي، انحناء الظهر وطريقة الركوب وكيفية التعامل مع الجواد هي نفسها، حين اقتربت منه سألتني عن وجهتي فقلت: «غرناطة»، وكنت أظن أن تلك إجابة كافية، غير أنه عاد يسأل من جديد: «غرناطة أم البشرات؟»، فدهشت من معرفته بحقيقة وجهتي، وارتبت أن يكون تابعًا للكنيسة أو الإسبان، فتلجلجت قبل أن يجيئني صوته: «إذا كنت ذاهبًا إلى هناك فاتبعني»، انتبهت إلى رنة الصوت، هي نفس رنة صوت والدي، نفس صرامته في الحديث، لكن أبي مات منذ شهور، فكيف يمكن للموتى أن تمتطي الجياد وتحادث الأحياء؟ سمعت صوته يتردد: «معك حق»، ولم أعرف إن كان يجيب عمّا في ذهني أم أنه يخاطب نفسه، وللحظة اقشعر جلدي، وتزايدت ضربات قلبي، لكن صوته من جديد جاء: «السفر يحتاج إلى رفقة»، كان يحادثني دون أن يلتفت إليّ، أو ينتظرني لأسير بمحاذاته، وكلما هممت لأقترب بجوادي منه كان جواده أسبق، وظلت المسافة بيننا على ما هي عليه، لا تطول ولا تقصر، بينما صوته يأتي هادرًا من مكان عميق، كأنه يتحدث من أحشائه، قال: «ستمر بمنعطفات صعبة، وأماكن موحشة، فلمَ خرجت



وحدك؟»، لم أنشغل بالرد على السؤال وقررت أن أباغته: «هل تعرف أبي؟»، حينها ضحك ضحكته الهازئة التي أعرفها منذ الصغر: «أهل البشرات جميعاً يعرفون بعضهم بعضاً»، تمتعت خلفه: «نعم.. لكن هل يعود الموتى إلى بيوتهم؟».

كان علينا أن نعبر من على ممر طويل ضيق، تكاد أرجل الجياد تنزلق من على صخوره لو لم تأخذ حذرهما، استغرق الأمر مني بضع دقائق كي أصل إلى الجانب الآخر، بينما كان جواده من اللحظة الأولى قد عبر برشاقة كأنه يمشي في الهواء، حين اعتدلنا في سيرنا من جديد هتفت فيه: «لكنك هو، أو أنك على الأقل روحه الطيبة»، وجاءني صوته الرصين: «العالم أوسع وأعقد مما تظن، فاستمتع بما تعرفه، أو على الأقل بما تعتقد أنك تعرفه»، أدركت أن إجابته جاءت سابقة على سؤالي عن كيفية مجيئه، شعرت أيضاً بطمأنينة تسري في جوانحي، فلم أعد منشغلاً بالحصول على إقرار بما لا يريد إقراره، وقررت أن أتبعه حيث شاء، سائلاً عن فرناندو وحبابة والزهراء، لكنه لم يرد، ولم يُشر حتى بالامتناع عن الكلام، فساد الصمت بيننا حتى شعرت أن أعضائي صارت منهكة، قلت: «هل يمكننا أن نستريح؟»، ودون أن يلتفت أشار بيده كسهم نحو أكمة بالقرب من رافد نهر صغير، نزلت عن جوادي وفتحت زوادة العم باديث، ورحت أمضغ الطعام في تكاسل المنهك، متذكراً ما قاله الأخير عن دولة الرأي والشورى، وكيف عصم أجدادي دماء الناس من الفوضى، قلت: «كيف انفرط عقد الخلافة وتشتت الناس في ممالك

يأكل بعضها بعضًا؟»، خرجت زفرة حارقة من صدره، نزل بعدها عن جواده نزول المجبر على أمر، ثم انتحي جانبًا ليقول: «كان المستنصر بالله آخر الخلفاء الأقوياء من بني أمية، لكنه لم ينجب سوى ولدين هما عبد الرحمن وهشام، مات الأول فنقل أبوه العهد إلى هشام وكان صغيرا، وسرعان ما مات المستنصر، فطمع الصقالبة في الحكم، مخفين خبر موته عن الناس، وذاهبين إلى حاجبه جعفر بن عثمان المصحفي طالبين منه تولية الخلافة للمغيرة بن عبد الرحمن الناصر بدلًا من هشام ابن المستنصر، غير أن المصحفي ذهب إلى قائد الشرطة محمد بن أبي عامر وأخبره بما يريده الصقالبة منه، فأسرع ابن أبي عامر في تديير مقتل المغيرة كي يقطع الطريق، فتولى هشام الخلافة وهو في الثالثة عشر من عمره، متلقبًا بالمؤيد بالله، كان ابن أبي عامر محض نساخ فقير افتتح لنفسه دكانًا بالقرب من باب الإمارة، فلما ذاع أمره استدعاه المستنصر ليكون مربيًا لولديه عبد الرحمن وهشام من بعده، فتوطدت علاقته بأمهما صبح البشكنجية التي دفعت به ليكون صاحب الشرطة في قرطبة، فلما استخلص الملك لولدها من مؤامرة الصقالبة كبر في عينها، وصارت تدعمه بكل ما لها من سلطة وكوصية على الخليفة في مواجهة أعدائه، فتخلص من الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي وتولى مكانه، ملقبًا نفسه بالمنصور، ومستدعيًا البربر من المغرب كي يكونوا دعامة لحكمه، معيدًا بهم فتح الثغور التي أخذها النصارى في عهد المستنصر، وقيل إن علاقته بلغت بأمر الخليفة حد أن تزوجها، وسرعان ما عزل ابنها هشام

في قصره، حتى إنه لم يكن يستطيع الخروج إلا إذا استأذنه، فلما خشيت صبح على ضياع الملك من يد ابنها أخذت تناهض سلطة الحاجب محمد بن أبي عامر المنصور، فعزلها في قصرها حتى ماتت فيه، ودانت البلاد لسلطة المنصور سنين طويلة، لكنه لم يطمع في الخلافة ولم ينظر لكرسيها، فلما توفي تولى منصبه ابنه عبد الملك من بعده فسار على نهجه، وسرعان ما توفي ليجيء أخوه عبد الرحمن أشكول في منصبه الوزارة والحجابة، ويراوده الطمع في أن يكون الخليفة، فأمر هشام المؤيد بتوقيع عهد له بالخلافة من بعده، كان ذلك بداية إشعال النار التي أكلت كل شيء في الأندلس، فقد اجتمع بنو أمية وقرروا إلغاء هذا العهد، مستعينين بالصقالبة كي يجبروا المؤيد على التنازل عن الخلافة لابن عمه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، ملقبينه بالخليفة المهدي».

كان صوت أبي يأتيني وكأنه الصدى في أذني، فلما اختفت الشمس وأسدل الليل شرافه على العيون، سألته عن مكان نبيت فيه، أشار بيده إلى طريق صغير سرنا فيه حتى وجدنا خاناً من دورين، على بابه رجل عجوز يتلقف الراكبين يدين واهنتين ليأخذ منهم الجياد إلى الإسطبل، بينما يقف خلفه شاب وسيم يتلقف منهم رحالهم ويصطحبهم إلى سيدة في الأربعين من عمرها تجلس بالقرب من الباب خلف منضدة قديمة، تفحصتني بعين ذات خبرة طويلة بصنوف البشر وهي تقول: «كم سريراً تريد؟»، أشرت بإصبعي: «واحد»، فهمست في أذن الخادم أن يحمل

أغراضني إلى غرفة علوية، كان شريكني بها رجل قادم من غرناطة وفي طريقه إلى مجريط، اغتسلت وغيرت ملابسني ونزلت لتناول العشاء في غرفة شبه مظلمة بالدور الأرضي، وجدت أبي ينتظرني على منضدة وحده فذهبت إليه، بينما احتل شريكني في الغرفة منضدة مجاورة، لم يكن في المكان سوى منضدتين أخريين جلس على كل منهما رجلان، وبدا من حديثهم أنهم يعرفون بعضهم، قال أحدهم، وكان عجوزًا متأنقًا، لرفيقه بصوتٍ مسموع: «لا توجد عبقرية ولدت أو ستولد في الرسم سوى ليوناردو»، فرد عليه من على المنضدة الأخرى شاب قوي البنيان، بدا لي أنه موريسكي أو من أصول مغربية: «لأنك لم تعرف مايكل أنجلو، لم ترَ أيًا من منحوتاته ولا لوحاته». فانتفض الشاب المرافق للرجل المتأنق قائلاً: «هذا البديء ذو الرائحة التنة تريد أن تجعله في مقام دافنشي، إنه لا يعدو أن يكون شحاذًا، فكيف يمكنه أن يكون فنانًا؟»، وجاءه الرد: «لأنه ليس شاذًا كصديقك، إنه شاعر ورسام ونحات». ضحك المتأنق: «يا صديقي نحن نتحدث عن الفن وليس عن أحكام أخلاقية، في النهاية هذا شأنه وليس شأنك، أم أنك من تابعي الكنيسة المهووسين بالتفتيش في ضمائر الناس؟!». هنالك كان الخادم قد أحضر طواجن الطعام، وقام بتوزيعها على المناضد كما لو أنه يوزع الأعلاف على الماشية، فانشغل كل منهم بالطاخن الذي أمامه، أما أنا فقد رحت أنظر لوالدي كأنني أقول: «هل انتهى أمر الخلافة عند هذا الحد؟»، وبدا لي أن الموتى يتمتعون بقدرة على معرفة ما يدور بالأذهان، فقد بدأ صوته يتردد من جديد: «لم

يكن الخليفة محمد بن هشام بن عبد الجبار الملقب بالمهدي رجلاً حازماً كما توقع أهله، فقد أطلق العنان لغرائزه نافياً شركاءهم الصقالبية إلى شرق الأندلس، ومعلنًا وفاة ابن عمه الخليفة هشام المؤيد، رغم أنه كان ما يزال حبيسًا في قصر الإمارة، أعطى المهدي ولاية عهده لابن عمه سليمان بن هشام بن سليمان بن الناصر، لكنه سرعان ما غضب عليه فسجنه، ثم سرح من جيشه سبعة آلاف جندي بربري، فما كان منهم إلا أن ذهبوا لهشام ابن سليمان، والد ولي العهد المسجون، ليحثوه على فتح سجن الإمارة وإخراج ابنه منه، فجمعهم وحاصر بهم القصر، غير أن جنود المهدي هزموهم وأسروا هشام، فأمر المهدي بقتله هو وابنه سليمان، وترك الناس تستبيح بيوت البربر في المدينة حتى غادروا قرطبة غير ملتفتين لأمانه الذي جاءهم متأخرًا، وكان من بين من خرجوا معهم سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر، فاتفق معه على الإطاحة بالمهدي وتوليته هو الخلافة، ولم يكن أمامهم سوى الاستعانة بالقشتاليين كي يتمكنوا من مهاجمة قرطبة، فاتصلوا بسانشو ليمدهم بالجنود مقابل تنازلهم له عن بعض الثغور، فلما علم المهدي بأمرهم هذا حفر خندقًا حول المدينة وأمر بإخراج المؤيد من سجنه داعيًا لخلافته، لكن سليمان بن الحكم ومن معه من البربر أصروا على دخول قرطبة، فتركها المهدي وفرَّ برجاله إلى طليطلة، بينما جلس سليمان بن الحكم على كرسيه أمام قصر الإمارة متلقيًا من الناس البيعة وملتقًا نفسه بالمستعين بالله، ومبقيًا على هشام المؤيد حبيسًا في سجنه».

حين صعدت إلى غرفتي كي أستريح وجدت شريكى في الغرفة يبحث عن النوم دون جدوى، فانتهزت الفرصة وسألته عن الأحوال في غرناطة، قال: «ليست طيبة، فالموريسكيون أصابوا الجميع بالفرع، ويبدو أن البشرات قد دالت لابن أمية»، خبأت فرحتي في صدري، وقلت بنبرة الخائف: «كيف حدث هذا؟»، أغمض عينيه وهو يقول: «سمعت قبل خروجي من غرناطة أنه حقق نصرًا على المريكز دي مندوجر، وفي ظني أن المدينة باتت مهددة بالسقوط إن لم يتحرك الإمبراطور فيليبي بنفسه لإنقاذها»، ويبدو أن الرجل لم يشك لحظة أنني موريسكي، فقد غيرتني الثياب واللغة ونعومة الوجه، سألته عن ابن أمية ومن أين ظهر، لكن النوم كان قد بدأ يعرف الطريق إلى عينيه، فرفع رأسه عن الوسادة متثائبًا: «لم يكن له ذكر، غير أن حظه السعيد جعله يلتقي برجل داهية من بني جهور، فجمع الناس حوله ونصبه أميرًا عليهم، وها هم الآن يحلمون بدخول غرناطة، فلينفذنا المسيح منهم»، ثم صمت للحظات سرعان ما سمعت بعدها شخير المتعالي، فتركته وذهبت إلى النافذة باحثًا عن صوت أبي في الظلام، ذلك الذي بدا لي كما لو أنه ينتظرني ليكمل لي ما جرى في قرطبة: «جلس المستعين في كرسي الخلافة وأمر بمطاردة المهدي ورجاله، ففروا في الشعاب والأحواز، كان من بين من فروا رجل يدعى واضح العامري، ذهب إلى الشمال طالبًا من أميرى برشلونة وأورقلة أن يمداه بجيش لمحاربة المستعين، فوافقه على أن يدفع دينارين مقابل كل جندي في اليوم الواحد، وألا يأخذ من جنودهما ما يغنمونه في حربه، وحين ينتصر يسلم لهما مدينة سالم، فوافقهما على

تلك الشروط، وانضم إليه الخليفة المهدي بمن بقي معه من رجال،  
ووصل الخبر إلى المستعين فنادى في الناس بالخروج لمواجهتهم،  
لكن أحدًا لم يجبه، فخرج بمن معه من العرب والبربر، ولخوفه من أن  
يغدر به البربر جعلهم في المقدمة وأحاط نفسه في المؤخرة بالعرب،  
فلما دارت الحرب انشقت صفوف البربر وانفتحت ثغرة فيها، فنادوا  
عليه بأن يغلقها بمن معه، فظن أنهم انقلبوا عليه فأمر بترك المعركة  
والفرار إلى شاطبة، فدخل المهدي قرطبة من جديد، جاعلاً من واضح  
العامري حاجبه عليها، ثم خرج لملاقاة فلول البربر المتجمعين بالقرب  
من مربلة، غير أنهم هزموه، فما كان من واضح العامري إلا أن أخرج  
هشام المؤيد من محبسه، وضرب رأس المهدي بين يديه، مرسلاً بها  
إلى سليمان المستعين كي يدخل مثله في طاعة المؤيد، لكن المستعين  
قرر حصار قرطبة بمن معه من البربر، وراح يعيثُ فساداً في أجوارها،  
حتى انتشر الجوع وأكل الناس الميتة وباع المؤيد أثاث قصره لشراء  
خيل وسلاح لمواجهتهم، بينما قرر واضح العامري أن يهرب من المدينة  
ليلاً، فجمع ما استطاع جمعه من ذهب وفضة كي يفر به وحده، فلما علم  
الجند بذلك قبضوا عليه وفتشوا رحله مخرجين ما به من كنوز، ثم قتلوه  
وطافوا برأسه في الشوارع، وخرج المؤيد باكياً للناس وهو يقول: افعلوا  
ما ترونه صالحاً. فأرسل الأعيان والوجهاء للمستعين بأن يرفع حصاره  
عن المدينة مقابل أن يكون ولياً لعهد المؤيد، فكان رده أن دخل قرطبة  
مستبيحاً بيوتها وأعراض أهلها، معنفاً المؤيد على حربه له، فبكى الأخير  
قائلاً إنه كان مغلوباً على أمره، فأمر المستعين بسجنه من جديد، كما أمر

بتولية ابن أخيه علي بن حمود على سبته وثور المغرب، وتولية شقيقه القاسم على الجزيرة الخضراء، وكان علي طامعًا في ملك قرطبة، فجمع من بقي من العامريين لحرب المستعين، مظهرًا كتابًا من المؤيد له بولاية العهد، وطلبًا من الأخير له بإنقاذه من يد المستعين وإخراجه من محبسه، فلما علم المستعين بذلك خرج إليهم بجيشه، غير أنه وقع في الأسر هو وشقيقه ووالده، بينما جلس علي بن حمود على كرسي الإمارة سائلًا إياهم عن الخليفة هشام، فقالوا له نكاية وعنادًا: قتلناه. فما كان منه إلا أن أمر بقتلهم جميعًا، ثم أعلن نفسه الخليفة، فكان ذلك أول حكم البربر في قرطبة».



كان عليه أن يذهب إلى دار الكتب المصرية، فلديه موعد مؤجل منذ ثلاثة أشهر للقاء رئيسها، كان قد تقدّم بطلب للحصول على نسخة معتمدة من حجة الوقف الخاص بالعائلة ورواق المغاربة، حين كتبها جده عطية عام 1805 لم يكن يعلم أن محمد علي سيقضي على مهنة الملتزم، لكنه سعى لتأمين أسرته التي امتدت لعدة فروع، ثلاثة منها في المحروسة واثنان عادا من جديد إلى تونس والمغرب، فقد ظهر له العين الراحية بجانب السور قائلاً: «يا عطية، لم نمحك هذا الاسم كي تبخل على أهلك، فاجمع ما لديك وأوقفه على الجميع». حين سأل الملتزم زوجته عن الطريقة التي يرضي بها جده قالت: «ليس هناك سوى الوقف»، فذهب في الصباح إلى المحكمة الشرعية، وأوقف على عائلة الموريسكي ورواق المغاربة مئة وخمسين فداناً بالقرب من شبرا الخيمة في أعمال قليوب، حين سأله زوجته عن السبب الذي جعله لم ينفذ وصية الجد كاملة، هز رأسه بأسف وهو يقول: «منه لله شيخ سوء».

كان عطية الله بحكم مهنته كملتزم لا يؤمن إلا بما في يديه، علمته وعود الفلاحين وتسوياتهم أنها ليست سوى حيل للتهرب من الدفع،

ما يتحقق منها في نهاية العام أقل مما حدثته نفسه به، كان عمله يجبره على أن يكون قاسي القلب غير رحيم بذئ ضائقة أو حاجة؛ لأن أحدًا لا يرحمه، وعليه أن يدفع للخازن دار قبل أن يضع يده على الأرض، وأن يدفع للممالك حين يمرون بزمامه، وأن يدفع للوسطاء الهدايا والرشاوى كي يحسّنوا صورته عند من بيدهم الأمر، كان عليه أمور كثيرة يدفعها جملة ويتقاضاها تجزئة يوميًا وراء يوم، لذا كان يقوم بحساب كل نفقاته وتوزيعها مع هامش ربح مرضٍ له على هيئة ضرائب يروح تحتها الفقراء من عبيد الأرض، مستعملًا القوة في جمعها تارة، أو مصادرة الأرض نفسها تارة أخرى، هكذا أصبح عطية الله الملتزم الذي يخافه الجميع، لكنه لم ينس أنه غريب عن هذا المكان، فلا هو مصري ولا تونسي ولا حتى مغربي، والجميع يلقبه بالموريسكي في بلد لم يعرف أي من أهله يومًا محنة أن يكون موريسكيًا.

كثيرون كانوا يعتقدون أنه ورث المال كابراً عن كابر، قلة فقط هي التي كانت تعرف أنه ولد فقيراً لوالد كان يعمل خولي أنفار لدى أحد الملتزمين الصغار، لكن المشيئة وحدها هي التي وضعت في هذا الطريق، حدث ذلك منذ سنوات طويلة حين مرض والده، فذهب إلى الملتزم طالباً أن يكون في محله كخولي لأنفاره، لكن الأخير نظر إليه متعجباً من جرأته وطموحه، كان عطية شاباً أمرد وسيماً ذا اعتزاز واضح بنفسه، وكان الملتزم وزوجته يتأهبان للسفر، يومها وقف بعوده النحيل الطويل في جه الملتزم البدين مصرّاً على طلبه، فابتسم الأخير سائلاً:

«وهل تملك من القوة ما يخيف الفلاحين؟»، فهز عطية رأسه: «لديّ من العقل ما يكفي»، فأشار الملتزم إلى خادم عجوز كي يصارعه، لكن عطية رفض مصارعته قائلاً: «لا أمد يدي على مَنْ في سن جدي»، فأعجب رده زوجة الملتزم التي امتدحت شهامته، لكن زوجها احتقن وجهه ونادى على رجل يدعى البهيم قائلاً: «أريد أن أعرف مَنْ منكما يستحق أن يعمل عندي»، كان الرجل من فرط ضخامته قد أطلق عليه اسم البهيم، فاستدار نحو عطية فاتحاً ذراعيه وفمه كأنه سيبتلعه، وقف الأخير لا يعرف ما الذي ينبغي عليه حيال هذا الجرم، ولم يكن أمامه سوى أن يدعي الجنون، نافضاً كل ما أمامه في وجه البهيم حتى أصيب وجهه ونزف الدم منه كالنهر، فأخذ يضرب يديه الهواء مهرولاً خلف عطية في المكان، ويبدو أن جسده الضخم وسيره المتخبط وصوته العالي قد أخاف الجواد فاندفع بالكارثة المنتظرة أمام البيت ليصطدم به، حينها سقط البهيم على الأرض وجلس عطية على صدره مكيلاً له اللكمات، فأدرك الملتزم أن الجولة انتهت وعليه التدخل لإنقاذ الأمر، فأمر رجاله أن يوثقوا عطية على شجرة أمامهم كي يجلده بنفسه.

عز على إبراهيم الخولي أن يدخل عليه أصدقاءه حاملين ابنه بين أيديهم بجسد ممزق من الضرب، فأخذ يبكي حزناً حتى اشتدّ عليه مرضه ومات، ووقف عطية ليتلقى العزاء في والده من أصدقائه العاملين في عزبة الملتزم، لكن العزاء لم ينتهِ حتى فوجئ الجميع بواحد من خدم الأخير يطلب من عطية الحضور لملاقاة زوجة الملتزم في كاربتها،

قالت: «البقاء لله»، فرد بانكسار: «شكر الله سعيك»، لكنها ابتسمت كقمر مضىء في الليل: «مراجع حسابات الملتزم يحتاج إلى مساعد له»، لم يعرف عطية بمَ يرد عليها، لكنه بالنظر إلى وجهها كان قد نسي حزنه على والده وشعوره بالهزيمة أمامها، فطأ رأسه مبتسمًا، قالت: «في الغد تستلم عملك».

كان الملتزم وافر الثراء لكنه بلا أولاد، وكانت خديجة هي زوجته الثالثة، سعى كل منهما لإنجاب طفل يرث ما لديهما من أموال، لكن حلقات الزار وأدوية المجربين لم تأتِ بفعلها، ولم تشفع لأي منهما زيارتهما المتعددة للأولياء والقديسين، وثبتت الرؤية لدى الملتزم بأنه لن يكون له عقب، فلزم فراش خديجة في صمت طويل، حين رأت عطية لا تعرف ما الذي جذبها إليه، لكنها تمنّت ألا ينهزم أمام زوجها، وحين قرر الأخير جلده شعرت أن السياط تنزل على قلبها، حتى إنها تحركت من مكانها أمام الخدم والعبيد لتمسك بالكرباج من يده قائلة: «كفى»، يومها شعرت كم بدا الملتزم مهزومًا أمامها وأمام الشاب الغريب، في الطريق عاتبته غاضبة على قسوته، وبذل هو جهدًا كبيرًا في إرضائها وإزالة غضبها عليه، لكن حين أخبرته أن إبراهيم الخولي توفي حزناً على ما جرى لابنه، شعر أن عطية صار الشبح الذي سيقضي عليه، غير أنه سألها مواربًا غيظه: «وما الذي نفعله له؟»، قالت: «يمكنه أن يعمل مساعدًا لمراجع الحسابات»، ضحك من بين أسنانه: «لك ما تريد».

ظل الملتزم يتحين الفرص للخلاص من عطية حتى وجد خطأ في الحسابات، فسلمه لحكمदार المديرية كمختلس، ولم تمض أسابيع حتى حكم عليه القاضي بالسجن خمسة أعوام، غير أنه لم يقض منها غير عامين فقط، فقد فوجئ بأنهم يعطونه ثيابه ويباركون له بظهور براءته، وما إن خرج من سجنه حتى وجدها في انتظاره، علم منها أن زوجها مات منذ شهر، وأنها أبلغت المحكمة بأن ما حدث كان خطأ في الحسابات، يومها رأى في عينيها الرغبة في الزواج منه، وشعر أنه يصعب على مثلها أن تخطبه لنفسها، وبنفس الجرأة التي طلب بها أن يكون خوليًّا لأئفار الملتزم، أغمض عينيه قائلاً: «هل تقبلين الزواج مني؟»، لم ترفض ولم تقبل، لكنها قالت: «ليس لمثلي أن تتزوج بأقل من ملتزم»، بعدها سافرا إلى المحروسة ودفعا بالهدايا إلى الخازندار وحصلوا على التزام صغير بزمام شيين الكوم، تعلم منها كيف يصبح ملتزماً مهذباً تسبقه هداياه ويصل إلى مرامه مهما كان، ظل يشعر أنها النعمة التي فتح الله بها عليه، ونقله من خلالها من عوام الناس إلى خواصهم، حتى رحلت وتركته في الأربعين من عمره بلا ولد ولا أهل، أدرك حينها أن قطار العمر قد ولَّى به وهو يلهث خلف المال، ناسياً أهله في غمار صراعه مع الحياة، غير منتبه إلى أن اثنين من أعمامه ضاق بهما الحال حتى اضطر للعودة إلى حومة الأندلس، ولم يبقَ له في المحروسة غير عمِّيه إسماعيل وموسى، كان الأول قد اختار سكناً بالقرب من الأزهر كي يبيع ما ينسخه بخطه الرشيق من مصاحف

وكتب فقه للمجاورين، بينما ظل الثاني على ترحاله مع القوافل الذاهبة إلى الحجاز بحثاً عن التحرير والعطارة، كان موسى أيسر حالاً من أخيه إسماعيل، لكنه رفض في يوم استضافة جند المماليك حين قدموا إلى ترسانة بولاق لإصلاح مراكبهم فيها، فما كان منهم إلا أن شكوه لشيخ البد الذي أمر بمصادرة أملاكه والتنازل عن وكالته في روض الفرج، يومها لم يجد غير عطية كي يلجأ إليه، فاشترى له الأخير محلاً بباب الخلق ليبدأ فيه من جديد، ثم فاجأه برغبته في الزواج من ابنته حور العيون، في ذلك الوقت هجم الفرنسيون على الإسكندرية، ودارت الحروب بينهم وبين المماليك، مما أوقف أعمال عطية والتزاماته، لكنه حمد الله على بقاءه سالمًا إلى أن زالت الغمة، فأخرج ما خبأه للزمن ونشط في وضع يده على التزامات بطنطا وكفر الدوار، لكنه كان دائم السؤال: «لَمَن كل هذا المال وأنا بلاد ولد؟»، حتى أذن الله له وحملت حور العيون بابه حبيب الله، فاشترى أرضاً في السيدة عائشة وشرع في بنائها على هيئة قصر من طابقين، ثم دعا كل معارفه وأصدقائه من مشايخ وبكوات وعلماء ليحتفلوا معه فيه، وبلغ من السرور أن جلس مع زوجته بعد رحيلهم يتأمل ما أعطاه الله له، لكن عينه لمحت على البعد نارًا تشتعل في جانب من الحديقة، حين انطلق نحوها وجد رجلاً طويل القامة ملثم الوجه يجلس بجانبها قائلاً: «مباركة عليك دارك». في البدء ارتعد منه، وابتسم الرجل في وجهه: «أنا جدك عبد الله، أنا العين الراعية

لبني جهور، وهذه النار كانت أعلامنا في الجبال، فلا تخف، واذهب  
لتجمع أهلك في دارك، فمباركة عليك الأرض التي منحناها لك، والبيت  
الذي أسكناك فيه»، هكذا تردد الصدى بكلماته من حوله، بعدها انطفأت  
النار وأظلمت الحديقة واختفت العين الراعية من أمامه.

لم تكن قمة جبال البشرات وحدها التي تحررت بفعل الثورة على  
النصارى، فقد انضمت إليها منطقتا الحامة ورندة وجبال بني طوميز  
شرق مالقة، وسيطر المجاهدون على وادي المنصورة وشرق ألمرية  
وعلى سلسلة الحصون والقرى وحاصروا أكبر قلعة فيها وهي قلعة  
صيرون، وهزموا قوة لقشتالة كانت قد جاءت بقيادة قائد بسطة  
لاستعادتها، كما حرروا قصور أرية وحاصروا بيرة، وهزموا جيشًا  
للمركيز دي بالش في برجة، كانت مملكة غرناطة القديمة بكل مدنها  
وقراها وحصونها قد دالت في أغلبها للشوار تحت راية ابن أمية، فيما  
عدا غرناطة نفسها التي وقفت الجيوش الإسبانية خلفها كما لو أن  
سقوطها يعني سقوط فيليبي الثاني، وكانت السعادة تجتاحني مثلما  
تجتاح كل مَنْ رأيتهم من المسلمين، فلأول مرة منذ سنوات أراهم  
يقيمون صلاتهم في العلى، ويرتدون أزياءهم المميزة لدينهم في العلى،  
لا أعرف إن كانت النساء تستحم الآن في أجواء هذه الحرب أم لا،  
لكنني موقن أنه لا أحد يعمّد أو يذهب لقداسات الكنيسة، لا أحد



ينصت لغير تراتيل القرآن، وإن كان ما يحفظونه منه قليل، احتضنت فرناندو حين رأيته وأنا أهتف فيه: «كيف فعلتموها؟»، يومها ضحك منتشياً كما لو أنه سيطير كفراشة تعلن عن حديقة مليئة بالورود، قال: «فعلها والدك ولم يخيب ظننا فيه، بل إنه كان أروع مما ظننا، كان نعم القائد والأب الحكيم»، ثم نظر إليّ متذكراً أنه لم يعزيني فيه، وحين مرت مسحة الحزن التي عبرت على وجهه ابتسم، كما لو أنه تذكر أمراً جميلاً: «لا تؤاخذني يا بن عمي، فإنني حتى الآن أشعر أنه ما زال موجوداً معنا، لم أشعر للحظة بفراقه»، ربّتُ كتفه: «لا عليك، فمثله لا يموت»، ابتسم الرجل مردداً: «لديك حق»، فصحت فيه: «احك لي إذا ما حدث؟»، فقال: «كنا جميعاً غاضبين لا نعرف ما الذي نفعله، ولم يكن هناك غير والدك ليرشدنا نحو الطريق، فهو أعلمنا بدروب الحرب وفنونها، وأكثرنا معرفة بالمملكة التي جابها طولاً وعرضاً، لكنه حين حدث له ما حدث في الكنيسة على مرأى ومسمع الجميع لم يستطع أن يعود إلى ما كان عليه، يومها قررت أن أنتقم له، فذهبت وحدي إلى دار خوسيه أرمانديز، كان وأصدقاؤه يتوقعون ذلك مني، فتجمّعوا عليّ وقاموا بضربي حتى ظنوا أنني فارقت الحياة، فحملوا جثتي وألقوا بها بالقرب من بيت القس إيمانويل وفروا هاربين، حين تعافيت من جروحي وكسوري اتفقت مع ثلاثة من أصدقائي أن نخرج بالليل فنغير على بيوتهم وأملاكهم، كانت هذه البداية التي دلتنا على الطريق، فرحنا نخطف ما نستطيع من بيوت النصارى ونعهد به لمن يبيعه، وانضم إلينا بعدها عدد من المغامرين، لكننا لم نكن في حقيقة الأمر أكثر من

لصوص تحت وطأة الانتقام، وكان ذلك أكثر ما يزعجني، فقلت لهم إنه لا بد أن يكون لنا قائد، وتكون لنا خطة، فلن نضل مجموعة من اللصوص، إن عاشوا فهم مطاردون، وإن قبض عليهم قُتلوا وجلبوا لأهلهم العار. قالوا: فَمَنْ يقودنا إذا؟ ولم يكن في مخيلتي غير والدك، قالوا إنه اعتزل الحياة، ولا نظنه سيرضى بالتعامل مع صبية مثلنا، قلت دعوني أقنعه، وظللت كلما رأيته أذكره بما لم ينسه، ظللت أضرب على أوتار وجعه وهو صامت، لا يفتح فاهًا ليرفض أو عينا ليقبل، حتى أصابني اليأس فجلدته بكل ما أملك من كلمات ثم تركته غاضبا، بعدها أرسلك قائلاً: جهزوا حالكم، وفي الليلة الثانية اجتمع بنا في كهف بأعلى البشرات، كنا أكثر من عشرين شابًا وصبيًا، جميعنا متحمسون، لكننا لا نعرف ما الذي يمكننا عمله، فطرح سؤاله علينا: ما الذي تريدونه؟ يومها كررت عليه ما اعتدت قوله عن الذل والهوان والتنصير والتهجير بلا ذنب، فتركني أتحدث حتى انتهى الكلام من جوفي، ثم ابتسم قائلاً: أتريدون استعادة مُلك بني أمية؟ فصرخنا جميعًا: نعم، نظر في وجوهنا: وهل تريدون الموت؟ فقلنا بحماس أقل: نعم، قال: راجعوا أمركم، وبعد ثلاثٍ نلتقي هنا، فَمَنْ حسم أمره فليأت، ومَنْ تردد فليبق آمنًا في مكانه، وأرجو ألا تأتوا، بعدها اصطحبك معه واختفى عن البشرات، قلنا لعله في بعض أعماله بغرناطة، وقلت لعله نفذ يده من الأمر وهرب كي لا ألح عليه، لم أكن أعرف ما الذي سأقوله لأصحابي، ولا ما الذي يمكنني فعله من دونه، غير أنني تعاملت معهم على أنه موجود في بيته، خاشيًا من مواجعتهم بالحقيقة، وزدت في الأمر أنني

رحت أذكرهم بالموعد، فذهبنا واحداً تلو الآخر، وما من أحد دخل إلا ووجده جالساً في صدر المجلس عاقداً يده على سيفه في انتظاره، يومها أخرج مصحفاً من ثوبه قائلاً: فلنقسم بالله ألا يخون أيُّ منّا الآخر، وأن نحارب حتى اللحظة الأخيرة من حياتنا، وأن نطيع قائدنا حتى لو اعتقدنا أنه على خطأ، جميعنا أصبنا برجفة من كلماته التي أخذت تتردد أصداؤها بين جدران الكهف، وشعرنا أن الأمر بدأ يدخل في جدية أكبر منا، لكننا أمام هيئته لم نستطع التراجع، وأقدمنا واحداً تلو الآخر على المصحف نردد كلمات القسم، بعدها أخذ يسأل من لا يعرفه منا عن قريته وأهله وحاكمها وعدد المسلمين والنصارى فيها، ثم قال: ما الذي كنتم تصنعونه؟ فقلنا: كنا نخرج بالليل فنكسر بيتاً أو نسرق قساً، فضحك: من اليوم لن نفعل ذلك، فقط كل منا عليه أن يجمع عشرة ممن يثق فيهم، عليه أن يقنع شباب قريته بالثورة على الظلم، مستغلاً كل حادث يجري في بلده، لا يجب أن يقول حديثه على الملأ، عليه أن يذهب لكل صاحب مصيبة ويقف بجانبه، يشد على يده، وإن احتاج الأمر إلى مالٍ فليرسل إلى فرناندو، يومها دهشت، فمن أين لي بالمال، لكنني صمتُ حتى انتهى الأمر وعدنا، حين سألتَه قال: لا عليك، هناك من يجاهد بنفسه، وهناك من يجاهد بماله، وهناك من لو صمت عما يحدث من حوله فقد جاهد جهاده، وعلينا أن نستغل طاقة الكل نحو أمر كبير، لم يمر يومان حتى وجدته يعطيني ترخيصاً موقعاً من الرئيس ديسا بجمع تبرعات لبناء مستشفى في البشرات، كان هذا المستشفى قد وضعوا أساساً له وتوقفوا عن إكمالهِ لقلّة الموارد، طلب

مني أن أذهب إلى بلنسية طالبًا من أهلها التبرع لفقراء الموريسكيين، فأهل بلنسية أغنياء، ولا يعانون من التضيق مثلنا، ومحاكم التفتيش لديهم شبه مغلقة، قال: أريدك أن تعرف من عيونهم من الغاضب ومن المدجن الخانع. في اجتماعنا الثاني كان العدد قد أصبح خمسين شابًا، فكل منهم أتى بمن وافقه على الخروج، قال لهم: أقدمكم هو القائد عليكم في قريته، ثم أخذ يجتمع بكل قائد وحده مرتبًا له ولمن معه موعدًا لا يعرفه سواهما، أما أنا فقد عدت إليه بما جمعته من بلنسية، ووصفت له الحال ورغبة الناس في عدم الثورة، منتظرين المغاربة وجند بني عثمان ليخلصوهم من نبلائهم، قائلين. وإن لم يأتوا فلن نفعل ما يفقدنا ما نحن فيه لنصبح على ما أنتم فيه. فابتسم: وكم منهم يستجيب للثورة، قلت: عشرة أو عشرون، قال: اذهب فقل لهم أن يوفروا طريقة لوصولك إلى رجال خير الدين بربروسا، فإذا التقيت بهم قل لهم إنك تحمل رسالة إليه من غرناطة، يومها ذهبت غير مقتنع بالأمر، لكنني طلبت منهم كما قال، فخشي أصحاب المراكب على أنفسهم، ولم يرافقني غير شيخ اشترط أن يحصل على خمس قطع ذهبية، وكان مركبه لا يساوي هذا الثمن، فاشترطت عليه أن يتحصلها في طريق العودة، واتجهنا بالمركب في عرض البحر كما لو أننا ذاهبان للصيد، حتى ظهرت سفينة كبيرة انتظرنا مرورها طيلة النهار، فأرعى شراعه ولوح لها بملابسه الزرقاء، اقتربت منا ومد بحارته عودًا من الخشب صعدنا عليه، قال: هذا الرجل يحمل رسالة إلى سيدي خير الدين، فنظر أحدهم إليّ: من أين؟ قلت مرتجفًا: غرناطة، فأشار لرجاله بالقبض عليّ تاركًا

البحار العجوز، حين وصلنا إلى جنجیل بالجزائر أمر بفكي وإنزالي إلى سفينة ذات عشرين شراعًا وخمسة مدافع كبيرة، هنالك التقيت خير الدين الذي نظر عابثًا في وجهي: أين رسالتك، فأخرجت ورقة أعطانيها والدك ودفعت بها إليه، فأخذ ينظر فيها وعينه تلمع بالفرح، ثم سألني: هل أنت ابنه؟ قلت: نعم، قال: يا له من ثعلب! لا أظنه يجازف بابنه، ثم قهقهه ساخرًا، قلت: إنه عمي، فضحك من جديد: وهل تريدون الثورة؟ قلت: نعم. حسنًا، هكذا قال، ثم أشار بإصبعه إلى خادم لديه ليحضر لي طعامًا وشرابًا، لكنني هتفت: سيدي خير الدين، لقد وعدت صاحب السفينة بخمس قطع ذهبية ليوصلني إليك، وليس معي منها غير ثلاث فقط، فنظر إليَّ بعين ملؤها الغضب، ثم تذكر أمرًا ما، فقهقه عاليًا ثم تركني وانصرف، حين عدت إلى صاحب المركب أردت إعطاءه ما اتفقنا عليه، لكنه رفض قائلاً: من يرى بربروسا وجهًا لوجه ثم يخرج سالمًا فلا يؤخذ منه شيء. حين أعطيت عمي ما معي، وكان كثيرًا، أبلغته بكل ما جرى، فراح يقهقه كخير الدين حتى شككت أنني ما زلت على السفينة، ثم قلت: كأنك تعرفه جيدًا، فلمعت عيناه بشيء من الفرح وهو يقول: إنه صديق قديم، التقيته قبلما أكون وزيرًا لبني الأحمر، وقبل أن يكون قبضاي الأسطول العثماني بكثير، كنت يومها في تجارة مع أبي، نجلب البضائع من الشام ومصر إلى مرسية والمرية، وكان هو وأخوه عروج يعملان على مركب لوالدهم يعقوب، قضيت معهم أيامًا في بيتهم بلسبوس في اليونان، وكانت لديهم تجارة صغيرة يديرها أبوه وأخوه إلياس، يومها كان خير الدين ما يزال شابًا يأخذ كل شيء بمنطق

القوة، ولا يساوي كرمه غير قوته، حين التقينا كاد يبطش بي متصورًا أنني نصراني، لكنه ما إن علم أنني من البقية الباقية من أمويي الأندلس حتى راح يعاملني كأمر، لم يكن أي منا يعلم بما تخبئه له الأيام، لكننا ظللنا صديقين رغم تفرق الطرق، فقد كلفني أبو عبد الله بالوزارة فتركت التجارة ولزمت القصر، أما هو فقد هاجم فرسان القديس يوحنا سفينتهم ذات يوم، وأسروا أخاه عروج وقتلوا أخاهم إلياس، وأصبح هو مطارداً من قبلهم، فجاءتني رسالة منه يطلب فيها بعض المال والرجال، خاطبت صاحب تونس يومها أبو عبد الله محمد بن الحسن الحفصي، وكانت لي صداقة به، أن يجهز له سفينة بها مئة رجل، وأرسلت له ما يريده من مال، فقاد رجاله في هجمات على فرسان القديس حتى أخرج أخاه من سجنه، ولم يكن أمامهما سوى أن يفرأ إلى تونس، فاستقبله الحفصي بحفاوة، وأرسل لي قائلاً إن عروج وأخاه يريدان استئجار جزيرة جربة، وإنهم ينيان مهاجمة سفن القديس يوحنا منها، وإن إيجارها هو نصف ما يحصلان عليه من غنائم، فنصحته بالموافقة، وتزويدهما بالرجال ما استطاع، وأرسلت لخير الدين قائلاً: ليس كل النصارى القديس يوحنا، فشواطئ الأندلس أوسع وحماياتها أضعف بكثير، فاشترى له عيوناً يدلونه على مواقع ضعفها وأماكن غناها، فزادت سفنه ورجاله، واشتهر في البحر بلحيته الحمراء، حتى إن النصارى لقبوه ببربروسا لذلك، مرتعدين في أحلامهم من ذكر اسمه، وتوسّع في غاراته على سواحل البندقية وجنوة وفرنسا وغيرها، وأرسل إلى السلطنة العلية أن تمده ببعض سفنها الحربية، فوافقه سليم الأول،

وأمدّه بما يريد، فاعترض بها السفن الكبيرة للنصارى، وحين أصدر فرناندو وإيزابيلا مرسومهما بالتنصير لكل مَنْ على مملكة قشتالة وأراغون، وخيروا الناس ما بين التنصير أو الرحيل، اختار كثير منهم الأخيرة، وحملوا مفاتيح بيوتهم مواعدين أنفسهم بالعودة عما قريب، فسلاطين المسلمين لن يتركوا ديار الإسلام تضيع، والحق مهما طال لا يسقط طالما وراءه مطالب، يومها كتبت لخير الدين أن يأتي لينقذهم من الجوع والهوان والغرق، فأرسل نحو ثلاثمئة سفينة حملت أكثر من أربعمئة ألف إلى شواطئ تونس والجزائر والمغرب، بعدها احتل الإسبان مدينة وهران، واستنجد سكان بجاية وجنجيل بخير الدين وأخيه، فناجزا الإسبان حتى حرّرا الجزائر، وصار عروج سلطاناً عليها، لكنه قُتل بعدها بعام في معركة بتلمسان، فأرسل خير الدين إلى الباب العالي طالباً الدخول في طاعة الدولة العلية، فكان أول باي بها، لكن الحفصي استعان بالإسبان وقلب الأهالي عليه فأخرجوه منها، فما كان من السلطان سليم إلا أن جعله قبضاي على أسطوله، لكنه كما ترى لا يعشق سوى البحر، ولا يقيم إلا فيه، رغم ما لديه من قصور وأموال وبساتين».

استقبله رئيس دار الكتب بنوع من الترحاب المبالغ فيه، حتى إنه دهش من هذه الرقة البالغة، فمند عامين وهو يسعى لمقابلته، وحين انتظره على باب الهيئة، ظل الأمن يتعامل معه كما لو أنه إرهابي يرغب في تفجير المؤسسة، وزاد رعبهم حين أخبرهم أنه ينتظر رئيسهم، فأخذوا يدفعونه إلى الخلف عدة أمتار بعيداً عن مدخل الهيئة، لكنه ظل على إصراره، فهذه هي المرة الخامسة التي يجيء لملاقاته، وفي كل مرة يخبرونه أنه غير موجود، في هذا اليوم قرر الذهاب مبكراً، ربما مبكراً عن موعد الموظفين أنفسهم؛ حين رأى سيارة سوداء تقترب وسائقها ينزل ليفتح الباب الخلفي بكل ذلة ومسكنة، بينما الحرس يهرولون على السلم الرخامي ليلتقط أحدهم حقيبة سامسونيت من يد رجل يرتدي بدلة إسموكن ونظارة سوداء، أيقن أنه رئيس الدار، حين دفع مراد بالحرس للحاق بالرجل كان قد صعد عدة درجات برشاقة متناهية، وكادت قبضات أيدي رجال الأمن تفتك بالموريسكي لولا أنه التفت فجأة من على الدرجة الأخيرة قائلاً: «اتركوه»، حينها توقف الجميع وصعد مراد



بالملف الذي اشتمل على صور من طلباته السابقة بالحصول على نسخة طبق الأصل من وقف العائلة، قال إنها المرة الخامسة التي يأتي فيها للقاءه ولا يجده، وإنه قدم طلبه مرات ومرات دون جدوى، ابتسم الرجل قائلاً إنه ليس رئيس الدار، لكنه سيحدثه في الأمر، ثم التقط الملف من يد الموريسكي وأعطاه لحامل الحقيقة، بعدها بشهرين تلقى مراد اتصالاً حدد له موعداً بعد أسبوع للقاء رئيس الدار، غير أن الثورة التي اندلعت في الشوارع والبياديين حالت دون ذلك، فقد كان المبنى شبه مغلق، ولا يوجد أمامه غير بضعة رجال في زي مدني دون سلاح أو مدرعة واحدة لحمايته على غرار المنشآت المهمة، تأكد له أن الموعد تم إلغاؤه فعاد يجبر أقدامه نحو البيت في يأس لا حدود له، حين روى ما حدث لراشيل أخذت تضحك قائلة: «كيف لصحفي أن يعجز عن مقابلة مسئول في بلده؟!»، قال إنه لا يملك كارنيه النقابة، وأمسك بيده عن الكتابة، فمضت سرقة اللوحة الشهيرة التي تورط في تزيف نسخة منها وهو يكره لقاء المسؤولين، وأخوف ما يخافه أن يحتك بأي من رجال الأمن، لا يعرف إن كان صمته الطويل أمام شاشة «الماسنجر» وقتئذ هو الذي دفع راشيل للتعاطف معه قائلة: «دع لي هذا الأمر»، أم أنها كانت تريد الوصول إلى هدف ما، حين سألها عن علاقتها بدار الكتب، وما الذي يمكن أن تفعله وهي في مدريد، أجابته أن الوكالة التي تعمل بها لديها بروتوكول تعاون مع الدار لترميم بعض المخطوطات والوثائق، وأنها ستطلب من رؤسائها الوساطة من أجله. حين اتصلوا به بعد شهر محددين موعداً

جديدًا مع رئيس الدار، تأكد أن راشيل أنجزت وعدّها، فارتدى أفضل ما لديه وعزّف نفسه لرجال الأمن، وهم بدورهم استقبلوه على أفضل ما يكون، وكانت المفاجأة بالنسبة إليه أنه وجد ذا النظارة السوداء والبدلة الإسموكن جالسًا على الكرسي الدوار، وزادت دهشته حين نهض الرجل لاستقباله كما يليق بممثل الموريسكيين في المحروسة، بعدها أمر صاحب الإسموكن سكرتيرته فائقة الجمال بألا تُدخل أحدًا عليه، قائلاً: «إذا اتصل أي من المسؤولين أخبريه أنني في قاعة فائق السرية»، هكذا قال ثم عاد ليجلس على كرسيه سائلاً مراد عن الأمر، قال الأخير إن جده الرابع ترك للعائلة ورواق المغاربة بالأزهر الشريف وقفًا مقداره مئة وخمسون فدانًا، استوقفت الرجل كلمة المغاربة فتساءل عن السبب، طفت على وجه مراد ابتسامة خافتة وهو يقول بصوت متردد إن أجداده من الأندلس، وقد هاجروا مع المسلمين الذين تم تهجيرهم منها إلى المغرب، فظل جزء منهم هناك ورحل بعضهم إلى تونس وبعضهم جاء إلى مصر، ومن ثم أوقف الجد أرضه على العائلة ورواق المغاربة، يقيًا منه أن بعضًا من أهله سواء في تونس أو المغرب سيأتون يومًا لتلقي العلم في الأزهر.

كان الرجل ينصت كما لو أنه يسجل في جهاز مثبت بمؤخرة رأسه، وما إن انتهى ضيفه من تفسيره حتى سأله: «يعني أنت موريسكي؟»، بوغت مراد بالسؤال وكأنه أمام اتهام، ولم يعرف من أين جاء شعور أن الجالس أمامه مسئول في جهة أمنية،

فاستحضر في ذهنه صورة راشيل ليلعنهما على كشفها سره لمن لا يعرفهم، وراح يداري ارتبাকে بإشعال سيجارة قائلاً: «حضرتك.. أنا مصري من أصول أندلسية، نزع أجدادي من الأندلس، واستقروا في المحروسة منذ ثلاثمئة عام»، حين شعر أنه لا ينبغي أن يفصح أكثر من هذا توقف عن الكلام واضعاً عينيه على رسوم سجادة تغطي البلاط الذي أمامه، كان عليها صياد شرع في قنص غزالة على منحدر جبلي، يد الصياد كانت تكاد تفلت سهمها من قناته لولا أن الرسام سعى لإبراز قدراته العضلية فثبت المشهد عند هذا الحد، فلا موت ولا نجاة، فقط فريسة وصياد أبدين تدوسهما الأقدام ولا يعيرهم العابرون من فوقهما ليل نهار أي انتباه. استعادته ضحكة الرجل الجالس خلف المكتب المهيّب على كرسي دوار وهو يقول: «بالتأكيد أنت مصري، جميعنا مصريون، بل أنت أفضل من أناس كثيرين، على الأقل أنت تعرف من أنت، ومن أين نزع أجدادك، لكن كثيرين لا يعرفون من هم ولا من أين جاء أجدادهم، كثيرون لا يعرفون حتى جدّهم الثالث أو الرابع، ويشعرون كما لو أنهم أصحاب هذه البلاد منذ نزل الناس من على الجبال إلى السفوح والوديان، رغم أن الهجرات شملت كل الشعوب، والتاريخ مليء بتجوال لا ينتهي لقطع شطرنج على رقعة باتساع أرجاء العالم». فاجأت مراد ريح الفلسفة التي هبّت على الجلسة، وانتابه شعور أن الجالس على الكرسي الدوار ممسكاً بعود من السيجار الثمين أقدر من يستطيع فهم محنته، فداثماً ما كان يرى نفسه شخصاً غير متم، وفي أفضل الأحوال ضيفاً عليه أن يعيش بشروط أهل المكان، ولا يملك فرصة لاختيار وطن آخر، وإن ملكها فلن يكون

لديه اليقين بأن هذا وطنه، حين التفت إلى رئيس الدار وجده يتسهم في انتظار كلمة منه، بادلته ابتسامًا بابتسام قائلاً: «الموريسكيون ظلموا من قبل الجميع، فقد عاشوا في الأندلس متهمين بالإسلام، وفي المغرب عاشوا متهمين بالنصرانية، وفي الأولى فقدوا كل ما يملكون، وفي الثانية فقدوا كل ما كانوا يظنون أنهم يمتلكونه، فاستعبدتهم البعض، وارتاب في ولائهم الكثيرون، وظلوا لا نصارى ولا مسلمين، كما لو أنهم جنس ثالث ليس أمامه سوى الاكتفاء بنفسه، أو كقنفذ ليس متاحاً له أكثر من أن يضع رأسه أسفل جلده». أعجبت المزحة رئيس الدار فقهقه محرّكاً رأسه بالنفي: «لا بد أن هذا الاسم جلب لك مشكلات بلا حصر؟»، فرد مراد بأن قلة هي التي تعرف أن لقبه الموريسكي، فهو مراد يوسف رفيق سميح، اسم لا يدل على شيء ولا يقطع بشيء.

ضحك رئيس الدار مرسلاً ريشاً من الحميمية بينهما وهو يقول: «تعرف! لقد حصلت على الدكتوراه من جامعة غرناطة أثناء عملي رئيساً للمعهد المصري للدراسات الأندلسية، كانت عن التاريخ الوسيط لإسبانيا والبرتغال، التقيت هناك العديد من الموريسكيين الراغبين في إنشاء جمعيات أهلية ذات طابع إسلامي، إلا أن القانون الإسباني يمنع ذلك، رغم إتاحته لغير الإسبان، فالكنيسة ما زالت قبضتها قوية، حتى فرانكو الذي حكم إسبانيا بالحديد لم يجد أمامه غير التحالف معها لمواجهة خصومه من الشيوعيين والقوميين، وحين استعان بالمغاربة في حربه ضدهم فشل في أن يفي بوعدده ويمنحهم إقليم الأندلس كوطن قومي

للموريسكيين، فشل حتى في منحهم مسجد قرطبة ليقيموا صلواتهم فيه، واكتفى بمسجد صغير مجاور له، وحتى هذا المسجد سرعان ما استردته البلديّة هناك بعد معركة طويلة شنتها الكنيسة على الجميع».

شعر مراد باطمئنان كبير لمحدثه، فقرر أن يفتح له صدره ويتحدث بوضوح قائلاً: «لي صديقة من أصول موريسكية تعيش في إسبانيا اسمها راشيل...»، وقبل أن يكمل جملته وجد الرجل يقول: «راشيل لويس بلاس إنفانتي؟!»، فتوقف مراد عن الكلام مندهشاً من معرفة أستاذ التاريخ لاسمها كاملاً، وبدأ أن الرجل انتبه لذلك فارتبك قليلاً قبل أن يقول: «بلاس إنفانتي هذا آخر الحلقات المهمة في نضال الموريسكيين من أجل وطن قومي لهم، كان محامياً وشاعراً وباحثاً في التراث الأندلسي، أسلم أمام قبر المعتمد بن عباد في أغمات بالمغرب، وكتب النشيد الوطني لإقليم الأندلس، ودافع عن القومية الأندلسية في مختلف المحافل، مطالباً بحفر نفق أسفل البحر ليربط الأندلس بالمغرب، موقناً أنهما بلد واحد، هذا الرجل قتله جنود فرانكو على قارعة الطريق بعدما انتزعوه من بيته المعروف ببيت الفرح، والمدّش أنهم لم يحاكموه إلا بعد رحيله بخمس سنوات، حاكمين عليه بغرامة كبيرة جعلت زوجته تباع بيت الفرح كي تدفع غرامة عن زوجها بعد رحيله بخمس سنوات كاملة، لم يترك سوى ابنه الذي لم يتجاوز العاشرة من العمر حين قُتل أبوه، بينما ظلت زوجته تتنقل ما بين السجون والمشاركة في معارضة فرانكو مؤمنة بكل أفكار زوجها، حتى شاركت في وضع دستور جديد للبلاد، دستور

نصَّ على أن الأندلس وطن قومي للموريسكيين، وعَلَّمه هو علم عبد الرحمن الناصر والمعتمد بن عباد ذي اللونين الأبيض والأخضر»

زالت ملامح الدهشة عن وجه مراد، وشعر أن رئيس الدار ليس فقط أستاذًا للتاريخ، ولكن أيضًا صديقًا شخصيًا لأسرة إنفانتي، فاسترخى في كرسيه الفوتيّة مبتسمًا، بينما ازداد الحماس لدى رئيس الدار، فراح يكمل حديثه قائلاً إن إنفانتي سليل واحدة من العائلات العريقة التي شاركت في ثورة طاهر الحر، تلك التي قام بها بقايا الموريسكيين في الأندلس بعد قرار التهجير بنحو عشر سنوات، كانت البرتغال يومها قد خرجت من ربة الاتحاد الذي فرضه فيليبي الرابع عليها مع إسبانيا، والتي خسرت بسببه العديد من ممتلكاتها عبر البحار، وقد أبدى الأندلسيون ابتهاجًا بذلك فقاموا بمظاهرات تأييدًا لجوان ملك البرتغال الجديد، وأراد الأخير أن يرد لهم الجميل فبحث عن واحد من أسرهم العريقة وهو طاهر الحر، فأمدّه بالسلاح كي يسيطر على شرق الأندلس ويستقل بها عن الإسبان، وبالفعل قام الحر بثورته وانفصّاله الذي لم يدم طويلاً، نظرًا لخيانة أحد أعوان جوان الذي حمل رسالة منه إلى قائد الأسطول الإسباني، فأخذ الرسالة وذهب بها إلى مدريد، كي يكتشف إمبراطور إسبانيا معاوني الحر، ومن بينهم قائد الأسطول، فقام بقتله ومحاصرة الحر حتى استسلم فتم نقله إلى لشبونة كي يقتل غيلة هناك.

كان مراد على وشك أن يسأل عمّا جرى بعد الحر لمن بقي من أهله في الأندلس، لولا أن ظهرت السكرتيرة الحسناء بعطرها الفواح، مشيرة إلى أن الساعة تجاوزت الخامسة، فنهض رئيس الدار من كرسيه مبتسمًا بحيادٍ شديدٍ في وجه مراد، وهو يقول: «سنلتقي مرة أخرى».

قالت له: «أنت ولد عاق»، ثم تشاغت بمداعبة شراف المفرش النائم على ساقها وهي تبتسم كما لو أنها تحدث شخصاً غائباً وليس حفيدها القابع أمامها في الكرسي البلاستيكي بشرفة البيت، نظر تجاهها كما لو أنها وخزته بإبرة في ساقه، حين رآها سادرة في شرودها عنه، استدار محدقاً في الشارع الكبير، كان العابرون على هيئة قطع صغيرة من أحجار على رقعة شطرنج طويلة من الأسفلت، شعر أنهم مجرد دمي تحركها يد علوية، لا يملك أي منها الخروج عن مساره، أطل التحديق إلى هيئاتهم ذات الألوان المتباينة على أمل أن تشعر الجدة أنها أغضبت، لكنها لم تفعل، وراحت تترنم بموشح قديم لم يكن يفهم أغلب كلماته، فتركها وعاد إلى حجرته ليفتح حاسوبه بحثاً عن راشيل، كان صوت التلفزيون عاليًا والمراسل يتحدث عن تجاوزات حدثت في الانتخابات البرلمانية، كانت أغلبها تجاوزات شبه عادية في بلد مأزوم ديمقراطيًا، فأغلق التلفزيون واتجه إلى الغرفة التي فوجئ أن كل ما بها على الأرض، كتبه وآلات تصويره وأدوات رسمه ولوحاته القديمة، حتى

ملا بسه وأحذيته وفرش السرير نفسه، كما لو أن شخصًا جاء يبحث عن شيء ما، فلما لم يجده قرر أن يترك رسالة بأنه كان هنا ومضى، في البدء ساورته الشكوك أن تكون الخادمة العجوز قد أصيبت بالجنون وقامت بذلك، لكنه أدرك أن صحتها وسنها لا يؤهلانها لهذا العمل، وهي لا تكاد تصحو حتى تنام من جديد، ولولا أن جدته تمسكت بوجودها ربما لتخلي عنها منذ زمن بعيد، كانت قد أوصته حين تعرضت لأزمة قلبية منذ سنوات ألا يتركها مهما حدث، قالت إن جده هو الذي اختارها من بين عشرات الخادومات، كانت صبية صغيرة تعاني من عيب خلقي في النطق فرقَّ حاله لها، حين أحضرها إلى البيت دخل بها على جدته هانم، فنظرت إليها طويلًا ثم سألتها عن اسمها فقالت «حياة»، حينئذ ابتسمت لحفيدها «لا تخرج من بيتك إلا على المقابر»، فدخل بها عليّ صائحًا: «حياة تخدمنا حتى نموت أو تموت هي»، ثم ضحك بصوت مجلجل، هكذا قالت جنى هانم، وهكذا أوصت مراد: «لا أهل لها سوانا، فإن ماتت جهزها بجهازها، وادفنها في مقابرنا»، لم يعرف يومها إن كان عليه أن يبكي أم يضحك، فجذته تكاد تودع الحياة، وتوصيه بعجوز لا يعرف كيف يتعامل معها، وضع يده على رأسه وراح ينصت للأرواح التي تطوف بالمكان من حوله، كان موقنًا أنها جاءت من أجل جدته، ولم يحتمل أن يرى المشهد بعينه، فتركها وأخذ يسير في الشوارع من قصر العيني حتى لاظوغي ومنه إلى عابدين ثم شارع شريف، ومنه إلى عبد الخالق ثروت حيث بيت الموريسكي في طلعت حرب، لا يعرف كم مشى



ولا كم استغرق من ساعات في سيره، لكن تلك كانت طريقته في تهريب نفسه من الحزن، حين وصل إلى المدخل الخلفي أسلم نفسه للسلم الرخامي المحتضن للأسانسير المعطل منذ سنوات، كان يصعد الدرجات والظلمات تتكاثر من حوله، شعر لأول مرة كم تترامى الوحشة في البيوت، فرائحة الخشب القديم، والرطوبة التي تنشع من الجدران، والظلام الكاسي الأرض، كل شيء كان يشعره بالوحشة والفقد، كل شيء بدا كما لو أنه ينتحب من حوله، فظل يتشبث بالسور الحديدي للسلم حتى وصل إلى باب شقته، وما إن فتحه حتى خر مغشياً عليه، ولا يعرف كيف أتت حياة التي تركها خلفه في المستشفى، ولا كيف أحضرت له طبيياً، فكل ما يذكره أنه حين فتح عينيه وجد الجدة بجانبه على السرير، كان وجهها أكثر بريقاً مما اعتاد عليه، بدت كما لو أنها عادت إلى شبابها من جديد، ألقى بنظرة نحوها فرأى ثغرها يشع نوراً وهي تبتسم، سألتها: «كيف حالك؟»، أجابته: «كلنا بخير.. طالما أنت بخير»، لكن شيئاً ما كان قد تغير في طبيعتها، فلم تعد تحب الطعام ولا ترغب في دخول الحمام، ولا تقترب من شيء بيديها، فقط تراقب وتطلب وتحكي من على كرسيها المتحرك، الأمر الوحيد الذي تغير في السنوات الأخيرة هو رغبتها الملحة في تسجيل تاريخ أجدادها، فجلس بالساعات إلى جانبه لتحكي عنهم، وفي النهاية تبتسم في وجهه قائلة: «ألا يستحقون الكتابة عنهم؟».

كان فرناندو قد وقع تحت سطوة فتنة الحكي عن صاحب اللحية الحمراء خير الدين بربروسا، فظلمت أنصت له حتى جنَّ الليل وتخذّرت أعضائي فمال رأسي بالنعاس، حينها طرق على فخذي: «قم للنوم وغداً نعاود الكلام»، أحضر لي وسادة من الحلفا و فراشاً لا يزيد على كونه حراماً قديماً قائلاً: «معذرة.. إننا في حالة حرب»، طأطأت رأسي متفهماً ما يرمي إليه، ففي أي لحظة يمكنهم أن يفروا تاركين كل شيء خلفهم، خاصة وأنهم لا يملكون جيشاً نظامياً، وليس لديهم حصون ولا قلاع، وإن وجدت فأسوارها مهدمة، والموريسكيون كلهم بمثابة الجيش نفسه، وخططهم لا تقوم على المواجهة بقدر ما تقوم على الإغارة وتشيت الفرق المنظمة التي يرسلها الإسبان، شكرته ودعوت لهم بالنصر ثم ألقيت جسدي على الأرض كما لو أنني ألقى بجوال ملح، كنت أتوقع أنني سأدخل في النوم بمجرد أن أغلق عيني، لكن صوت الذئب التي راحت تعوي جعلني أشعر أن بمقدرتها مهاجمتي في أية لحظة، فقمّت وجلبت السيف أسفل رأسي، وزيادة في الحرص وضعت خنجرًا أسفل

طرف الحرام، وما إن ذهب عيني في النوم حتى شعرت بوجود أبي في الخيمة، فانتبهت أبحث عنه، رأيته جالسًا في الركن المواجه لي، قلت: «إلى أين تركتني وذهبت؟»، قال: «العالم متسع، والخطى خفيفة والشئون تعددت». لو كان لي أن أرى وجهه في ذلك الوقت لرأيت الدموع التي عرفتها بعد رحيل أمي، قلت: «هل من جديد؟»، قال: «زهراء اغتصبت، اعتدى عليها بعض الجند وهم ذاهبون بالأسرى إلى قشتالة، هؤلاء الحثالة تناوبوا عليها كما لو أنهم يتداولون كرة بينهم، وحين صاح فيهم الأسرى بالتوقف قتلوا ثلاثة منهم، قطعوا ألسنتهم في البدء، وربطوا أطرافهم في أعناق الخيول وضربوها لتشقهم نصفين، زهراء الآن تنزف دماء وحسرة ولا أستطيع أن أفعل لها شيئًا، والأسرى يجرون أقدامهم على صخر الطريق دون طعام منذ أيام، جميعهم يموتون جوعًا، وحين قررت هي أن تصيح في هؤلاء الأغبياء بأنه ليس من الدين أن يتركوا الناس بلا طعام ولا ماء، سخرها منها، ثم صاح أحدهم أنها أفضل من رأى من الموريسكيين الأنجاس، قال الآخر إنها ابنة عبد الله بن جهور، بعدها فكروا وثاقها لتذهب معهم كي تحضر الطعام لذويها، فكوا السلاسل من أقدامها واصطحبوها إلى كهف بعيد، كانوا خمسة وكانت كغزاة شاردة بينهم، يتركونها تفر أماهم ثم ينقضون عليها حتى كادت تلفظ أنفاسها، فأعطوها الماء وهم يجردونها من ملابسها، داسين أيديهم في كل جزء منها، حتى فقدت الوعي بينهم، فعادوا بها إلى الأسرى ملطخة بالدماء دون شيء يسترها، ففطن الناس لما فعلوه، ولم يسكتهم ما أحضروه

من طعام، وكل مَنْ فتح فمه منهم نزلوا عليه بالهراوى حتى فقد الوعي، لكن ثلاثة قاوموا بكل ما لديهم من قوة، فما كان منهم إلا أن صلبوهم على الأشجار، واجتذوا ألسنتهم، كان التعذيب أمام الجميع ليعتبر كل مَنْ له عين وأذن، فملاً الخوف القلوب، وساد الصمت الجميع، لكنهم لم يتوقفوا، فقد أوثقوا الثلاثة من أطرافهم في سرج الخيل وراحوا يضربونها حتى مزقتهم، جميعهم صعدت أرواحهم، وحدها زهراء التي ما زالت روحها معلقة، فلا هي معنا ولا هي معهم، فصلٌّ من أجلها كي تتخلص من الألم، صلٌّ من أجل كل موريسكي في محنة كي تصعد روحه بسلام».

أجهش أبي بعدها ببيكاء مسموع، ولم أعرف كيف أخفف عنه أو عني، فظللت جالساً في فراشي أنتحب حتى ظهر الصباح، وجاءني فرناندو قائلاً إنه سيأخذني بعد الظهيرة إلى السلطان، فسألته: «مَنْ؟»، قال: «ابن أمية، سلطان البشرات وما حولها، وقرية سيكون سلطان غرناطة»، فقلت: «كيف أصبح سلطاناً عليكم، وهو لم يكن مَنْ دعا للثورة؟!»، فضحك وهو يضع الطعام في فمي: «هذا من تدبير عمي عبد الله»، فدهشت: «أبي؟!»، قال: «نعم»، ثم غاب بذهنه، وكأنه يستدرك ما كنا نخوض فيه بالأمس ليصل ما انقطع من الحديث: «ما إن ذهب بك إلى طليطلة وعاد ليجتمع بنا حتى شرع في عدة أعمال أخرى، كان من بينها الاتصال بصديقه بربروسا، فأرسل عن طريقه رسالة إلى السلطان بايزيد طالباً العون، وأرسل أخرى إلى علج علي باي الجزائر، وثالثة إلى

سلطان المغرب، فأجابوه جميعاً أن مراكبهم ستحمل من العدة والعتاد ما يشتت جمع النصارى وينصر المسلمين، كان ذلك في الخارج، أما في الداخل فقد ذهب إلى أثرياء غرناطة وأجوارها، والبشرات وسفوحها، وقرطبة وأغوارها، ولم يرفض الدخول في الثورة سوى أهل بلنسية ومرسية، لكنه كان قد حصل على وعد بثورة نحو خمسة وأربعين ألفاً في البشرات وغرناطة وقرطبة، فدعا رؤساء العائلات في اجتماع بيت جبرائيل الخباز باليازين، وأخذني معه في تلك الليلة، قال لهم: إن بوجودهم هنا تكون الثورة قد وضعت أولى خطواتها على الطريق، ولم يبقَ لنا سوى اختيار رئيسٍ نحتكم إليه ونأتمر بأمره، فانظروا من يكون أميراً عليكم؟، فقام فرج بن فرج وقال: إني لها، لكن رجلاً رد عليه: أنا أحق بها منك، واختلفت الآراء وتعالى الأصوات، ولم يكن لطرف أن يخضع لغيره، فقام والدك قائلاً: لو أردتم أن تسمعوا مني؛ فإنني أرى رد الأمر إلى بني أمية، داعين لقيام دولتهم، حيث الأندلس الموحدة لا المشرذمة في ممالك صغيرة، غير أن فرج بن فرج نهض ثائراً: لعلك تسعى لأن تكون الإمارة إليك، فابتسم عبد الله بن جهور: لو نطق بها لساني يوماً فاقتلوني بأيديكم، فخرست الألسن، ودهشت الوجوه، ولزم الجميع الصمت، فأكمل والدك: ما أنا إلا رجل تجاوز الثمانين، وما أردت إلا النصح، ومالي مطمع في شيء، ولا غرض إلا رفع الذلة والمهانة عن رؤوسنا جميعاً، ثم صمت وجلس في مكانه غاضباً، فقال الناس ما نطق إلا بالحق، ثم توجهت عيونهم نحو فرج ليقول كلمته، فاحمر وجهه وتقلقل في مكانه، ثم خرج صوته بعد لأي: لو كان الأمر

هكذا فقل لنا مَنْ يمكننا أن نجتمع عليه؟ فصمت والدك كَمَنْ يفكر في أمر عصي عليه، ثم قال لهم: ما رأيكم في فرناندو دي بالور دي قرطبة؟ ففغر الجميع أفواههم لأنه شاب في الثانية والعشرين، والجميع يعرفه ويحبه؛ فهو المشرف على قنوات الري في بلدية غرناطة، وجميعهم يقدرّون رجاحة عقله واتزان فكره رغم صغر سنه، بعض نسائهم يعرفن زوجته برياندة بريس، تلك التي جابت غرناطة بأكملها لتحث الناس على الثورة، وكلهم يعرفون والديه اللذين كادا يموتان في ثورة البيازين، فكيف غابت هذه الأسرة الشريفة عن أذهانهم؟ كان سؤالهم لأنفسهم وهم ينظرون في وجوه بعضهم بعضًا، مقلّبين أيديهم وجهًا لكف، حينها سأل الحضور فرج بن فرج، وهو محارب قديم يعرف فرناندو ووالديه جيدًا: ماذا تقول في فرناندو ابن قرية بالو المجاورة لكم؟ أجابهم: هذا سيد ابن سيد، والله يعلم أنني لم أكن أريد الإمارة لنفسي، لكنني أردت الصالح للجميع، وما دام شيخنا عبد الله بن جهور قدمه على نفسه فلا أملك إلا النزول على ما نزلتم عليه، يومها فوضوه في محادثة ابن أمية وإقناعه بالثورة، وتركوا الأمل يشتعل بداخل ابن فرج عسى أن يرفض فرناندو الأمر، فوالده قد ذاق من التعذيب في واقعة البيازين ما يكفي لأن يعتزل نسلهم جميعًا السياسة ونارها، لكن عمي عبد الله كان من الدهاء بألا يسمح للحديد أن يبرد في يديه، فأومأ لي أن أذهب إلى ابن أمية، ولم يكن بيته ببعيد، فامتطيت جوادي وانطلقت كالمرح نحوه، فوجدته كما لو أنه في انتظاري، قال: ما الأمر؟ قلت: ارتدّ أفضل ثيابك وهات سيفك معك، ورحنا نسابق الريح قبل أن تتغير الأفكار، وما إن طرقتا الباب

عليهم حتى تصايحوا في وجهه: كنا سنرسل إليك، فبش في وجوههم: كأنكم ناديتُموني، وتركتم لأجلس خلف الباب كأنني حارس بصحبته، حتى سمعت عمي يقول: لقد أجمع الموريسكيون أمرهم على الثورة، فهل أنت مع ذل المسلمين واستعبادهم وتفتيش ضمايرهم، أم أنك مع العدل وإعادة الحق لأهله؟، قال: وهل يرضى بالهوان إلا الوضعاء، والله إنني مع كل من تخطو خطاه نحو التحرر من الذل، ومع كل من يرغب في حماية دين الله واستعادة ملك أجدادنا جميعًا، مهما كانت عائلته أو سنه، ورد والدك: قد اختارك الناس كي تكون أميرًا عليهم، تقودهم بنفسك نحو استعادة ملك آبائهم وأجدادهم، وتموت قبلهم وتعيش لهم، فهل تقبل دعوتهم؟ ويداعلى الرجل أنه بوغت، فلم ينطق، حتى أعاد عليه الناس السؤال، قال: ما ولدت وما كان لي أن أولد لو وضعتُموني موضعًا وخذلتكم فيه، فسمعت عمي يقول: إلينا بمصحف وسيف، فهورلت مسرعًا لأضعهما أمامه، لكن ابن أمية قال: قبل أن أقسم على شيء، لقد جئتكم وليس في نفسي شيء، فحضرت أمرًا اجتمعتم عليه، ولا علم لي بما في النفوس، فهل منكم من نازعته نفسه في الأمر فيكون أحق به مني؟ فنظر الجميع نحو ابن فرج: أب نفسك شيء يا ابن فرج؟ ولم يكن أمامه سوى أن يقول: لن أكون أول من يكسر عصا الجماعة، وإنني والله أبايعه قبل أن تبايعوه. ووجدت زوجة الخباز تشير لرجل يبيديها، فذهب ليحمل منها مشروب العنب في دن كبير، فأسرعت أساعده وهي توصيه: انتظر حتى تسمعهم يعطونه البيعة، وسمعت عمي يعلق على ابن فرج ضاحكًا: وقد قبل الرجل بيعتك، فضحك الجميع بمن فيهم ابن فرج نفسه، وكان

ابن عبو، وهو كما تعلم ابن خالة حبابة زوجتي، قد أحضر مصحفه معه فوضعه أمام والدك الذي أخذه قائلًا: مصحف ابن عبو مصحف الثورة. ووضع عليه سيفه موجهًا حديثه لمحمد بن أمية: أقسم أمام الجميع على السيف والمصحف إنك تبائعهم على الموت والحياة، وإنك لا تقطع برأي دون رأيهم، وإن دماء المسلمين ومصالحتهم في عنقك من الآن، فإذا مت فأمر القوم بينهم، يؤمرون على أنفسهم من شاءوا. فلما تلا قسمه وضع والدك يديه على المصحف قائلًا: وهذا عهدنا إليك يا محمد بن أمية، نبايعك على السمع والطاعة ما دمت ملتزمًا بعهدك وقسمك، لا نخالفك الرأي، لكننا نشاورك إن رأينا غير ما رأيت، ونقسم لك على هذا، فقام الجميع واحدًا تلو الآخر يقسمون ويقبلون يده بالبيعة، فلما انتهوا طلب ابن أمية من فرج أن يجلس بجانبه، وخرجت عليهم بمشروب العنب قائلًا: وهذا نخب اختيار الأمير، ثم تلوت قسمي أمامهم مبايعًا له.



أعاد مراد ترتيب غرفته وجلس أمام حاسوبه يتطلع إلى رسائله في البريد، كانت مفاجأته الكبرى أن راشيل لا تعرف رئيس الدار، ولا ما قاله عن بلاس إنفانتي، فقد نسيت في زحام العمل أن تحدث أيًا من رؤسائها بشأن حجة وقف الموريسكيين، حين سألتها: «من أين علم الرجل باسمك، ومن أين أتى بكل هذه المعلومات عن جدك؟»، أجابته أن راشيل إنفانتي ليس اسمها الحقيقي، وأن بلاس إنفانتي ليس جدها، كان ذلك بالنسبة لمراد بمثابة صدمة أكبر من قدرته على تصديقها، فعاد من جديد يسأل عن سبب حملها هذا الاسم، لكنها لم تكن لديها الرغبة في إكمال الحديث، فقالت إن لهذا قصة طويلة، ربما حين تعود إلى القاهرة تروي له تفاصيلها، ولم تكن تلك الإجابة إلا بداية أخرى لمتاهة جديدة، فمتى كانت في القاهرة، ولم لم تخبره بالأمر من قبل؟ شعر أن من تحدثه ليست راشيل التي يعرفها منذ سنوات، وأن كل ما جرى بينهما لم يكن سوى محض وهم أو تهيؤات، شعر أن كل ما في الغرفة يدور من حوله، وأن ريحًا عتية تكاد تحمله في طياتها نحو مجهول

في ظلمات من فوقها ظلمات، أخذ يضرب خديه باللكمات عسى أن يكون نائمًا فيستيقظ، في تلك اللحظة كانت راشيل قد قررت أن تدير دفعة الحديث في اتجاه آخر، قالت إن الأوضاع في مصر تطورت بشكل كبير، وإنها اقترحت على الوكالة إنشاء مكتب لها في القاهرة، ومن ثم فإنها ستعتمد في المرحلة القادمة على مجموعة من الصحفيين والمترجمين المحترفين. كان غضب مراد في تلك اللحظة مسيطرًا على فكره، فرأى أن ما تقوله راشيل هو تلويح بالاستغناء عنه، فقرر أن يتنحى هو قبل أن يأتي من ينحيه، قال لها: «تأكدي أنني لست في حاجة إلى العمل معكم»، حينها توالى ضحكاتها على الشاشة أمامه، فأغلق حاسوبه وخرج يبحث عن موشع قديم يدفن نفسه فيه.

ما إن خرج من الغرفة حتى انتابه يقين أن راشيل لا تقول الحقيقة، وأن ثمة معرفة لها برئيس دار الكتب، وإلا فمن أين عرف باسمها وتاريخ عائلتها؟ وكيف لها أن تتحل شخصية ليست شخصيتها في فضاء عام كالفيس بوك؟ في النهاية قرر أن يذهب لرئيس الدار نفسه ليسأله عنها وعن سبب معرفته بها، حين ذهب في الصباح إلى الدار لم يعترض طريقه أي من أفراد الأمن، أو ما لهم بابتسامة ودود فردوا عليه بمثلها وأكثر، لكنه ما إن دخل إلى مكتب السكرتيرة الحسنة حتى وجد مكانها سيدة أخرى، تغاضى عن هذا التغيير وطلب منها الدخول إلى رئيس الدار، نظرت إليه السيدة من أعلى نظارتها سائلة بود إن كان ثمة موعد بينهما، فتلعثم قليلًا قبل أن يقول: «أبلغيه فقط باسمي»، ووقف باعتزاز شديد ينتظر السماح

له بالدخول، غير أنها عادت بوجه ممتعض لتقول: «لديه اجتماع»، انتاب مراد شعور بالإهانة، وراوده اليقين أنها أيضًا تكذب عليه كراشيل، أو أن الرجل هو الذي يسعى للتهرب منه لسبب ما، قرر أن يفاجئ الجميع ويضعهم أمام أنفسهم، فشكرها واستدار بحركة سريعة ليفتح الباب المجاور لها فيجد نفسه أمام خمسة أشخاص ينظرون إليه كوافد غريب عليهم، تجاهل نظراتهم وبحث عن الجالس على الكرسي الدوار، كان رجلًا عجوزًا يتمتع بصلعة طويلة بيضاء، استدار عنه مراد وأخذ يبحث بعينه في شتى الأركان عن ذلك الذي جلس معه بالأمس في هذا المكان ما يقرب من خمس ساعات، دون أن ينتبه إلى جلبة الأصوات التي كانت تتعالى من حوله صارخة فيه بالخروج، بعدها خفتت الأصوات وأفسحت المجال للأيدي التي تكاثرت لتدفع به خارج الغرفة، حين صرخ فيهم أنه يريد ملاقة رئيس الدار أشاروا إليه أنه ذو الصلعة الطويلة البيضاء، فوقف مبهورًا لا يعرف بِمَ يجيبهم، بينما أقدامه وجسده يستجيبان لدفعهم له، وأذانه تلتقط همسات بعضهم عن الجنون وتعاطي المخدرات.

لم يكن يعرف إن كان هو الذي يسير أم أن الأرض هي التي تمشي تحت قدميه، فظل يقطع المسافة من رملة بولاق سيرًا إلى التحرير، عابرًا فندق كونراد والمركز التجاري والبنك الأهلي ووكالة البلح وكوبري الخامس عشر من مايو ومبنى الإذاعة والتلفزيون كأنه منوم أو مجذوب في شطح كبير نحو عالم آخر، في البدء تصور أن راشيل هي التي اتصلت بصديقها رئيس الدار ولا مته على إفشاء سرها، فأحضر ذا الصلعة الطويلة

البيضاء ليجلس على كرسيه ممثلًا دورًا بليدًا في مسرحية مليئة بالكذب، لكنه تذكر أن أيًا من راشيل أو أستاذ التاريخ لم يكن يعرف أنه سيذهب إلى الدار في ذلك اليوم، «فما الذي حدث؟»، هكذا سأل نفسه باحثًا عن مخرج من متهاته التي لا يعرف نهايتها، ظل يفكر في شيء يهديه إلى الصواب، شيء يوقن بحقيقته وليس كذبه، هداه تفكيره للبحث في النت عن صورة «رئيس دار الكتب»، لكنه لم يحصل إلا على صورة صاحب الصلعة الطويلة البيضاء، كرر البحث بكلمات متباينة دون أن يتمكن من الوصول إلى صورة واحدة لأستاذ التاريخ، حينها وضع يده على رأسه رافضًا أن يكون كل ما حدث محض تهيؤات، أغلق الجهاز وخرج باحثًا عن أندلسيات جدته التي تليق بمتهاته العظيمة.

بدا له أن جنى هانم الجالسة في الصالة بكرسيها المتحرك كانت في انتظار هذا الخروج، كانت قد وضعت يدها على خدها وأخذت ترمي بعينها على باب الغرفة في صمت بلا أغنيات ولا موشحات، لا يعرف لم اجتاحه الشعور بالفرح حين وقعت عينه عليها، فمد قمه ليطلع قبله على خدها سائلًا عن سبب جلوسها هكذا، لكنها فاجأته: «أنت ولد عاق»، لم يكن في حاجة لأن يفقد الحائط الأخير الذي يحتمي به من هموم الزمن، فازدرد الكلمة متغلبًا على غضبه وهو يرسم ابتسامة باتساع وجهه: «هل حدث ما يغضب جنى هانم مني؟»، غير أنها لم ترد على سؤاله، حين أعاده عليها من جديد انطلقت كمدفع رشاش في وجهه: «جنى هانم

لا يغضبها أحد، لكنها لا تقبل بإهمال الرسائل، فلا يفعل ذلك إلا مجنون»، ظل يتمالك أعصابه منتظرًا أن تعود لهدوئها كي يرد عليها بهدوء مماثل، لكنها ما إن أنهت كلماتها حتى حركت كرسيها بنفس الانفعال لتدخل غرفتها مغلقة الباب وراءها، كان ذلك بمثابة القشة التي قسمت ظهر البعير، فظل واقفًا كتمثال يحترق من الداخل، بينما خيوط المتاهة التي يعيشها تتصاعد في رأسه، فأستاذ التاريخ ليس رئيسًا لدار الكتب، وراشيل ليست راشيل، وبلاس إنفانتي ليس سوى اسم لا يعرف من أين أتت به، والجدّة لا تعرف غير الرسائل وموشحات ابن زيدون، وحين ترى وجهه تتهمه بالجنون. «نعم أنا مجنون»، هكذا قالها ساخرًا في البدء، ثم ما لبث أن أخذ يكررها بانفعال متصاعد: «أنا مجنون يا جدّة، أنا مجنون»، وطرأت على ذهنه فكرة أن يُسمعها اعترافه الباكي، فراحت يدها تطرقان على باب غرفتها: «أنا مجنون يا جدّة.. أنا مجنون»، لكنها لم تفتح له، ولم تنصت لكلماته، فأخذت أقدامه تركل الكراسي والمناضد وكل ما أمامه في غضب متزايد، غضب يريد أن يقطع الشك باليقين، يريد أن يكسر المتاهة ويعرف حدود الوهم من الحقيقة، حدود الكذب من الصدق، والواقع من الخيال، صارخًا على بابها: «كأنك تشاركينهم نفس اللعبة، نفس الدفع نحو الجحيم، لكنني لن أسمح لأحد أن يقتلني، لن أسمح لخرافاتكم أن تُذهب ما بقي من عقلي، فلست مجنونًا يا جدّة، لست مجنونًا، ولن أسمح للجنون أن يعرف طريقي».

كان صراخه يدوي كعاصفة تقتلع الحوائط والأبواب والنوافذ والأباليك والصور والبلاط والمناضد والنجف والمصاييح والسماء الملونة بالسحاب، عاصفة تدور من حوله وهو يصرخ في قلبها: «لست مجنوناً، ولن أكون»، بينما الصوت يتردد في صدى طويل لا ينقطع من أذنيه، وكل ما حوله يدور أمامه، ونفسه يضيق، وعينه لا تحتمل المزيد، فأغلقها وارتمى بجسده على الأرض مستسلماً للريح التي تولى من أذنيه، والهدوء الذي عاد للمكان ولا يقطعه سوى خطوات صاعدة بثبات على درجات السلم الرخامي، خطوات كان يسمعها بقلبه قبل أذنيه، فراحته عينه تبحث عنها مترقبة دخولها من الباب نحوه، كان يتمنى لو أن العالم قد سمع صرخاته وجاء ليهدهده، لكن الخطوات التي تكاثرت أعلنت عن نفسها كأسراب متتالية من القطط، أسراب عديدة يسير في خلفها رجل طويل ملثم، كما لو أنه راع يزج بخرافه في نهاية المساء إلى المبيت، لكنها سرعان ما تتحول إلى نساء وأطفال ورجال وعجائز، تنحني رؤوسهم من فوق الأكتاف مطأطئة في خشوع الداخل إلى قدس الأقداس، جميعهم بنفس الخطى الثابتة كانوا يعرفون الطريق نحو غرفة الجدة، دون أن يعيره أي منهم انتباهاً، فظل يرقب المشهد بعينين مفتوحتين وذهول لا حدود له، لا يعرف كيف زحف خلفهم على يديه وساقيه، حين اقترب من الباب سمع الجدة تردد بصوت حنون كلمات لا يعرفها، تحامل على نفسه لينظر نحوها من خلف هذه الجموع، كانوا بثيابهم البيضاء يتحلقون في دوائر تلو دوائر من حولها، مهمهمين خلفها

كانهم يقرأون من كتاب غير مشهود، حين انتهت من ترتيبها أحنت رأسها ليقبلها الملمث ثلاثاً، ثم يجلسها على سريرها رافعاً يديه نحوهم: «هاتوا برهانكم»، فانطلقت أشعة بيضاء وخضراء من بينهم لتتظم أمامه كصحائف طويلة، سرعان ما دفع بها نحو الجدة قائلاً: «هذا كتابنا فأين كتابه؟»، بعدها لا يعرف مراد هل انقطعت الكهرباء أم أنه الذي أغشي عليه، لكنه حين فتح عينيه رأى جدته في كرسيها المتحرك تنشد:

لولا بنو جهور ما أشرقت بهم غيد السوالف في أجيادها تلمع  
قوم متى نحتفل في وصف سؤددهم لا يأخذ الوصف إلا بعض ما يدع

قالت الجدة إن ما حدث للملتزم كان بسبب مخالفته وصايا الجد، فقد غلبه الشيطان وضعفت عزيمته أمام المال واستمع لنصائح قاضي السوء، فلم يكتب كل ما يملكه للوقف، رغم أن النصيحة كانت واضحة، لكنه لم يكن يعلم ما الذي تخبئه الأيام للجميع، ومن عجائب القدر أن شيخ السوء الذي نصحه ألا يكتب كل ما يملك للوقف «فعصفور في اليد خير من عشرة على الشجر»، هو نفسه الذي أضاع على عطية كل ما يملك، فقد ترك العمل بالمحكمة الشرعية وانضم للخدمة في جيش الباشا حتى أصبح دفترداره، وحين مرت الأيام وقام الباشا بحملته ضد الدرعية كان بحاجة إلى تجهيز حملة ثانية ليقضي على الوهابيين فيها، فعاد سائلاً عن موارد لهذه الحملة، وكانت الخزينة شبه خاوية من الحرب مع المماليك وحملة فريزر، حين جلس الباشا لمناقشة الأمر مع ابنه إبراهيم ومساعديه، قال مسئول الخزينة إنه لا يمكن فرض ضرائب جديدة على الفلاحين وأرباب الحرف، فقد صاروا يتركون أعمالهم وحقولهم هرباً من الضرائب التي نُقِرُّها عليهم، يومها صرخ الباشا في



وجهه: «وهل تترك بذور الوهايبة لتنمو من جديد، أم نقف مكتوفي اليد أمام المماليك المتجمعين على حدود السودان؟»، كان من الحضور في ذلك اليوم قاضي السوء الذي لم ينسَ أن عطية لم يعطه حلوان إنجائه لإجراءات الوقف، فقال: «يمكننا محاصرة المماليك إذا أخذنا من أذناهم المال الذي يمدونهم به»، هنالك اشترأت أذن الباشا وأشار له أن يكمل، فراح يوضح قائلاً: «أعرف ملتزمًا اسمه عطية إبراهيم، لم يكن أبوه سوى خولي أنفار، لكنه استطاع من خلال موالاته للمماليك أن يمتلك أكثر من خمسمئة فدان وقصر على مقربة من القلعة، فضلاً عن الذهب والخدم والعبيد، هذا الرجل ما زالت تربطه علاقة قوية بهم، فهو الذي يمدهم بالمال والأخبار، فلم لا نأخذ أمواله من أجل الحملة». قاطعه إبراهيم باشا: «لو صدقنا ما تقوله فإن أمواله جميعاً لا تكفي لتجهيز نصف الحملة»، وعقب الخازندار: «ولو فعلناها لظن الملتزمون في البلاد أن الحرب بدأت عليهم، ولا تمتنعوا عن دفع مال الالتزام، وربما فروا بأموالهم من البلاد»، لكن الباشا قهقهه عالياً: «شو جوزال خازن بيك، شيلوا كل الملتزمين، أنا باشا مصر أقول لا أريد التزاماً في أرضي»، كان ذلك بمثابة استباحة لأموالهم وأملاكهم، وكان عطية الله في مقدمتهم، فلم يستطع أن يحتمل خروجه هو وأسرتة من بيته بملابسه فقط، فسقط مسلماً روحه إلى بارئها.

لم يكن أمام حور العيون سوى أن تنتقل بابنها إلى بيت والدها موسى العطار، لكن حبيب الله مال بهواه إلى جده إسماعيل الوراق

في الأزهر، فلازمه للتعليم على يديه، مؤكدًا أنه لا يحب العطارة ولا يرغب فيها، ولأن الحياة لا تأتي إلا بمزيد من الهموم، فقد بنى الباشا المطبعة الأميرية، وراح الناس يهفون إلى كتب مطبوعة لا منسوخة، ورأت حور العيون أن مهنة نسخ المخطوطات زائلة لا محالة، فقررت أن تبحث لابنها عن مستقبل أكثر استقرارًا، قال أبوها إنه يعرف رجلًا يعمل في ترسانة بولاق، وإن أعمالهم هذه الأيام في ازدياد، فقبله مرحبًا به ككاتب لديه، لكن حبيب هوت نفسه لارتياح السفن، وحين سمع أن ترسانة جديدة في الإسكندرية ستفتح أبوابها لقبول متدربين على الملاحة كتب طلبًا للالتحاق بها، ومرت شهور نسي فيها الأمر حتى فوجئ بمن ينبه عليه بضرورة الذهاب إليهم، ودعته حور العيون وجدّاه موسى وإسماعيل قائلين إن المال ليس كل شيء، وإن محبة العمل أفضل من العمل ذاته، فاحتضنهم مقبلًا الوجوه والرؤوس، متخذًا أول مركب في طريقه إلى الإسكندرية، حين وصل علم أنه سيكون جنديًا على سفينة في البحرية تحت قيادة رجل فرنسي يدعى سريزي، كان الباشا في المحروسة يحلم بجيش حديث، فأقنعه سليمان الفرنسي بأن لا جيش دون بحرية، وحين فشل في تدريب السودانيين وأبناء النوبة أقنع الباشا بالاعتماد على المصريين، ونشط الأخير في إقامة ترسانة بالإسكندرية وأخرى على رأس البحر الأحمر، ولم يمضِ على تدريب حبيب الله أكثر من شهرين حتى وجد نفسه يتعامل مع واحد من خمسة مدافع منصوبة على ظهر سفينة كبيرة في عرض البحر، فأرسل لأمه: «صرت أركب موج البحر الذي لم يمتطه أي من أجدادي».

لم تكن حور تعلم من أمر الجندية غير الممالك، ورغم أنهم كانوا السادة المتحكمين في البلاد إلا أنهم في النهاية كانوا عبيداً، فصكت صدرها: «ابن عطية الله وحور العيون عبد؟!»، حاول موسى وإسماعيل أن يهدئا من ثورتها، فأصرت على أن يأتيها بابنها، وكان عليهم أن ينتظروا إلى أن يجيء الرجل الذي ساعده في تقديم أوراقه للترسانة، فلما قال لهم إن الأمر ليس بيعاً ولا شراءً، لكنه وظيفة سيحصل من خلالها على راتب شهري، هدأت ثورتها، وطلبت منه أن يصطحبها إلى الترسانة لزيارته، لكن الحمى التي فاجأت موسى العطار جعلتها تنشغل بمرضه، ولم تمض أيام حتى جاءها خطاب من حبيب الله: «سأسافر إلى جزيرة المورة في اليونان مع جنود الباشا لتأديب الخارجين على السلطنة العلية»، يومها صكت صدرها وانهارت في البكاء ملازمة الفراش حزناً عليه، ولم تغادره إلا بعدما رأت العين الراعية وبصحبتها حبيب، كان كلاهما يمطتي جواداً أشهب في أرض واسعة خضراء، يتخطون بهما رقاب العباد، ويختلفون من بحر إلى صحراء إلى حدائق غناء، ظللاً يدوران وهما يتحاوران حتى طرقا الباب عليها، فانتبهت لتجد عمها إسماعيل يخبرها أن خطاباً جاءها من الترسانة، حين فتحت وجدته به مبلغاً من المال يكفيها لعام، فأسرّت في نفسها رؤياها ونهضت من حزنها تفتح محل والدها، ومن يومها لم تعد تبكيه ولا ينتابها القلق عليه، ولم تشك في رؤياها إلا حينما جاءها حبيب يحكي عن خسارة أسطول الباشا في حربه مع الفرنجة، وكيف رأى أصدقاءه يموتون ما بين الغرق والحرق في مراكبهم، كانت سفن الإنجليز تتكاثر عليهم وتضرب بمدافعها من كل جانب، حتى احترق الأسطول وغرقت كل سفنه، وأعلن الباشا استسلامه وقرر الفرنجة نقل

جنوده على سفنهم، قال إنه لم ينبُج من جند الباشا إلا القليل، ومَن نجا عاد بإصابات تحول بينه وبين العمل، قلة هي التي أظلتها رعاية السماء، لكنها لم تمنع عنهم الكوايس وصور الأصدقاء في لحظة الموت.

كان حبيب الله ينتفض وهو يحكي، ولم تُجدِ قصار السور التي تلاها إسماعيل على مسامعه، ولم تجدِ طاسة الخضة ولا حلقة الزار ولا زيارة الكنائس والأضرحة في شيء، وظلت أمه تجلس على الأرض بجانب سريريه باكية لما أصابه من هلع وجنون، حتى رأت جدّها في منامها يطارد بسيفه أشباحاً تحوم حول الدار، فلما انتهى منها جاءها مبتسماً يمسح على رأسها: «ابنك بخير يا حور»، فاستيقظت على يد حبيب وهو يربت كتفها: «ما الذي جعلك تتركين سريرك وتنامين هنا؟»، فانتفضت مقبلة وجهه ويديه. «كأنني رأيت جدك عبد الله»، أجابها: «وكأنني أيضاً»، ثم نهضاً يعدان طعاماً لجائعين من زمن طويل.

لم تمض أيام إجازته حتى ارتدى زيه البحري وسلّم على جدّه موسى وإسماعيل، ثم ركب السفينة المتجهة إلى الإسكندرية، وحين مات موسى أرسلت له بالحضور للعزاء، لكنه كان قد أصبح ضابطاً يعلم القادمين من قراهم البعيدة كيف يصوبون المدافع على سفن الأعداء، كانت تراه في أحلامها وهو يجوب البحر الكبير ذاهباً في اتجاه سلطان مرتعد، وسمعت أن الحرب بدأت بين الباشا والسلطان على أرض الشام، سمعت أن الفرنجة والإنجليز مرتعدون من طموح الباشا، وأنه لم يعد يفصل بين الأخير وبلاد السلطان غير جبل صغير، رأت حبيب الله في ظهر باشا كبير، رآته يأمر وينهى في جنوده على سفن كثيرة، وبإشارة منه

تدوي مدافع كالصواعق على الأسوار والحصون، وكلما سمعت أنباء نصر تذكرت حبيب وهو ينافس جده عبد الله بجواده متخطيًا رؤوس الخلائق، حتى أيقنت أنه لن يعود من ترحاله إلا باستعادة مُلك أجداده، وأن حبيبها سيكون بربروسا المهيب بلحيته الحمراء، إلا أنه لن يحمل في سفنه العائدين من الأندلس، لن يحمل غير الراغبين في الذهاب إلى بلادهم وبيوتهم التي ما زالت مفاتيحها معلقة في الأعناق، لكن الأيام لم تأت بـبشارة على تحقق أحلامها، فقد عادت الحرب بين الباشا والسلطان في الشام، وعاد حبيب الله يضرب ببوقات الأسطول الكبير في غزو واضح للأناضول، فنهضت سفن الروس والإنجليز والسويد تحاصر سفن الباشا في كل مكان، وتعطي إنذارات لها بالعودة من حيث أتت، رأت سفن الفرنجة رابضة أمام شواطئ الإسكندرية، وحبيب يرتعد من أن تحترق سفنه المشرعة في البحر، ويموت أصحابه على يديه، حبيب يرتعد من سفن صوبت مدافعها على أسوار الإسكندرية وراحت تعد الليالي للباشا العنيد في قصره، وإبراهيم يصرخ في أبيه: «دعني أجيئ لك بالسلطان المريض راکعًا على قدميه»، لكن الباشا ينهره: «بلادنا في قبضة المدافع، وملكنّا في مهب الريح»، رأت السفن تعود إلى ترساناتها، والجنود تنفض من على قطعها، وحبيب عالق في يد جده كطفل مرغم على أمر لا يريده، فتحت عينيها لتراه دون زيه العسكري في أحضانها حزينًا مهمومًا، حتى جاءه رسول من القلعة قائلاً إن الباشا تكرر عليه لمجهوداته في قيادة جند البحرية بجفلك بمئتي فدان بزمّام كفر الدوار.

أخذني فرناندو إلى ابن عمنا محمد بن عبو قائد جيش ابن أميه، كان يجلس في خيمة كبيرة وسط معسكره بطاعة أجاجير بالبشرات، كان قد نصب خارطة للأندلس بمقاطعاتها وجبالها ومدنها، ملونا ما بعدها بلون الصحراء والبحار الزرقاء، كان يشرح بسيفه لعدد من قواده خطته لتحرير ثلاث قرى على سواحل مالقة، حين لمحنا توقف عن حديثه مرحباً، ثم أذن لهم أن ينصرفوا قائلاً: «لا تقلقوا على السلاح فسوف يأتينا منه المزيد قريباً»، سأله فرناندو: «من أين؟»، أجابه أن هرناندو الحبقي أرسل خطاباً من الجزائر بأن الداي علي استحسن الأنباء التي حملها إليه، وأنه نشط في جمع المتطوعين الجزائريين للحاق بنا، وقريباً سترسو عشرة سفن محملة بالسلاح والرجال على شاطئ مالقة؛ لذا لا بد من تحرير قراها ضماناً لنزولهم بسلام. كان سيفه يتحرك على الخريطة المنصوبة وكأنه ما زال يشرح خطته، لكن فرناندو نبهه: «هل تعرف من هذا؟»، فتوقف الرجل وكأنه انتبه فجأة إلى أن قواده قد خرجوا: «الوجه ليس غريباً، لكنني لم ألقَ به

من قبل»، هكذا قال، فسأله فرناندو: «ألا يذكرك بأحد؟»، فتمعن الرجل في ملامحي: «لا أود أن أكون ظالمًا لنفسي، لكنني أراه أقربنا شبهًا بعمنا عبد الله بن جهور». فصرخ فيه: «إنه ولده محمد»، حينها سقط الوقار عن وجه ابن عبو، وألقى سيفه على الأرض محتضنًا إياي، شعرت من ضمته كم كان يجلُّ أبي، شعرت كم يدين له بفضل كبير، ورأى ذلك على وجهي فقال: «لم يكن مجرد عم، كان أبا لي وللجميع، ولولاه ما قامت البشرات»، ضحكت خجلًا وربما فخرًا أو تواضعًا، لكنني ضحكت، فنظر لي من جديد: «الآن تأكد لي أن عمنا ابن جهور ما زال حيًا». بعدها سألتني فرناندو: «ما الذي ستفعله؟»، ولم أكن أجيد الحرب ولا القتل فقلت: «لا أدري»، وضحك ابن عبو «ليست المشكلة في حمل السلاح، فسوف يدربك فرناندو عليه، لكن ما الذي تجيده أنت، فالحرب ليست دائمًا سلاحًا وقتالًا»، قلت: «أجيد الكتابة بالعربية والقشتالية وبعض التركية واللاتينية»، ورأيت عينه تنفتح دهشة: «وتجيد الحديث بها؟»، قلت: «نعم»، فاحتضنني كأنه وجد لقياء العظيمة، أضفت: «وأجيد الرسم والنحت وأفهم في بناء العمارة وتزيينها»، كان فرناندو يقف مشدوها مما يسمع، وكأنه يكتشف ابن عمه الذي حمّله والده على جواده منذ عشر سنوات إلى طليطلة، فسألني: «أين تعلمت كل ذلك؟»، أجبت: «في ورشة العم باديث بطليطلة، كنا نخط ونرسم وننسخ كتبًا بكل هذه اللغات، كنا نذهب لطلاء وتزيين القصور والكنائس والبيوت، ولعل العم باديث ينتظرني الآن». فجأة وجدت الرجلين يسقطان في ضحك

متواصل، فنظرت إليهما والدهشة تعلو ملامحي، لكن ابن عبو توقف احترامًا لمشاعري، ثم وضع يده على كتفي قائلاً: «هل تترك مملكة بني أمية لتذهب فتزين قصور وكنائس طليطلة؟»، كان السؤال مباغتًا، ولم يكن في خطتي ترك العم باديث ولا التخلي عن أرملة ابنه، وربما كان وجهها الجميل هو الذي يحثني كل لحظة على العودة، حين طال صمتي ابتسم فرناندو: «لنعرف رأي الأمير»، فنظر إليّ ابن عبو: «لو أن أهلك بحاجة إليك في مواجهة أعدائهم فهل تتركهم من أجل الرسم والنحت وتزين الكنائس؟»، قلت: «لا»، قال: «السلطان بحاجة إلى كاتب موثوق به، فنحن نؤسس ملكًا تقوده العقول البصيرة، وإنني أراك واحدًا منها»، شعرت حينها بالخجل، ولم يكن أمامي غير البقاء بين أهل يؤسسون ملكهم الجديد.

خرجنا من عند ابن عبو بعدما جاءته البشري أن مراكب أهل الجزائر قد تحركت، قال لفرناندو: «لا بد أن تنتهي الليلة من أمر ملقة»، وأجابه بأنه ورجاله مستعدون، ثم تركني في خيمته وحدي دون أن يخبرني بما حدث لزهراء وحبابة، فقد أسهب في كلامه عن قيام الثورة، إذ أصر ابن أمية على بيعة عامة، طالبًا كل من رغبوا فيها لإعطائه العهد، لكن أبي نصحه أن ذلك صعب، وقد يشعر الإسبان أن أمرًا يدبر ضدهم، فاكثفوا بممثل عن كل عائلة، واجتمعوا في قرية برذناز بوادي الإقليم، خطب فيهم ابن أمية خطبة عما حلّ بالمسلمين وملكهم، وكيف أصبحوا من بعد عزّ أذلة، وكيف حرموا من امتلاك العبيد، وصاروا مستباحين



للعبودية في كل لحظة، مهددين بضياح أرضهم وأولادهم كما ضاع  
 آباؤهم، فكل ما يخص تراثهم يعاقبون عليه، فلغتهم وعاداتهم جرائم  
 يشردون بسببها، ودينهم هرطقة وكبيرة لا تغتفر، وحتى تنصّرهم لا يقبل  
 منهم، فلا هم مسلمون ولا مسيحيون، ولا هم بشر ولا حتى حيوان،  
 فهل يرضي ذلك أحدًا؟ أجابه الجميع: «لا»، صاح فيهم: «لذا وجبت  
 الثورة»، فلما هتف الناس باسمه انحنى لهم، ثم رسم خارطة الأندلس  
 على الأرض، واضعًا أربعة أعلام حولها: «هذه أرضنا، وهذه الأعلام  
 الخضراء أعلام عبد الرحمن الناصر، حيث بلغت الدولة في عهده أوج  
 اتساعها، وعهد عليّ أن أقودكم لهذه الحدود حتى ترفرف عليها أعلامنا  
 من جديد»، هتف الناس له، وأحضر والذي كرسيًا أجلسه عليه قائلاً:  
 «وأنا أخلع ما في عنقي كقائد للثورة وأبايعك قائدًا عامًا لها وسلطانًا  
 علينا»، ثم خلع طوق ورد من عنقه وألبسه إياه مسلمًا عليه بالإمارة، فأقبل  
 الجميع يسلم عليه ويقبل يديه بالبيعة، بعدها عين ابن أمية أبي وزيرًا له،  
 وفرج بن فرج قائدًا للجيش، وشعبان ميكيل دي غرناطة رئيسًا لوادي  
 الإقليم، وماركوس الزمار قائدًا لقولجر، وماتيو الرامي قائدًا على المرية،  
 وفرناندو الغري قائدًا لوادي المنصورة، وفرانسيسكو بوركرير بن مكنون  
 قائدًا للمنطقة الشرقية، وجرنيمو بن المليح قائدًا لوادي آش، ومارتين  
 دي عذرا قائدًا للمنطقة عذرة، واختار الرنداتي والناقص والأرشدوني  
 مستشارين عسكريين له، ثم جلس موضعا خطته للتخلص من الإسبان،  
 قال إن أفضل وقت للخروج هو ليلة رأس السنة، ففيه ينشغل النصارى  
 عن أنفسهم، وفي فصل الشتاء تنزل الثلوج فلا يعرفون أين يذهبون، بينما

نحن نعرف أرضنا أكثر مما نعرف أبناءنا، نعرف مخارجها ومدخلها، كهوفها وممراتها، فلم لا نجهز عليهم في هذه الليلة ونخلص بالبشرات لأنفسنا؟

حينها سأله ابن فرج: «وماذا عن غرناطة التي إن فزنا بها فقد أسقطناهم إلى الأبد؟»، قال ابن أمية إنها تحتاج إلى أربعة فرق، وأزياء جند من جيش المغاربة وبني عثمان، ففغر الجميع أفواههم، لكنه لم يتوقف عن الشرح: «تخليلوا لو أن البرطال والناقص خرجا بمن معهما من المنفيين خارج غرناطة، فتوجهوا من وادي آش إلى قصر الحمراء فتسلقوا أسواره من جهة جنة العريف فاحتلوه، بينما وزع فرج بن فرج رجاله وناسه في حي البيازين على فرق ثلاث، الأولى تحمل علماً أحمر، تتجه به من باب فج اللوزة إلى المستشفى الملكي، ومنه إلى باب البيرة حيث محكمة التفتيش، فيحررون مَنْ فيها من أهلنا، بينما تتجه الأخرى بعلم أصفر إلى ساحة باب البنود لتحرير مَنْ في السجن العام، والثالثة تخرج بعلم أزرق إلى وادي آش حيث بيت الرئيس ديسا فتقضي عليه، ثم تعود هذه الفرق لتتظاهر في ساحة باب الرملة بوسط المدينة، ويفاجأ الناس بانضمام ثمانية آلاف رجل إليهم، قادمين من مرج غرناطة ووادي الإقليم بملابس جند بني عثمان والمغاربة، فهل يملك ملك إسبانيا فيليبي الثاني حينئذ سوى التسليم بالأمر؟».

كان فرناندو سعيداً وهو يحكي تفاصيل خطة ابن أمية لتحرير غرناطة، لكن سوء تدبير فرج بن فرج جعلهم يخسرون المدينة، فقد شك الإسبان

في أن شيئاً يحاك لهم من خلفهم، فزادوا في الحراسة وأرسلوا بجنودهم إلى البشرات، ولم يكن أمام والدي سوى أن يتحدث مع الرئيس ديسا، فذهب إليه قائلاً: «إنكم تعطلون مصالح الناس من أجل وساوس لا أساس لها، فكل ما يشاع عن هذه الثورة محض افتراء من قساوسة يريدون معاقبة الموريسكيين على جرم لم يرتكبه»، وتأكيداً منه على صدق كلامه قال: «وإن أردت تثبتاً من صدق نيتنا فخذ من تريد رهينة حتى الموعد المزعوم، لكن لا ترهبوا الناس ولا تعطلوا الأحوال»، فافتتح ديسا بحديثه، وأمر قائد جيشه المركزي دي مندوجر برفع يده عن البشرات، غير أن الأخير أمر باعتقال مئة وخمسين رجلاً جلهم من الأثرياء قائلاً: «سنحتفل جميعاً بليلة عيد الميلاد»، وأسقط في يد الجميع، إلا أنهم قالوا لأنفسهم: «حالما تنجح خطة ابن أمية سنعود جميعاً إلى البيوت»، لكن المشيئة أرادت نقيض ذلك، فقبل الموعد المحدد بأسبوع خرجت قوة إسبانية في طريقها لوادي آش استعداداً لاحتفال رأس السنة، واعتادت هذه القوات في طريقها أن تأخذ من الموريسكيين ما تشاء قوة وغضباً، فلما فعلوا ذلك في هذا العام عارضهم الناس، وشعر الجند بالإهانة فبطشوا بهم، معملين السلاح فيهم، حتى فروا من أمامهم مستنجدين بالمنفيين خارج غرناطة، فنزل إليهم البرطال والناقص برجالهما عند بلدة قديار، فقتلوا الجند وأخذوا منهم السلاح، واعتبر الناس ذلك بداية الثورة، فخرجوا على الإسبان في قراهم، وخرج قادة المناطق بحسب الخطة الموضوعة على الحاميات التي في مناطقهم، وأعطى ابن فرج أوامره لرجاله بالخروج، لكن الثلوج هطلت في هذه الليلة بغزارة حتى

سدت الطريق من وادي آش إلى غرناطة، ولم يتجمع لابن فرج سوى مئة وسبعين رجلاً توجه بهم إلى البيازين منادياً في الناس بالخروج، إلا أنهم حين رأوا قلة من معه رفضوا الخروج، ولم يستطع ابن فرج دخول المدينة لفتح السجون، ولا الذهاب لقتل الرئيس ديسا، ولم تظهر الأعلام الحمراء ولا الزرقاء أو الصفراء، ولم يرَ الناس حتى زياً واحداً مغاربياً أو تركياً.

كان حكي فرناندو قد أشعرنى باليأس والفشل، وشعرت أن الأمر قد ضاع، فقلت: «كيف فعلتم ذلك إذًا؟»، قال: «إنها الحياة، يوم لك ويوم عليك، ففي هذا اليوم استطاع ابن أمية أن يتسلل هارباً من غرناطة إلى البشرات، تاركاً شقيقه وأخيه وأمه وأباه، وفي الصباح وصل ما وعد به الجزائريون والدك، فقد رست سفنهم على سواحل ألمرية ومربلة معبأة بالسلاح، لكنها لم تأت بالرجال، وجاءتنا الأنباء أن قادة المناطق نجحوا فيما اتفق عليه، وأضحت البشرات وأجوارها لنا، واشتعل غيظ الإسبان فراحوا يقتلون كل موريسكي يروونه أمامهم، حتى حفر الناس لأنفسهم الخنادق ليختفوا فيها، وخرج المركز مندوجر بجيشه لمهاجمة البشرات من جهة غرناطة، بينما أرسل فيليبي الثاني لقائد منطقة مارسية المركز دي بلش كي يخرج بجيشه علينا من جهة الشرق، فانقطعت الصلة بين ثوار المنصورة وألمرية وبين البشرات، وصرنا نحارب جيشين منظمين في وقت واحد، حتى فقدنا الكثير من قوادنا وهم يدافعون عن قراهم وأهليهم، فشعبان ميكيل أخذ بالقوة القليلة التي معه في الدفاع عن وادي

أش بكل شجاعة إلى أن شنت جيش مندوجر عند جسر طبلانة، لكن الأخير جمع قواته من جديد وكرَّ عليه مضيّقًا، حتى حاصره وقتله هو وابنتيه ووالده ممثلاً بجثثهم، ثم أمر بذبح كل مَنْ كان معه، وسبي كل مَنْ وجدوه من النساء أو الشيوخ في البيوت، مات شعبان وغيره كثيرون رجالاً في أماكنهم، بينما لم يستطع صهر ابن أمية الصمود أمام مندوجر، فتحصَّن بقرية جبيلش وأرسل له طالبًا العفو مقابل تسليمها له، لكن مندوجر الذي ارتاب فيه لم يستجب لطلبه قبل أن يسأل الملك، مكتفيًا بقتل ثلاثة آلاف شخص كان قد أسرهم في طريقه لجبيلش، ومرسلًا لابن أمية يأمره بالاستسلام مقابل العفو عن المورييسكيين، فرفض السلطان معتصماً بجبال أجاجير، مدافعاً عنها هو ومَنْ معه من القادة، فقتل في هذه الواقعة ماركوس الزمار وابنتاه، وسيق الباقون أسرى لِيُذبحوا في غرناطة أو يباعوا في أسواق العبيد بقشتالة، وحين علم مندوجر أن السلطان يبيت لدى ابن عبو في بلدة مشينة، سحب جيشه وهاجم القرية من كل جانب، غير أنه حين دخلها لم يجد لا السلطان ولا ابن عبو، فلم يكن أمامه غير إعمال السيوف في رقاب وصدور كل مَنْ وجدته أمامه، ولم يكن المراكز دي بلش أقل قسوة منه، ولم يكن رجالنا أقل شجاعة من شعبان ميكيل وماركوس الزمار، فقد التقاه فرناندو الغرمي في الجهة الشرقية فكبّده خسائر فادحة حتى فرَّ من أمامه، لكنه عاد فنظم جيشه واشتبك معه عند قرية أندرش، وكاد ينتهي أمر الغرمي ومَنْ معه في هذا اليوم ببلدة فيلش، لولا ابن مكنون الذي تحرك برجاله للسيطرة على ألمرية، فلما سمع

بهذا دي بلش خشى على المرية وأجوارها، فترك الغرمي وعاد مسرعاً للدفاع عنها، مخلفاً ألفين من القتلى، كان أغلبهم من النساء والأطفال والسيوخ، فقد كان يقتل ويحرق كل من يجده أمامه، رافضاً فكرة السبي التي قد تعطل الجيش أو تضعف الوقت».

تنهد فرناندو وقتها وشعرت أنه تذكر أمراً خاصاً، ربما كان سبي حباة أو مقتلها، قال: «كنا نحارب جيشين منظمين لدولة كبيرة، ولم نكن نملك غير العصي والأسلحة القديمة، وكانت الحرب على أرضنا، وأي خطأ أو صواب كان على جثة أهلنا وذوينا، فقدنا الكثيرين، فقدنا الزهراء وأخي الصغير وحبابة»، حين نطق باسمها بكى، فسأله ما الذي حدث لها، تنهد قائلاً: «هذا أمر سأحكيه لك فيما بعد، لكن دعني أوضح كيف استطاع والدك أن يجمع شتات الأمور، فقد أهمل فرج بن فرج نصره رجالنا في الأودية والأقاليم التي نسيطر عليها، وراح يقوم دون الرجوع للسلطان أو غيره بغزوات على شواطئ بيرة شمال شرقي المرية وجبل طارق، كان هدفه أن يخلق مكاناً يمكنه الاتصال منه بالمغرب، لكن منطقته كان مقلوباً، فالحفاظ على ما نسيطر عليه كان خيراً من السعي للسيطرة على أماكن ستكبدنا الكثير، ولن نجني منها شيئاً، فسبته وطنجة محتلتين من قبل الإسبان، ولن يملك سلطان المغرب أن يمدنا منهما بشيء إلا بعد تحريرهما، فغضب عليه ابن أمية مذكراً إياه بسوء تديره في البيازين، وكيف خدعه الناس وتخاذلوا عنه فضاعت منا غرناطة وظل أهلنا رهائن لديهم، وفي ثورة غضبه قال له: «من اليوم لن تتحمل مسؤولية الجيش»، فرد ابن فرج: «إذن فاجعل عجزاً في الخامسة والثمانين يتحمل

مُسئولِيته». ولم يكن في الاجتماع غير والدك، فنظر إليه ابن أمية وقال متحدّياً: «من اليوم هو قائد الجيش»، ثم نادى على كاتبه وأصدر قراره بعزل ابن فرج وتولية والدك مكانه، يومها شعرنا جميعاً بالقلق، فكلنا يعرف أن ابن فرج مقاتل شرس، لكننا لا نعرف ما الذي سيفعله رجل مشرف على التسعين من عمره، وزاد الأمر سوءاً أن عمي اعتكف في خيمته فلا يخرج ولا يدخل عليه أحد، وظل ساكناً لا يصدر أمراً واحداً لثلاثة أيام، حتى ظن الناس أن الأمر أسند لغير أهله، وراحوا يراجعون السلطان في قراره، لكن والدك فاجأ الجميع، فقد جمعنا ونصب خارطته أمامنا شارحاً كيف يتحرك جيشا الإسبان كشقي رحى حول البشرات من الشرق والغرب، موضّحاً أننا نقوم بحروب كر وفر، وليس لدينا جيش منظم، ولا أنسى جملته: المشكلة أننا نحاربهم على أرضنا، وكل خطأ أو صواب يبدو كما لو أننا خسرنا كل شيء؛ لأنه يثير الرعب في النفوس، ويضعف العزائم، ويجعل الراغبين في الثورة يؤثرون السلامة؛ لذا ليس أمامنا سوى أن نغير من طريقتنا في الحرب. يومها طلب من قادة المناطق أن يجمع كل منهم خمسة آلاف رجل يزحف بهم كجيش على غرناطة، وأخذ يرسل لمن في غرناطة بهذا الأمر كي يستعدوا، ولا نعرف هل كان ذلك خطة منه أم أنها المصادفات، فقد بدأ الرئيس ديسا يرتعد، وأصدر أوامره للماركيث دي مندوجر بالعودة للدفاع عن المدينة، فخف الضغط عن غرب البشرات، وتحت ضغط الخوف ارتكب مندوجر خطيئة كبرى، فقد أمر بقتل كل الذين أخذهم رهائن لديه كي لا تقوم الثورة، فأثار ذلك غضب الناس في كل مكان، حينها قسّم والدك جيشه إلى ثلاث فرق، وراح يهاجم بكل ضراوة جنود دي بالش، كانوا

رغم كثرة أعدادهم يتفرون أمامه ويقعون في الكمائن التي أعدها لهم، لم يكن والدك يرغب في احتلال أرض ولا الحفاظ على مكان، فقط كان هدفه تشتيت شملهم، وإبراز أننا قادرون على الرد في كل مكان، يومها دخل فرج بن فرج على والدك قائلاً: كأنني أتعلم منك، وظننا أن والدك سيحرص على استبعاده، لكنه قام واحتضنه قائلاً: نحن جميعاً رجل واحد، نحارب عدوً واحداً، هكذا قال يومها، وهكذا أخضع ابن فرج وجعله يحارب كما لم يحارب من قبل، حتى إنه كسر بفرقة صغيرة جيش المركز دي بالش، وطارده حتى ألمرية من مكان إلى مكان.

كانت الأخبار قد وصلت بانتصارات ابن أمية لملك إسبانيا فيليب الثاني، فانتفض من على كرسيه ممزقاً الرسالة التي في يده: سأحاربه بنفسي. هكذا صرخ فيمن حوله، لكن مستشاريه رفضوا أن يخرج على رأس الجيش، قائلين إن البشرات جبال وعرة، والمورييسكيين شياطين تهيم في الجبال، ويمكنك أن ترسل أخاك غير الشقيق خوان على رأس الجيش، فإن انتصر فقد انتصرت، وإن انهزم فيمكنك تدبير الأمور، فراجع فيليب الثاني وأصدر قراره بتولية أخيه قائداً عاماً على جيوشه في غرناطة، فاستقبله الرئيس ديسا على أبوابها بالأطفال والأرامل قائلاً: هذا ما حصدناه من صمتنا على المورييسكيين. لكنهم ما إن عقدوا مجلس حربهم حتى اختلفوا ما بين أن يكملوا الحرب أو يطلبوا الهدنة، وكان دي بالش أكثر الراغبين في الأخيرة، قال إن الأرض أرضهم، وإنهم ذوو طريقة غريبة في الحرب، فهم أقرب إلى الموت منهم إلى الحياة، ولا قبل لنا بحرب مفتوحة معهم. لكن ديسا الذي لم يخض حرباً من قبل طالب



بتهجير أهل البيازين وكل مَنْ في غرناطة من الموريسكيين: وجودهم خطر، وابن أمية يتحين الفرصة لدخولها، ولن نأمن على أنفسنا والأفاعي تفتح تحت جلدنا. بهذه الكلمات التي نقلتها عيوننا اختتم خطبته العظيمة ماسحًا الدموع عن مقلتيه، غير أن خوان لم يأخذ برأي هذا ولا ذاك، وأرسل إلى أخيه في مجريط أن يأتيه بآلاف الرجال، فناشد فيليبي البابا في روما كي يعلن الجهاد المقدس، وراحت الخطب النارية للقساوسة تلقى على الرؤوس في كل مكان، مرسله بطلب النجدة إلى ملوك فرنسا وإيطاليا وألمانيا الذين جهزوا لفيليب آلاف المرتزقة كي يدفع بهم لأخيه في غرناطة.

لا نعرف من أين أتت لوالدك كل هذه الحنكة في إدارة الحرب، مستفيدًا من كثرة الإسبان التي أربكتهم، ومن غضب أهلنا في غرناطة، ومرسلًا للداي علي بالجزائر أن يمدّه بالرجال والسلاح، وإلى السلطان عبد الغالب السعدي طالبًا المدد، لكن السعدي كعهدها به كان حسن اللسان قليل الأفعال، فنزل عبد الله بن جهور ذو الخمسة والثمانين عامًا بنفسه ليجمع المتطوعين من القرى، عرف كيف يحرك الصخر في القلوب حتى جمع جيشًا قسّمه إلى فرق وجيوش أصغر، محدّدًا لكل منها قائدًا ومهامًا، غير راغب في حروب القرى، ساعيًا بكل الحيل لجزّ الإسبان بعيدًا عنها، معدًّا لهم الكمائن في الجبال والممرات، وفي كل مواجهة كانوا يخسرون، وكنا نربح أسرى وسلاحًا وقوة روح ومتطوعين وثوارًا، فانضمت لنا مارسية وألمرية وجبال طوميز ورندة والحانة ومالقة، وسيطرنّا على المنصورة وواديها، وأخذنا منهم صيرون، وهزّمتنا

جيشًا كبيرًا دفعه خوان بقيادة حاكم بسطة، فأخذنا منه حصون أرية وبيرة وأرجبة، لكن سهمًا غادرًا فاجأنا جميعًا وأصاب والدك، سهمًا من بيننا لم نعرف صاحبه، ولم نرغب في تفرقة مَنْ جمعهم بنفسه من قراهم بتخويننا لهم، فكفكفنا دموعنا، وعدنا نبحت عن قائد جديد للجيش، وكنا نظنه سيكون فرج بن فرج، لكننا وجدنا السلطان ابن أمية يصدر قراره بأن يكون محمد بن عبو هو القائد من بعد والدك.

فوجئ مراد باتصال في العاشرة صباحًا، لم يكن يصحو إلا على الثانية عشرة أو الواحدة ظهرًا، فهو لا عمل له إلا تفقد الأحداث عبر النت وقنوات التلفزيون وميدان التحرير، وفي النهاية يكتب تقريره اليومي وما يجول في ذهنه من خواطر أو هواجس، ثم يرق كل ذلك بالصور ويرسله إلى راشيل، في هذا اليوم أخذ الاتصال يتوالى من رقم مجهول، وكلما أغلق الخط عاد من جديد نفس الرقم للاتصال، حين أمسك الهاتف بحقن مقررًا لعن المتصل أيًا كان فوجئ بصوت راشيل، قالت إنها في مصر وتريد رؤيته، نهض من سريره وارتدى ملابسه وذهب يبحث عنها في بهو الفندق الكبير، لم تمض لحظات حتى وجد رجل الأمن يخبره أنها تنتظره في المطعم على النيل، وأشار بإصبعه نحو فتاة ذات شعر أسود وبشرة بيضاء وتفاصيل وجه متناغمة، رحبت به ثم انشغلت بمحادثة أغلقت بعدها الهاتف تمامًا، سألتها: «منذ متى؟»، قالت: «كان عليّ أن أنتهي من بعض الأعمال قبل أن نلتقي».

نظر بعينه فرأى أنهما يجلسان في عمق النيل، بينما المياه تكاد تجري من تحتهما، سحره المشهد الذي لم يره من قبل، علقت راشيل على دهشته: «لدينا مفاتن ولا نستمتع بها». أشعرته كلماتها أنها واحدة من أبناء المحروسة، وظل للحظات يحاول أن يخفي غضبه من عدم اتصالها به فور وصولها القاهرة، وجعلها حديثها العملي تبدو في نظره كآلة لا تعرف المشاعر، حين سألتها عما جرى بينه وبين أستاذ التاريخ ألقى بنظره إلى الأرض قائلاً: «أكاد أعترف أنني مصاب بالتهیؤات»، حينها أطلقت ضحكة أنثوية رائعة، فنظر إليها مندهشاً، هي بدورها شعرت بالحرج وتشاغلت بالبحث في حقيقتها عن وردة بنفسيج قائلة: «لا أعتقد أن الأمر هذيان أو تهیؤات، لكنه بالفعل ليس رئيس الدار، فمثل هذه المؤسسات لا يحكمها موظف حتى وإن كان في الواجهة بدرجة نائب وزير، ولو أنك فكرت قليلاً لعلمت أنه رجل أمن، وأنتك الذي أعطيته طرف الخيط بيدك على سلم دار الكتب»، بدا أن مراد نفسه لم يكن راغباً في الخروج من وهم المرض الذي استراح إليه، فراح يؤكد لنفسه سائلاً: «فمن أين علم أن اسمك راشيل لويس بلاس إنفانتي»، رنت من جديد ضحكة أنثوية على المنضدة التي خلفه، فألقى بنظره ليرى فتاة في العشرين مسترخية لهماست عجوز يدغدغ أذنيها، نبهته راشيل بطريقة من أصابعها: «مواقع التواصل الاجتماعي لعبة كبرى في يد رجال الأمن، وشركات الاتصال ليست بعيدة عن أيديهم».

كانت كلماتها مرتبة ومنطقية إلى درجة أربكته: «على أية حال لم أعد أريد الوقف ولا غيره»، هذه المرة رنت ضحكتها هي، وامتدت يدها بمجلة بها صور للوكالة التي تعمل بها: «مؤسسة كبرى»، هكذا قالت وهي تشير إلى الصور، موضحة أنها ناضلت حتى أقنعتهم هناك بفتح مكتب في القاهرة، ولاح في ذهنه ما يجري من أحداث في مصر وتونس وليبيا والأردن والبحرين واليمن، فابتسم دون أن يعلّق، هي بدورها لم تعلق على ابتسامته ودخلت فيما أرادته: «لقد رشحتك لإدارة المكتب»، فتحولت ابتسامته إلى مزيج من الاستنكار والدهشة والفرح، قال إنه لا يحمل كارنيه النقابة، «لقد تدبرنا الأمر»، هكذا ردت وهي ترسم ابتسامة عريضة على وجهها، فراوغها من جديد: «لست صحفيًا وأنا آخر مَنْ يمكنك الاعتماد عليه»، حينها ألقت إليه المفاجأة الأخيرة: «سنكون معًا في مكتب واحد، أنت المدير وأنا المدير التنفيذي، فرصة لنبقى أكبر وقت معًا»، جاءت جملتها الأخيرة مشمولة بغمزة عين واضحة، فلم يجد أمامه سوى الخجل، ولم يعرف بمّ يجيبها، هي أيضًا لم تنتظر ردًا، ووضعت يدها في حقيبتها لتخرج رزمة أوراق خضراء: «عليك أن تتعامل مع نفسك كمدير لمكتب وكالة كبرى».

كانت هذه أول مرة يتقاضى فيها مبلغًا ماليًا كبيرًا، حينها شعر بالخوف وضرورة العودة بأسرع ما يمكن إلى البيت، حين وصل أغلق على نفسه غرفته محاولاً تهدئة توتره، بعدها قرر أن يشاهد فيلمًا يشغله عن التفكير فيما ينبغي عليه، لا يعرف كيف اشتتّت الجدة رائحته فخرجت من

غرفتها لتجلس بجانبه كقط أليف، وما إن ظهرت شخصية رجل قعيد على الشاشة حتى قالت: «هذا الرجل يذكرني بجذك حبيب»، لم يستطع أن يفصل نفسه عن حديثها، فهي لم تر يوماً حبيب الله، وهو لم يسمع يوماً أنه كان مقعداً، فنظر إليها وقد ارتسمت على ملامحه الدهشة، فابتسمت: «هو لم يكن مقعداً لكنه كان مصاباً بالجذام، وضعت زوجته وأبناؤه في غرفة أعلى البيت، وجعلوا له فيها صنوبراً ومرحاضاً، ونافذة صغيرة يلقون منها إليه بالطعام، فعاش سنوات لا يقترب منه أحد، ولا يرى وجه أحد، حتى سمّي بأبي جذام». جذبته الحكاية بعيداً عن الفيلم، فألقى بسمعه نحوها منتظراً أن تكمل، لكنها صمتت وشردت بذهنها كما لو أنها تتذكر الأحداث من بدئها: «حين تقاعد من البحرية منحه الباشا الكبير جفلاً بمئتي فدان على مقربة من كفر الدوار، فتزوج من درية ابنة عمه إبراهيم بن إسماعيل، وحملها في موكب كبير إلى هناك، حيث أقام قصرًا من ثلاثة أدوار، واستخدم محاسبًا وخولي أنفار، وانشغل بالزراعة وحفر الترع والقنوات عن بقية أهله، حينها كانت درية قد وضعت له ثلاثة أولاد وبنيتين، وقالت إنها تريد أن ترى أهلها، فركب جواده وحملهم في كارتة بصحبة اثنين من الخفر، غير أنه ضل الطريق إلى المحروسة، وبحث عمّن يدلّه في الظلام فلم يجد سوى رجل مسرع بجواده، فهمّ خلفه ينادي عليه، حين توقف له وجده ملثمًا فلم ير معالم وجهه، وحين سأله عن الطريق إلى المحروسة قال: سأدلك عليها على أن تجمع أهلك ليقيموا معك في أرضك بكفر الدوار. فتعجّب من طلبه، وسأله عمّن يكون ومن أين يعرف أهله، حينها التفت إليه قائلاً: أنا جذك

عبد الله بن جهور، واتبعتني كي أدلك على الطريق، فحمل زوجته وأولاده وخدمه وظل يسير على مسافة منه لا تطول ولا تقصر، لا صمت فيها ولا كلام، فقط همس ريح يحمل نواحا مكلوما في الثلث الأخير من الليل:

فَلَيْتَ تَسْمُنِي الْحَادِثَاتُ، فَقَدْ أَرَى لِلْجَفْنِ، فِي الْعَضْبِ الطَّرِيرِ، نَدْوَا  
وَلَيْتَ عَجِبْتُ لَأَنْ أَضَامَ، وَجْهَوْرُ نِعَمِ النَّصِيرِ، لَقَدْ رَأَيْتُ عَجَبَا

حين وصل حبيب إلى القاهرة، جمع أبناء جديده موسى وإسماعيل سائلا عن بقية الأهل، فقليل. منهم من هاجر ومنهم من قضى نحبه، قال: وكيف حال من بقي منهم، ضحك إبراهيم: بارت التجارة، وساءت الأحوال، وصرنا نجلس في البيت بالأيام من كثرة الديون، فربت حبيب كتفه قائلاً: لا عليكم، أريدكم أن تأتوا معي، هناك أرض تبحث عن زارعيها، وقصر ينتظر ساكنيه، وقد آن للموريسكيين أن يجتمع شملهم. فأخذ إبراهيم يطلب من أبنائه وأبناء عمه أن يتركوا بيوتهم وأعمالهم ويذهبوا مع حبيب الله، لكن أبنائه قالوا للناس إن زوج أختهم سيبدأ في تجارة كبيرة ويبحث عن شركاء له، وأخذوا يجمعون من الناس أموالاً على تجارة لا وجود لها، ولم يكن أبناء إسماعيل على علم بذلك، فقالوا لإبراهيم إنهم سينتظرون في محالهم إلى أن تتحسن الأحوال مع القناة التي أمر الخديو بحفرها، فأخذ سليمان بن إبراهيم يلح عليهم بترك ما لديهم والهجرة إلى كفر الدوار قائلاً: إذا كانت الحياة كما يقول حبيب

فنبقى معه، وإن كانت غير ذلك تركناه وعدنا لأعمالنا، فحملوا مفاتيح بيوتهم على صدورهم وفي ضفائر شعورهم وأبلغوا حبيب موافقتهم، حينها شعر الأخير أنه نفذ وصية جده، ومع شروق الشمس كان ركبهم قد عبر شبرا الخيمة، فأرسل الخفر الذين معه إلى عماله في كفر الدوار كي يجهزوا سكنى تليق بأهله، وإحضار عربتين أو ثلاث لحملهم، لكن الذين دفعوا أموالهم بالأمس لشراكة حبيب الله في تجارته وقفوا على أبواب الموريسكيين المغلقة، وتساءلوا فيما بينهم حتى تأكدوا أنهم وقعوا في شرك أعدده لهم أبناء إبراهيم، فنهضوا من فورهم إلى شيخ البلد صارخين، فما كان منه إلا أن أخذهم إلى حكمدار المحروسة، ذلك الذي أرسل ضابطاً بصحبة خمسة جنود في الطريق المؤدي من المحروسة إلى طنطا لإعادتهم، كان إبراهيم قد رأى أن أبناء معهم مال، وأنهم يفكرون في شراء أرض كأرض ابن عمهم، فلما سألهم من أين؟ قالوا أخذنا حقوقنا من الناس حيلة وذكاء، فتشاجر معهم وعلا صوتهم حتى أوقف حبيب عربته ليصلح بينهم، وما إن علم بما فعلوه حتى اغتم في نفسه؛ لأنهم استخدموا اسمه وضيعوا هيئته بين الناس، ولم يعبروا قليوب حتى كان عسكر الحكمدار قد لحقوا بهم، وما كانوا بحاجة للشجار أو الجدل بعدما أخبرهم حبيب الله باسمه ورتبته، وأخرج لهم صك الشكر من إبراهيم باشا على جهده في قيادة فيلق البحرية أثناء حروبه بالشام، وصك ملكيته لجفلك الممتي فدان من والده محمد علي، فأدى له الضابط التحية معترفاً: لكنني أنفذ الأمر. فغضب حبيب وصرخ



فيه: خذ هذا الصك وعد به إلى قائدك، قل له إن حكمدار البحرية حبيب الله عطية بن إبراهيم يبلغك أن أموال الناس عنده، فأخذ الصك وعاد بجنده.

كانت الرحلة قد توترت أجواؤها، وظلت درية تخفف عن زوجها وهو يقول: خسرت بسببهم سمعتي كقائد عظيم. حين وصلوا إلى طنطا كان مولد السيد البدوي لم يبقَ على ليلته الكبيرة غير يوم واحد، فأصروا على حضورها قائلين: إن غداً لناظره قريب، فاستأجر لهم حبيب خيمة أنزلهم فيها، وتركهم لينام في الكارثة بعيداً عن شجارهم، غير أنه رأى في منامه كأن أغراباً أغاروا على أرضه، فظل ليلته مستيقظاً لا ينام، وما إن ظهرت بشائر الصباح حتى جمع أهله ليخبرهم بما رأى، فقالوا: محض أحلام، لكنهم مع تعامد الشمس على الرؤوس جاءهم أحد الخفرين اللذين ذهباً بالأمس ليعدا مكاناً لإقامتهم، قائلاً إن الأعراب طردوا العبيد من الأرض، ووضعوا أيديهم عليها قائلين: هذه أرض آبائنا، وما انتزعها الباشا الكبير إلا غصباً ليعطيها لرجاله، حينها قال سليمان: «نستمع الليلة بالذكر وغداً نتدبر الأمر، فما حدث قد حدث»، وفي الصباح قال أبناء إسماعيل إنهم ليس عليهم ديون لأحد، ولم يكونوا راغبين في السفر، وبيوتهم وأعمالهم في المحروسة تنتظر عودتهم إليها، وعوّل حبيب على أبناء إبراهيم، لكنهم فاجأوه بأن ما معهم من مال يكفيهم لشراء أرض وبدء تجارة جديدة، وحين ألح عليهم بأن أرضه أوسع وقصره كبير وأعداءه لا ظهر لهم، قالوا ما أدرانا أنها خدعة، وأنك حملتنا كي تضحي

بنا من أجل مالك الملعون، وحسم سليمان الأمر قائلاً: اذهب ورجالك  
وإنا منتظرونك هنا، فإن استعدت الأرض ذهبنا معك. فما كان من حبيب  
الله إلا أن حمل أبنائه وتركهم باكيًا لائماً على جده الذي أرسله لأناس  
لا يستحقون أن يعفروا أي من خدمه قدمه من أجلهم، ولم يعرف أن  
حكمदार طنطا أرسل جنده في اليوم التالي ليجمع المتسكعين بجانب  
المسجد الأحمدي، فأخذوهم من بين من أخذوا، ولم يعلموا بمصيرهم  
حتى وجدوا أنفسهم في قطار طويل من البشر ذاهبين للسخرة في حفر  
القناة.

مضى يومان ولم يعد فرناندو، لكن السلطان وصلته أخبار استخلاص مالقة، ونزول سفن الجزائريين بها، شهدنا فرحًا كبيرًا في أجاجير بالخبر، وطلب السلطان من الشيخ لوبيز بن عدول أن يصلي بالناس صلاة الشكر، فجمع النساء في جانب والرجال في جانب وكَبَّرَ وابتهل حتى كَلَّتْ أقدام الناس من الوقوف على الحصا، ولم يكن لي أصدقاء أعرفهم كي أنخرط في حديث معهم، لكن الناس كلما علموا أنني محمد بن عبد الله بن جهور كلما تزايدوا عليّ بالسلام، حتى شعرت أن ابن عدول شملته الغيرة، فأخذني تحت إبطه قائلاً: «أين ضمن والدك بك علينا؟»، فقلت إن والدي لم يضمن على أحد، لكنه كان قد أرسلني للتعلم في طليطلة قبل أن تقوم الثورة، ولا أظنه كان يعلم أنها ستقوم كي يضمن بي على أحد. ضحك الرجل ضحكة خفيفة وهو يقول: «إنك فتى محظوظ، فأنت الآن في مقام أمير، والدك كان الوزير وقائد الثورة، وابن عمك قائد الجيش، ولا أستبعد أن السلطان سيضعك في منزلة أخيه»، فقلت: «وأين أخوه إذن؟»، قال: «إنه سجين في غرناطة، فقد قبض الإسبان عليه وعلى أبيه

وأمه وأختيه، وضعوهم في السجن فور علمهم أن أخاهم هو السلطان». قلت: «لعلنا نسمع قريبًا عنهم كل خير»، لكنه رد بملامح متجشمة: «لا أظن، فهم رهائن لدى الإسبان، وقد أضاع أبوك فرصة التفاوض عليهم»، هالني كلامه، وشعرت أن تحت الرماد نازًا، فسألته عما حدث، ردَّ وكأن الحزن يمزق كبده: «حين هزم رجالنا جيش حاكم بسطة وأسروه هو وزوجته وابنته، أمر والدك بقتله، ثم ما لبث أن نصح السلطان بالزواج من ابنته فاستجاب لنصحه، ولم يرسل للإسبان عارضا إخلاء سبيل عائلة السلطان مقابل إخلاء سبيل حاكم بسطة وأهله»، حين صاغ ابن عدول كلماته على هذا النحو شعرت أن القشرة الصلبة التي على جبال البشرات ليست سوى طبقة من جليد، وأنها مع سطوع أول شمس عليها ستذوب جارية معها كل شيء، عزفت عن الكلام مع الرجل وعدت إلى خيمتي ساهمًا حتى جاءني فرناندو، كان عائدًا من لدى ابن عبو منهكًا بعدما أطلععه على كل ما جرى في رحلته، فقد أمدنا الجزائريون بعشرين ألفًا من المتطوعين، جميعهم مزودون بالسلاح، وبعضهم لديه بنادق ذات تدريب خاص، فقذيفتها لا تحتاج إلى قوة في جذب الوتر لإطلاق السهم، لكنها تحتاج إلى دقة في النشان، قال إن البنادق متوفرة بكثرة لدى بني عثمان، ولديهم سلاح أقوى منه بكثير يسمونه المدفع، قذيفته تطيح بيت كامل، وقد دكَّ به محمد الفاتح حصون القسطنطينية، واجتاح مدن أوربًا حتى حدود روما، وحسم به سليم الأول حربه مع المماليك وأخذ منهم مصر، ولو أننا لدينا منه عشرة فقط لاجتحننا قشتالة نفسها.

في غمرة حماس فرناندو بأدوات الحرب الجديدة تذكرت ما قاله ابن عدول فسألته: «هل كان بإمكان أبي أن يفاوض الإسبان بحاكم بسطة وأهله في مقابل إخوة السلطان وأبويه؟»، وكأن ثعباناً لدغه فانتفض من مكانه: «مَن قال هذا؟»، لم أرِدْ أن أنثر بذور الخلاف بيدي فقلت: «سمعت بعض الصبية يهرفون بذلك». لكنه بغضب واضح قال: «دلني عليهم». ولم أستطع الحفاظ على هدوئي فصرخت فيه: «لا أعرفهم، ولو عرفتهم ما دلتك على أحد منهم، فلست جندياً لديك ولا قائدًا لاستطلاعك»، بدا من قسمات وجهه أنني قسوت عليه، فتراجع في ثورته ملطفاً الحديث: «يا بن عمي، أنت ما زلت حديث عهد بالمكان وما به من خلافات وإحن، هؤلاء يريدون أن ينشروا الفتنة، ووالدك لم يفعل كقائد عسكري غير ما هو جدير بالاحترام، نحن نموت بالآلاف كل يوم، فلم التفكير فيمن هم في غرناطة، ولم إثارة النفوس بأن السلطان افتدى أهله ولم يفتد الآخرين، ومَن قال إن الإسبان تعنيهم حياة حاكم بسطة وذويه، هم لا يريدون سوى الخلاص متاً، وعائلة السلطان ليست سوى شوكة يشهرونها في ظهره من حين لآخر، ومَن فتح هذا الباب ما يريد سوى أن يدخل ريح الشر على النفوس حتى إذا تمكنت عصفت بالجميع من على وجه الأرض».

كنت موقناً أن فرناندو صادق فيما يقول، فطيت خاطره وتركته يتسبح بالماء ورحت أنتسم الهواء خارج الخيمة، على البعد رأيت جماعة من العسكر بينهم نفر من قادتهم، لمحني من بينهم ابن عبو الذي

خرج عن الدائرة ونادى عليّ، هرولت إليه فسألني: «ألا تريد أن تلتقي السلطان محمد؟»، فرددت بحماس: «أنى لي ذلك؟»، فابتسم قائلاً: «ها هو أمامك». ما إن استدرت حتى رأيت رجلاً أقرب إلى الطول منه إلى القصر في زي عسكري تعلوه عباءة خضراء وقلنسوة خفيفة تشبه عمام أهل المغرب، وجدته يمد يده بالسلام، فمددت يدي مقبلاً إياها. فأعجبه السلام وخفة الانحناء فابتسم: «أنت محمد؟»، قلت: «نعم»، قال: «إن أباك ما زال يأتيني في منامي ليوصيني بك خيرًا، ولو لم تأتنا لأرسلنا في إحضارك مَنْ يقطع المسافة بين البشرات وطليلطة في يوم وليلة». للحظة شعرت أنني أذوب خجلًا أمام كلمات السلطان، وحاولت تجميع نفسي من شتاتها حتى قلت: «سمعت في طريقي إلى هنا الكثير من الخير عن ثورتكم، ورأيت النصارى يرتعدون من نجاحكم، حتى صاروا لا يخشون في أحلامهم إلا ظهوركم لهم». بعدها انتبه الجميع لما قلت فتجاوبوا مع ابتسامتي بالضحك. فقال السلطان: «أبنا ابن عبو أنك تتحدث عدة لغات، وأنت تتقن فنون العمارة والرسم، وأنتك ذو خط حسن»، قلت: «نعم»، قال: «فإني أريدك كاتبًا لي، فكاتبني لا يعرف من القشتالية ما يمكنه من النجاة بحياته»، كدت أطيّر من الفرح، ونسيت لحظتها طليلطة ومَنْ ينتظرونني بها، وجدنتني أقول: «إنني جندي من جنود مولاي». فنظر إليّ مبتسمًا: «كما لو أن عمّا عبد الله بن جهور بعث شابًا». ثم أردف: «أولم يكن وزيرًا في مثل سنك؟»، فهزرت رأسي: «بلى»، قال: «فادعُ الله أن يستتب أمرنا، وترسخ قواعد ملكنا، كي تكون وزيرًا لدولتنا، كما كان والدك وزيرًا لـالبنى الأحمر». ولم يفتح الله عليّ

بشيء ساعته، فوقفت متفكرًا ما بين الماضي الذي لم أراه، والحاضر الذي لم أشارك فيه. وأدرك من بريق عيني وحمرة وجهي ما جعله ينهي حديثه: «غداً أراك في مقر عملك الجديد».

كان لوقع الخبر على أذن فرناندو مفعول السحر، فقد أخذ يرقص في الخيمة كما لو أنه سيزف على عروس جديدة، أخذ يدلي على مسامعي حزمة من النصائح قائلاً: «من اليوم لا تختلط بأحد ولا تُبدِ رأيًا في شيء، فالناس ترى كل مقرب من السلطان كما لو أنه السلطان ذاته، وإن رأى شيئاً ظنوا أنه رؤية السلطان، من الغد تطلع على كل ما كتب من رسائل من قبل كي تعرف أساليبها وديباجاتها وتذكر تواريخها ووقائعها، ودائمًا ما تكون بينك وبين السلطان مسافة، فلا أنت قريب منه فيرتاب من تجسسك عليه، ولا أنت بعيد عنه فيظن إهمالك له، واحفظ أدواتك في مكان لا يعرفه سواك، فإن ضاع شيء منها فأخبر السلطان من فورك به، وإن سألك عن شيء فردك على قدر السؤال؛ لأن سوء المآل من فرط المقال».

ظل يوصيني ليلتها كأمر تحدثت ابتها ليلة الزفاف، حتى شعرت أنني لم أعد قادرًا على الانتباه، فرحت أغير مجرى الحديث سائلًا عن حباة وزهراء، طفا على وجهه الحزن، ولزم الصمت حتى ندمت أنني سألته، لكنه في النهاية قال: «لا بد أن تعرف، فهذا حقك»، ثم أغلق عينيه ليذرف دمعة سألت من تلقائها في كفه: «كان الإسبان قد اشتد أزرهم علينا، وفقدنا القدرة على التواصل بين الأقاليم، ولم يكن فرج بن فرج يعرف

أن عليه إدارة الحرب وليس العراك فيها، وكان والدك رئيسًا للوزارة وملازمًا للسلطان في كل خطواته، حين رأى دي مندوجر الفوضى تدب في خطوطنا، تحول من وادي الإقليم إلى أجاجير، مرسلًا بالوسائط لإقناع السلطان بتسليم نفسه مقابل العفو عن الجميع، شعر يومها والدك بأن الخطر أصبح قريبًا، وأنه يريد السلطان أكثر من غيره، فنصحه بترك خيمته والانتقال لمكان آمن، كان ابن عبو قد تولى قيادة حرس السلطان بعد ماركوس الزمار، فقال إنه بنى بيته كما بينى اللصوص بيوتهم في الجبال، وهو الآن آمن مكان، وأن أهله سيكتمون أمره، وأهل قريته سيدافعون عنه حتى آخر نفس لديهم. وأعجب والدك بالفكرة، وزيادة في الأمر أمر السلطان وحرسه أن يتواروا في زي النساء، وأمر النسوة أن يخرجن معهم في موكب للعزاء، وقادت حباية والزهراء وزوجة السلطان المسيرة بالصبية والأطفال من أجاجير إلى مشينة في منتصف الليل، لكننا لا نعرف من أين وصل الخبر إلى دي مندوجر، فسحب جيشه متوجهًا إلى مشينة، وكالعادة حرقوا البيوت وقتلوا كل من وجدوه أمامهم إلى أن وصلوا إلى بيت ابن عبو، ولما لم يجدوا غير النساء والأطفال أخذوا في أعمال السيوف فيهم حتى صرخت إحداهن: يا عبيد الصليب تقتلون الصبية ولا تحفظون عرض النساء، والله إن نعل ابن عبو لأحب إلى الله من وجوه السفاحين. وكان قائد هذه الفرقة من المدجنين، فأمر بوقف القتل وسبي الموجودات، ثم أخبر دي مندوجر بما قالت، مستتجًا أنها إما زوجة السلطان أو زوجة أي من مساعديه، فأمر مندوجر بتعذيبهن إلى أن يعترفن بمكان ابن أمية، ووضعوا لهن صلبانًا على الأشجار وأخذوا



في ضربهن، وكانت ريحانة حاملاً فلم تحتمل التعذيب، ونزفت حتى فارقت الحياة على صليبها، بينما أخذت زهراء والباقيات إلى سجن غرناطة لاستجوابهن، فلما رأى ديسا كثرة من في السجون خشى من ثورتهم، فسلسلهم في جماعات وأرسلهم إلى قشتالة لينظر فيليبى الثاني في أمرهم بنفسه».

بكيّت تجاوزاً مع فرناندو، رغم أنني لم تكن لديّ قدرة على البكاء، فتوقف عن بكائه وأخذ يواسيني: «إننا في ثورة، وكلنا رهن الموت، وما الموت بمحزن، لكن العذاب على وجه الأرض من أجل أن تحظى بهذا الموت لهو الأشد قسوة على القلب». نظرت إلى فرناندو ورأسه الذي بدأ يتلون بالشعر الأبيض مستبعداً أن تكون هذه كلماته، قلت لنفسى لعله سمعها من والدي، أو ربما ظهر له كي يرشده إلى الصواب مثلما ظهر لي، شعرت أن حزن فرناندو لم يكن على مقتل زوجته وضياع جنينهما فقط، وربما لأجل ما حدث مع زهراء في طريقها إلى قشتالة، حين سألته عن زوجة السلطان وابنهما، قال: «قُتلوا مع من قُتل»، مسحت عيني ونظرت إليه مندهشاً: «وكيف نجا السلطان وابن عبو؟»، لاح شيخ ابتسامة ضعيفة من بعيد في عينيه وهو يقول: «هذا الملعون ابن عبو لم يكن سوى قاطع طريق في يوم ما، بنى لنفسه بيتاً على ثقب يؤدي إلى مغارة في الجبل، يخرج منه ويدخل فيه دون أن يعلم به أحد، فلما هاجم الإسبان بيته أخذ السلطان من يده ودخلا الجبل، وظلا ثلاثة أيام مختفين حتى جلا الإسبان عن المكان، فخرج ليجد القرية تنتشر بها رائحة الجثث المتحللة، ولم يكن أمامه سوى أن يحضر الزيت ليرشه على البيوت والجثث مشعلاً النيران في كل شيء كي لا ينتشر الوباء بيننا».

رفض مراد العمل في وكالة لا يعرف الكثير عنها، قائلاً لنفسه إنه ليس في حاجة لتحمل مسئولية أكبر من قدراته، أو الدخول في أمور لا يعرفها. ومن ثم قرر أن يعود إلى نظامه القديم، حيث يستيقظ في الظهيرة ليتناول فطوره، ثم ينزل لارتشاف قهوته السادة على المقهى المجاور للبيت، لم يكن هذا المقهى أكثر من منضدة ودكة خشبية استأذن صاحبهما نور الصعيدي الجدر فيق في وضعهما بممر البيت كي يستريح عليهما العاملون في بناء مول على أرض الحديقة القديمة لبيت الموريسكي، مع اكتمال البناء تزايدت المناضد والكراسي التي يؤمها مختلف أنواع البشر، ولم يكن لمراد أو الجدة جنى أن يلغي أي منهما ما أذن به رفيق، حين جلس مراد في مكانه المعتاد وجد شخصاً يجلس قبالة على نفس المنضدة قائلاً: «أريدك»، رفع عينيه عن الجريدة فوجد نفسه أمام أستاذ التاريخ أو رئيس دار الكتب الذي ذهب إليه ولم يجده، وقبل أن يفتح فمه قال الرجل: «سأخبرك بكل شيء حين تلحق بي في ميدان التحرير»، بعدها نادى على عامل المقهى

وطلب منه شيشة تفاح أخذ يطلق منها عدة سحب دخانية متعجلة، ثم دفع حسابه وغاص بين البشر المتدققين في نهر الشارع الواسع، لا يعرف مراد ما الذي جعله يطيع تعليمات الرجل بكل هذه الدقة، فقد أنهى قهوته وترك المقهى متجهًا من فوره إلى الميدان، بالقرب من الكعكة الحجرية وجده ممسكًا لافتة تطالب بدماء الشهداء في ماسبيرو ومحمد محمود، وقبل أن يخرج ثورته المكبوتة وضع الرجل يده في جيبه مخرجًا رخصة عمله كمقدم في أحد الأجهزة الأمنية رفيعة المستوى، كانت عليها صورته واسمه ورتبته وخاتم النسر الكبير، فأعادها إليه متسائلًا: «ما الأمر؟»، وبصوت هادئ أجابه الرجل: «نريدك في مهمة»، نظر إليه مراد مندهشًا من الثقة التي يتحدث بها، لكن أستاذ التاريخ الذي يعمل رجلًا للأمن طرق على كتفه: «من الصعب الحديث أمام الناس، يمكنك أن تأخذ المترو إلى محطة سراي القبة، هناك ستجد حديقة صغيرة، انتظرنني في وسطها».

حين خرج مراد من محطة المترو وجد ممرًا على جانبيه عدد من الأكشاك في حديقة صغيرة، لا يعرف من أين ظهر له أستاذ التاريخ فاصطحبه إلى واحد منها قائلاً للواقف في الكشك: «سأقوم بعملك»، فرد عليه الأخير بتحية شبة عسكرية ثم اختفى بين العابرين في الممر، لم يكن هناك كراسي للجلوس عليها، فعدل المقدم من صندوق بيسي مشيرًا لمراد بالجلوس وهو يقول: «حمد الله على السلامة»، فرد الأخير بدهشة: «الله يسلمك»، لكن رجل الأمن أوضح: «على سلامة راشيل»،

وعملًا بمنطق الصدمة والرعب قرر المقدم أن يطرق الحديد وهو ساخن: «نحن على علم بكل شيء». غير أن مراد لم يفاجأ ولم يندهش، وربما شعر بارتياح كبير لطريقة اللعب على المكشوف، فرد بألية شديدة: «منذ متى؟»، وكأن الرجل قد أعجبته ثقة الموريسكي في نفسه، فقرر أن يكون على نفس الدرجة من الحياد: «منذ أعطيتني ملف الوقف على سلم الدار، لم يكن في ذهني شيء، لكنني حين طالعت ما فيه شعرت أن ثمة شيئًا ما خلفه، فقررت أن أعرف من أنت وما الذي تريده من البحث عن وقف مات منذ نحو مئتي عام، فرحت أتابع رسائلك واتصالاتك وحركاتك اليومية، وزادت الريبة لدينا بمجرد ظهور اسم راشيل في رسائلك، زادت الشكوك أكثر حين علمنا بمجيئها قبل سقوط النظام بأيام، استدعيناك عسى أن يكون لديك ما يفيد، غير أن الثورة حالت دون لقاءك، وحين جددنا لك اللقاء وجدتك مشغولًا بأهلك وما جرى لهم، وكدنا ننسى الأمر لولا أن راشيل فاجأنا من جديد بطلب ترخيص لمكتب وكالة إسبانية»، كان مراد ينصت وكأنه يتعلم كيف يعيد ترتيب الأوراق، موقفًا أن عليه إعطاء شيء في مقابل ما يأخذ، قال إن كل ما يعرفه عنها أنها موريسكية من أصول مغربية، وقد عرضت عليه مؤخرًا إدارة مكتب الوكالة بالقاهرة، لكنه حتى الآن غير متحمس للأمر طرق المقدم على ركبته: «لكننا نريدك أن توافق». حينها نظر مراد في عين محدثه بغضب، لكن الأخير قال: «هذه مهمة لا خيار لك فيها».

كان صاحب الكشك قد ظهر في الأفق فهمس المقدم في أذن مراد ضاحكًا: «مارأيك في زيارة لبيت جدك الملتزم؟!»، في البدء اعتبرها مراد

نوعاً من الإشارات السرية التي ينبغي عليه أن يفهمها من الآن، فنهض من مكانه كجندي يلبي أمر قائده، لكن رأسه ظل مشغولاً بالعديد من التساؤلات، وما إن استقلا التاكسي حتى سأل مرافقه ساخرًا من نفسه: «كيف أقنعني بأنك أستاذ للتاريخ؟»، فضحك المقدم: «لست أستاذًا للتاريخ لكنني حاصل على الدكتوراه فيه»، لكن مراد لم يصدق، وقرر أن يختبر محدثه سائلًا عن معركة الملوك الثلاثة، فابتسم المقدم في هدوء قائلاً: «إنها معركة فاصلة فيما يعرف بالتاريخ الوسيط والتاريخ الحديث، اسمها موقعة وداي المخازن، كان الإمبراطور سياستيان قد وصل إلى سدة الحكم في البرتغال، وداعبته الأحلام بأن يوسع حدود مملكته في إفريقيا، مستغلًا الخلاف الذي دبَّ بين السعديين في المغرب، فقد لجأ إليه ملكها السابق محمد المتوكل كي يساعده في مواجهة عميه عبد الملك وأحمد المنصور، فأمدّه بالسلاح والرجال حتى فرّا من أمامه مستنجدين بالخليفة العثماني، وكان الأخير يحلم أيضًا بضم المغرب إليه مثلما فعل في تونس والجزائر، فأمدّهما بخمسة آلاف من الترك ليعيدا الكرة على المتوكل منتزعين منه فاس التي حكمها المنصور، ومراكش التي حكمها عبد الملك، وكانت كل منهما مملكة وحدها، ولم يجد المتوكل أمام ملاحقتهم له سوى اللجوء إلى سبّة التي يحتلها الإسبان، ومنها فر إلى طنجة التي يحتلها البرتغال، مستنجدًا من جديد بسياستيان، هنالك رأى الأخير أن الأرض قد مهدت بما يكفي، ويمكنه الآن أن يضع يده على المغرب كاملاً، فجهز اثني عشر ألفاً من البرتغاليين، وأرسل للبابا

في روما طالبًا بركة النصر في حرب صليبية جديدة على الشرق، أرسل الأخير في ملوك أوربا كي يعاونوا سياستيان، فجاءه من الإيطاليين ثلاثة آلاف جندي، ومن الألمان مثلهم، ومن الإسبان عشرين ألفًا، فحملهم جميعًا ومعه كل أفراد أسرته ونبلاء بلاطه على ظهر ألف مركب أبحرت من لشبونة إلى لاكوس عام 1578، ثم مر بطنجة آخذًا المتوكل معه إلى أصيلة، ومرسلًا لعبد الملك السعدي في ملاقاته، فرد عليه الأخير: لقد أظهرت شجاعة فريدة بخروجك من بلادك إلى أرضنا، فإن ظلمت على ما أنت فيه فإنك نصراني شجاع، أما إن تراجع فإنك لا تريد على كونك كلبًا عوى ثم جرى. ثم تحرك عبد الملك بجيشه من مراكش إلى محلة القصر الكبير، مرسلًا لأخيه أن يلتقيه بجيشه هناك.

توقف المقدم عن حديثه لينظر مبتسمًا في عيني مراد، فتجاهل الأخير ابتسامته وأخذ يستحثه على الإكمال، فتنهد المقدم متطلعًا لواجهات المباني من النافذة المجاورة له ثم عاد يقول: «كانت البرتغال في ذلك الوقت أقدم الممالك الأوربية وأقواها، وكان جيشها في تلك المعركة أكثر من ثلاثين ألف مقاتل، بصحبتهم أربعون مدفعًا كبيرًا، بينما كانت دولة السعديين تعاني من الانقسام والحروب الداخلية، غير أن السعديين جمعوا عددًا مماثلًا لمقاتلي جيش سياستيان، كان من بينهم موريسكيون وأتراك وجزائريون وبرابرة ومغاربة، وفي صحبتهم ثلاثون مدفعًا كبيرًا، إلا أنهم كانوا أكثر معرفة بأرضهم، فلما وصل عبد الملك إلى محلة القصر الكبير أرسل لسياستيان: لقد قطعت لملاقاتك ست

عشرة مرحلة، فهلا قطعت لملاقاتي مرحلة واحدة؟ ورغم أن المتوكل نصح سيباستيان ألا يترك أصيلة الواقعة على البحر ليدخل بجيشه في البر قاصداً محلة القصر، إلا أن إمبراطور البرتغال غرّه ما معه من قوات فقرر الذهاب إلى محلة القصر، ولم يكن من سبيل للوصول إليها غير جسر صغير على نهر يدعى وادي المخازن، فعبره معسكرًا بجيشه في مواجهة جيش عبد الملك وأخيه، فلما جنَّ الليل قام المغاربة بنسف الجسر من خلفهم بمدافعهم، ثم ركب عبد الملك متغلبًا على مرضه في الصباح كي يستحث رجاله على القتال، بينما نهض القساوسة في جيش سيباستيان ليذكروا الجنود بأن البابا قد غفر للأرواح التي تزهق في الحروب المقدسة، وفي النهاية دوت الطلقات إيذاناً ببدء المعركة، فهجم عبد الملك بجيشه من الأمام، بعدها مال أحمد المنصور بمن معه على مؤخرة جيش البرتغال، مشعلًا النار في العربات الحاملة للبارود، فانفجرت مزهقة آلاف الأرواح ومربكة صفوف البرتغاليين، هنالك شن عبد الملك هجومه وقتل من البرتغاليين الكثير، حتى إن سيباستيان نفسه فقد الجنود المكلفين بحراسته، فلجأ إلى حقل تين شوكي كي يحتمي به، لكن المغاربة تبعوه وقتلوه، ثم رفعوا رأسه على الحراب إيذانًا بانتهاء المعركة، فلما رأى المتوكل ذلك فرَّ بجواده نحو الشمال، لكن جثته طفت بعد أيام على سطح نهر وادي المخازن، فأخذت وسلخت وملئت تبنًا، ثم طيف بها في أرجاء البلاد، أما عبد الملك فقد اشتد عليه المرض حتى توفي بعد أيام من نصره، تاركًا ملك فاس ومراكش لأخيه أحمد الذي تلقب بالمنصور، وسرعان ما وجّه جيوشه نحو مملكة سونغاي في

إفريقيا ليعود بقوافل محملة بالذهب منها، فأسماء الناس أحمد الذهبي، أما البرتغال فقد فقدت إمبراطورها وكل نبلائها وأفراد أسرتها الحاكمة، حتى إن فيليبي الرابع ملك إسبانيا بذل جهداً في الوصول إلى شخص ينتمي إلى هذه الأسرة كي يعينه إمبراطوراً للبرتغال، ويعلن دخولها في اتحاد مع إسبانيا تحت هيمنته، لتفقد البرتغال فيما بعد العديد من مستعمراتها وهيبتها في حروب إسبانيا مع الهولنديين فيما عرف بحرب السنوات الثماني، لكن الشعب البرتغالي لم يصدق كل ذلك، وظل ينتظر عودة إمبراطوره المنتصر كي يعيد للبلاد هيبتها واستقلالها، أما اليهود الذين وعد سياستيان بذبحهم أمام قصره حال ضمه المغرب إلى ملكه فقد جعلوا يوم وفاته عيداً لهم، أطلقوا عليه اسم: بوريم سياستيانو، يحتفلون فيه بنجاتهم من الذبح، مغلقين محالهم غير آكلين في هذا اليوم سوى الثين الشوكي، داعين في صلاتهم لسلطان المغرب، وناثرين القطع النقدية على الأرض ليلتقطها الأطفال كهدايا نزلت لهم من السماء.

حين وصلا إلى ميدان السيدة عائشة نزلا من التاكسي وأخذا يسيران في اتجاه معاكس لقلعة محمد على، وما لبثا أن اتجها يساراً ليجدا بيتاً بدا كما لو أنه حصن عظيم، له سور حجري يزيد ارتفاعه على خمسة أمتار، ونوافذه عالية وكبيرة تكاد أخشابها تتساقط من فعل الشمس والبرد بها، ظلا يسيران أمامه حتى وجدا لافتة كبيرة معلقة على بابهِ الصغير مكتوباً عليها: «وزارة الآثار - مشروع ترميم بيت الملتزم»، دام سيرهما أكثر من أربع أو خمس دقائق حتى نهاية السور الحجري، فوجدا مقهى صغيراً



كتب صاحبه بخط كوفي متآكل على واجهته: «مقهى الملتزم»، فجلسا  
يحتسيان الشاي ويتبادلان سحب الدخان والحديث عما جرى لأعقاب  
الموريسكيين في الأندلس.

منذ الصباح الباكر، ويبدو أنني لم أنم في انتظار هذا الصباح، ذهبت إلى خيمة السلطان، كان حرسه قد علموا بأمرى فأدخلوني من باب قصير يجعل المرء ينحني رغماً عنه، وجدت السلطان جالساً على أريكته كما لو أنه لم ينم، ألقيت عليه السلام فرد مقطباً: «اجلس واكتب مرسوماً بتولي حسين جودت قيادة المتطوعة من الجزائر والأتراك، على أن يكون تابعاً لقائد جيشنا محمد بن عبو في جميع ما يعمل». جلست وكتبت نسختين من المرسوم وذهبت إليه فأخرج خاتمه من ثقب في الأريكة ومهرهما به، ثم نادى على قائد حرسه فأعطاه إياهما: «تسلم واحدة إلى ابن عبو والثانية لقائد المتطوعة»، لم أعرف ما الذي ينبغي عليّ فعله بعد ذلك، فجلست في مكاني منتظراً أن يملي مراسيم أخرى، لكنه أخذ ينادي على قائد حرسه كي يحضر له فلاناً أو يرسل إلى فلان، رأيت في عيون القادة تذرهم من الانحناء أثناء الدخول والخروج، لم أسأله عن سبب ذلك، لكن ما إن التقيت فرناندو حتى همست له بملاحظتي، فأوضح أن ابن أمية رأى أن بعض القادة حدثتهم نفوسهم بالزهو والغرور بعد الانتصار على الإسبان، فقرر أن يكسر هذا الزهو بهذا الباب، فصرنا

ننحني في الدخول أو الخروج. قلت: «منذ متى ذلك؟»، وضع وجهه في الأرض: «منذ أن نال والدك الشهادة». ساد الصمت بيننا قبل أن يفاجئني. «لكن بعضهم يقول إن ابنة حاكم بسطة هي التي أشارت عليه بذلك كي ينحني الجند له كما كانوا ينحنون أمام أبيها». فاجتاحني العجب: «وما علاقتها؟»، فأوضح لي أن السلطان تزوجها بعدما أسلمت. وبدا لي أنه غير قادر على تبرير الأمر، لكنه خفض من صوته قائلاً: «لا تخبر السلطان بما تسمع، ولا تخبر أحداً بما تراه». ولم أستطع أن أستوعب فكرة عزل السلطان في خيمته على هذا النحو، فراح يوضح أن العلاقة بين السلطان ووالد زوجته الأولى ليست على ما يرام، وكلاهما يرتاب الآن في الآخر، فالسلطان لم ينسَ له تفاوضه على تسليم حبلش لينجو بنفسه، بينما القادة الذين لا تربطهم به أية علاقة قريبي لم يشنهم التمثيل بجثث أهليهم عن إكمال الجهاد ومواجهة الإسبان بشجاعة حتى ماتوا في أرض المعركة كما حدث لشعبان ميكيل. شعرت يومها أنني لم أعد محمد الذي بات في هذه الخيمة بالأمس، فقد راحت الأمور تنجلي أمامي أكثر، وصارت الحياة أكثر تعقيداً مما يمكن للمرء أن يتعاطف فيها مع أحد، وأيقنت أن الغليان الدائر أسفل البشرات أوشك على تفتيت قشرة الجليد التي نعيش عليها، لكنني أزحت كل ذلك عن رأسي منتهياً إلى أنني لا بد أن أخوض التجربة، ولا أنهزم من اللحظة الأولى، فأخون أهلي وتاريخ أبي.

لم تمض أيام حتى بدأ الأتراك والجزائريون يحتكون بحرس السلطان، وسرت همسات أن الأخير يرغب في الاستغناء عن بعض حرسه والاعتماد على الجزائريين، ولا أعرف من كان مصدر هذه الإشاعات، فالرجل لم

يُحذّر بذلك وربما لم يكن يعرف به من الأساس، في النهاية صدر قراره بأن يتوجه ابن عبو بقوة الأتراك والجزائريين إلى البنيول، وأن يربط هناك حتى تصله أوامره، ولم يبلغه بشيء عن خطته أو الهدف من الذهاب إلى هناك، ف شعر ابن عبو أن الهدف هو استبعاده عن دائرة اتخاذ القرار، وربما يصدر قريباً قرار بتنحيته عن قيادة الجيش، كانت هذه الفترة واحدة من الفترات القليلة التي تهدأ فيها الحروب، حتى إن الأخبار التي كانت تجيئنا من غرناطة كانت تتحدث عن شقاق وخلاف في مجلس الحرب الإسباني، وربما اقتنعوا بعدم قدرتهم على الحرب، لكن حدثاً خطيراً ومفاجئاً وقع، ولا نعرف من الذي تفتق ذهنه عنه، فقد بحث النصارى في أوراقهم الغائبة متذكّرين أنهم لم يقتلوا والدي السلطان وإخوته، فنقلوهم من السجن العام إلى سجن محاكم التفتيش، وأخذوا في الضغط عليهم ليكتبوا للسلطان بالاستسلام، ووجدنا والد زوجة السلطان الأولى يأتيه بالخبر، ولم تمضِ ساعات حتى وجدنا رسالة من والده يستعطفه فيها أن يرحم شبيبته وعرض أمه وأخته، وأن يتفاوض من أجل إنقاذهم من الموت في كل لحظة، كانت الرسالة مصحوبة بتياب لهم وقد بدا أنها مزقت من فرط التعذيب. سأل السلطان: «ما العمل؟»، فاقترح الوزير ديكو أن يرسل لهم رسالة تهديد واضحة، فلدينا ممثلاً أسير قشتالي، ويمكننا ذبحهم في ليلة واحدة، وإلقاء رؤوسهم من على جبال البشرات حتى تصل إلى خوان على سرير نومه. فأعجبت السلطان اللهجة التي تحدث بها ديكو فصرخ في وجهي: «اكتب بالنص ما قاله، وأضف عليه إن تركوهم تركناهم، وإن حدث لأي منهم مكروه فلا يسألون إلا أنفسهم عن دماء إخوتهم». فكتبت بالقشتالية كي لا تترجم أي من مفردات

الرسالة خطأ، ومهرها السلطان بخاتمه مرسلاً بها إلى خوان، لكن الأخير لم يرد، وبعد أيام وصلتنا رسالة من والد السلطان تخبرنا أنه بخير، ولم يتعرض لتعذيب ولا أذى، وعلى السلطان أن يتفاوض من أجل مَنْ في السجون. فتحير أمرنا، ولم نعرف أي الرسالتين كاذب، لكن السلطان اتخذ قراره بنقل معسكره إلى لوشر، وترك الوزير ديكو في أجاجير يدير الأمور، حين استقر مقامنا هناك أمرني أن أكتب رسالة لابن عبو كي يبدأ هجوماً بمن معه على ميناء مطريل، مستحثاً إياه أن يفعل ذلك في أسرع وقت قبل أن ينتبه الإسبان، لكنني حين أنهيت الرسالة وجئته ليمهرها بخاتمه لم يجده، فاغتمّ كما لو أن في الأمر دنو أجله، ثم استغفر الله وطلب من صائغه أن ينحت له خاتماً جديداً بنفس الرسم والشكل قائلاً: «إلى أن نخبر قادتنا بتغيير خاتمنا». ثم ختم الرسالة وأوصى قائد حرسه أن يختار أمهر رجاله وأأمهم، لكن الرجل مرّ على أجاجير، فسأله الوزير عما معه، فأخبره أنه يحمل رسالة لابن عبو والجزائريين، بعدها اختفت الرسالة والرجل، وذهبت أخرى عليها خاتم السلطان لابن عبو تأمره أن يجرد المتطوعة من سلاحهم، ثم ينقض عليهم في الليل برجاله لينهي عليهم، فقد أصبحوا عبئاً على الثورة، كانت الرسالة واضحة وكلماتها حاسمة، فارتبك ابن عبو في مصدرها، ولم يعرف ما الذي ينبغي عليه حيالها، وشك أن لوثة أصابت السلطان، فترك حسين جودت برجاله في البنيول وعاد بالرسول إلى لوشر ليراجعه في أمره، كان قائد الحرس قد دهش من حضور ابن عبو وعدم تنفيذه للهجوم، فاستوقفه ليحدثه في مخالفته أمر السلطان، فما كان من ابن عبو إلا أن صاح فيه: «أي سلطان هذا الذي يخون أهله ودينه؟»، وهمّ بدخول الخيمة فقبض عليه الحرس

واحتجزوه، وحين اشتبك معهم ضربوه على رأسه ففقد الوعي وحمل إلى خيمة بعيدة، بعدها أبلغوا السلطان بما حدث، وشعر الأخير أن مَنْ سرق الخاتم بدأ يوقع بينه وبين رجاله، فأرسل في طلب الوزير ديكو ليستشيريه فيما حدث، لكن الوزير لم يأت، بينما أتى حسين جودت ومَنْ معه من الجزائريين والأتراك، فسألوا عن ابن عبو حتى علموا أنه مقبوض عليه، وكانوا قد علموا بأمر الرسالة ورفض ابن عبو تنفيذها، فقالوا: «نريد من السلطان أن يخبرنا بشأن رسالته». فأقسم الأخير أنه أرسل لهم ليهاجموا ميناء مطريل ولا يعرف شيئاً عما يقولون، وأن خاتمه ضاع منه آن انتقاله من أجاجير إلى لوشر، ثم نادى عليّ لأدلي بشهادتي أمامهم، فأقسمت ثم كررت ما قاله، لكن حسين جودت ومَنْ معه لم يصدقوا، وقالوا: «لم تعد من الآن سلطاناً علينا»، ثم استداروا خارجين من خيمته، فتركت السلطان ورحلت أبحث عن ابن عبو، دلني بعض الحرس على مكانه، كان قد استعاد وعيه لكنه غير قادر على الاتزان في السير. قلت: «أدرك السلطان، لقد خلعه حسين جودت ومَنْ معه بلا ذنب، فخاتمه مسروق والرسالة مدسوسة عليه». ورحلت أسنده في الذهاب لخيمة ابن أمية، لكن الحرس كانوا قد اشتبكوا مع المتطوعة، فأخذنا نصرخ فيهم بالتوقف حتى أشار جودت لرجالهم بالكف عما يفعلون، واتفقنا على الدخول للسلطان كي نعرف كيف زورت رسالته، ومَنْ الذي سعى لقتل الثورة وفقدان الموريسكيين ملكهم، لكننا ما إن دخلنا الخيمة حتى وجدنا السلطان جالساً في مكانه، وخيط من الدم الكثيف ينزف منه، نظرنا فإذا بخنجر مسموم في عنقه، وعبثاً حاولنا نجدته، فقد كان أمراً مكتوباً، ولم يكن أماننا سوى التفكير فيمَنْ سيخلفه.

استيقظ مراد على رنات متوالية لجرس الباب، وكأن الحرب قد نشبت فجأة، نهض متخبطاً بين الحوائط والأثاث، حين فتح وجد راشيل أمامه وخلفها شخص طويل يحمل جملة من الحقائب البلاستيكية الكبيرة، لم يعرف كيف يعدل من قسّمات وجهه الغاضبة: «صباح الخير»، هكذا قالت راشيل بدلال شديد، وقبل أن يفتح فمه كانت قد طبعت قبلة على خده الأيسر هامسة: «مش هندخل؟»، وسرعان ما أزاحت جانباً لتقطع الردهة المؤدية إلى الصالة وكأنها تعرف البيت عن ظهر قلب، انتبه مراد لوجود الشخص المرافق لها، والمائل أمامه في خشوع شديد، فرحب به مومئاً بالدخول، ما إن دخلا الصالة حتى انتبه مراد لقطع ملابس المتناثرة على الكراسي وفي الأركان، فأخذ يلهث جامعا إياها بحركات مرتبكة، بينما راشيل تكتم ابتسامة خفيفة تطل من عينيها، حين استأذنها في الذهاب للحمام دارت على جذعها برشاقة راقصة باليه. «خذ راحتك، أنا مشتاقة لرؤية كل جزء هنا»، وبمجرد اختفائه من الصالة أخذ الشخص المرافق يخرج جهازاً من حقائبه، وراح يوجهه نحو الأركان والجدران

والأسقف باحثًا عن شيء ما، حين خرج مراد من غرفته سأل بغضب عما يحدث، فردت راشيل بأن ذلك حفاظًا على سلامته، ولم يكن ذلك مقنعًا له، فجاءت نبراته بغلظة لم يتوقعها أي منهم: «لا أعتقد أن أمري يشغل أحدًا كي يتجسس عليّ». هنالك انطلقت ضحكة مشبعة بالأثوثة والدلال: «ليس هناك أهم من عميد الموريسكيين لنشغل بأمره»، حينها شعر بالارتباك والحرج منقلًا نظره ما بينها وبين الرجل السادر في عمله كآلة لا تسمع ولا ترى، لكن راشيل خطفته: «أحضرت لك هدية»، ثم أخرجت من حقائبها ثلاث بدلات أنيقة، فابتسم بمزيج من السرور والدهشة: «ومن أخبرك أنني سأوافق؟»، حيثئذ دارت على مشط قدمها كراقصة باليه ثم نزلت براحتها على كتفيه: «وهل يمكن لعميد الموريسكيين أن يترك ابنة عمته بلا سند؟»، أفقدته الجملة الأخيرة توازنه، حتى إنه شعر بانقطاع الكهرباء عن ذهنه للحظات، متفكرًا في صورة ابنة عمته التي سافرت منذ سنوات طويلة، لكنه لم يتذكر سوى طفلة بزي مدرسي تطارده في ردهة البيت كي يرسم لها سيدة في يوم عيد الأم.

انتبه من شروده على يدها وهي تجذبه للجلوس في شرفة البيت، مومئة لصاحب جهاز الكشف عن أجهزة التنصت بالانصراف، فحمل حقائبه وخرج كما لو أنه لم يكن موجودًا من الأصل. «أجلت كل مواعيدي اليوم من أجلك»، هكذا قالت وهي تخرج بعضًا من السندوتشات الصغيرة من حقيبة بجانبها، حين لمحت معالم الدهشة على



وجهه استرسلت: «هل تذكر حين أخبرتك أنني سأحكي لك في القاهرة عن اسمي ومن أكون؟»، أو ما لها بالإيجاب في انتظار حل لألغازها المتواصلة، مسحت عينيها وعادت بالذاكرة إلى البعيد قائلة: «حين هاجر عمي عفيف وزوجته جواهر إلى لبنان التقيا برجل مغربي أقنعهما أن لديه مؤسسة إعلامية كبرى في أستراليا، وأنه بحاجة لشريك كي ينشئ محطة تلفزيونية بها، حينها انبهرت جواهر بالفكرة وأخذت تلح على عفيف للدخول في هذه الشراكة، ودون أن يريا شيئاً دفعا كل ما لديهما للرجل، لكنهما ما إن ذهبا إلى سيدني حتى وجدا أن المؤسسة ليست أكثر من جريدة محلية لا يسمع بها أحد، وبعد شجار طويل استسلما في النهاية لأن يتنازل الرجل لعفيف عن نصيبه في الجريدة، وظلا يكافحان ضد الدائنين حتى علما بوفاة أمي، يومها أقنعت عفيف بالعودة لمساومة جدي عليّ أنا ووديع، وكانت المفاجأة أن جدنا رفيق لم يقبل بالمساومة ولم يرضَ بإحراجهما كمتسولين أمام العائلة، فمنحهما إيانا ومعنا نصيباً وافراً من تركته، ويبدو أن ما أعطاهما إياه كان مشمولاً بالبركة، فقد سددا الديون، ودبّت في الجريدة الحياة، وسرعان ما تحولت من صيغتها المحلية إلى صيغة دولية، وصدرت في طبعة باللغة الإنجليزية وأخرى بالعربية، فوطدت جواهر علاقتها بعدد من رموز البعث العراقي، وصار عفيف من ألمع رؤساء التحرير، بينما عرفت جواهر بأنها المرأة التي تعشق المال والإدارة، لكن لهاثها خلف الأحلام التي لا تنتهي جعل عفيف يسقط فجأة، فكانت أولى مشكلاتها عقب رحيله هي البحث عن اسم كبير يصلح أن يكون رئيساً للتحرير، ولم يكن هناك أفضل من لويس

بلاس إنفانتي، ذلك الذي ينتمي إلى أسرة عريقة في السياسة الإسبانية، فوالده هو بلاس إنفانتي أبو القومية الأندلسية، كان رجلاً ودوداً ومثقفاً كبيراً وعلى علاقة واسعة برجال السياسة والاقتصاد في بلاده، لكنه بعد رحيل ابنته راشيل زهد في كل شيء وقرر أن ينفي نفسه في أقصى بقاع العالم، هناك تعرف على عفيف وجواهر، واستعاده لكتابة مقال أسبوعي في الجريدة، فلما مات عفيف ألفت جواهر بشباكها عليه ليكون زوجاً ورئيس تحرير».

حين سألها مراد عن شقيقها وديع تنهّدت كما لو أنها مقدمة على القفز في الجحيم، فظل ينتظرها حتى استجمعت شتات نفسها قائلة: «كان عفيف تميمة السعد في حياتنا، وبرحيله انفرط عقد كل شيء، فجواهر تزوجت من صديقه لويس، وصدام حسين اجتاح الكويت، وكانت أستراليا من بين الدول التي دخلت تحالفاً لطرده منها، وانتهى الأمر بأن العراقيين لم يعد مسموحاً بوجودهم، ولم يعد بإمكانهم إبداء السخاء الذي كانوا عليه، وكان من الممكن للمؤسسة أن تستمر في عملها بدون اللجوء إلى أحد، لولا أن جواهر كانت قد أدمنت أموال الآخرين، فاستعانت بالشيعة ليكونوا بديلاً عن البعث، ولم تمضِ شهور حتى أثار ذلك انتباه أمراء الخليج وخوفهم من أن تكون الجريدة منبراً لمنافسيهم، وأمام سخائهم غيرت جواهر قبلتها من الملاهي إلى المشايخ، وما كان للأمر أن يمر دون حساب، إذ انحرفت سيارتها عن الطريق السريع لتسقط من فوق الجبل، وكان وديع لحظه العثر هو الذي يقودها في ذلك اليوم،

كان الأمر صدمة بالنسبة لي، فلم أقبل فكرة موته بديلاً عنها، ورحت أصرخ فيها بأنها آثمة، ولم يكن أمامها سوى أن تودعني مصحة للأمراض النفسية والعصبية كي تستريح مني، فأمضيت بها ستة أشهر لا يزورني سوى عمي لويس، هذا الذي شعرت أنه والدي الذي لم أره، وأيقن أنني منحة السماء التي جاءت لتعوضه عن ابنته التي ماتت في طائفة تحلق على المحيط، ظلت صور وديع وعمي غفيف تطاردني وأنا أصرخ في الجميع أن جواهر هي التي قتلت كل من أحبهم، ولن تصدقني إذا قلت لك إن عذاباتي لم تنتهِ إلا حينما رأيت جدنا عبد الله بن جهور، يومها أمسكني بيده قائلاً: أنا العين الراحية لآل جهور، وآن لك أن تخرجي من هذا الظلام، فتركت له نفسي ونحن نسوح على قمم الجبال وفي السهول وبين الحداثق والغابات، يومها رأيت وديع خلفه على جواده الأبيض باسمًا في وجهي وهو يقول: كل أمر بكتاب».

كانت ناريمان تبكي كأنها تغتسل من آلامها الطويلة، بينما مراد لا يعرف كيف يخفف عنها أحزانها، فجأة طرأ على ذهنه أن يسألها عن المقر الذي اختارته لمكتب الوكالة، فمسحت دموعها ونهضت من مكانها قائلة: «هيا بنا»، حين وصلا إلى المكان وجده فيلا صغيرة بحي المهندسين، أبدى تعجبه من قدرتها على الوصول إلى مكان كهذا دون أن تكون في القاهرة، فضحكت بدلال على طيبة قلبه قائلة: «كل شيء بالمال»، تتمم خلفها مؤمناً على ما قالت، وترك أقدامه تتفقد غرف الصحفيين ومراجعي الأخبار والمترجمين، وفي النهاية قادت إلى غرفة

بها مكتب يليق بأمر: «ها هنا يجلس عميد الموريسكيين ليتابع عمله»، هكذا قالت، لكنه ردّ ساخرًا: «عميد الموريسكيين الآن جائع»، فضحكت ونزلا يبحثان عن مطعم يليق بالعمداء، حين سألهما النادل عن طلبهما قالت لمراد: «أريد أن أحتفل معك بالذي أنقذني من الموت»، فأوماً موافقاً وهو يسأل عمّا حدث، فأغمضت عينيها وتحدثت بحزن يليق باعتراف على مذبح إله عظيم قائلة: «رأيت بعد خروجي من المصحّة كم اتسعب الفجوة بين لويس وجواهر، فهي لا تؤمن إلا بما في يدها، وهو لا يؤمن إلا بما يراه في خياله، شعر كلاهما أنه أخطأ الاختيار، لكنهما أصراً على استكمال التجربة سنوات يمثلان أمام الناس أنهما زوجان متفاهمان، لكن اتهامات جواهر له الفشل والغباء كانت أكبر مما يحتمل، أنا نفسي كنت أتساءل عن السبب الذي يجعله يتحمل هذا السخط من قبلها، وبدا لي أنني كنت الأمر الوحيد الذي دعاه للبقاء كل هذا الوقت، كان يوقن أنني ابنته التي ماتت وبُعثت في دورة جديدة على هيئة جديدة، وكنت أراه الملاك الذي كلفته العين الراعية بحمايتي، وما كان لجواهر أن تترك هذه العلاقة تمر بسلام، فبحثت عن طريقة للقضاء عليها، ولم يكن هناك أفضل من تزويجي لأمر عربي يدفع للجريدة بسخاء، كان الرجل يريدني بالفعل ولكن ليس كزوجة له، غير أنها قررت أن تصطاد عصفورين بحجر واحد، فتخرجني من رباط الأبوة الذي جمعني بلويس، وتضمن تمويلاً ثابتاً لا ينتهي، لكن لويس اعترض فقامت بطرده ليس من المؤسسة فقط، ولكن من حياتها، رأيته يعد حقائبه قائلاً: سأعود إلى غرناطة كي أموت في أحضان أجدادي. بعدها أعلنت خطوبتي للأمر

رغمًا عني، ودفعتها حماقتها لنشر صورة لنا في الصفحة الأولى من الجريدة، فكان ذلك بمثابة الكارثة التي سقطت على رأسها، فقد غضب الأمير، ولم تستطع تكذيب الخبر، ولم تمضِ أسابيع حتى وجدنا جثتها مغمورة في الثلج على سفح جبل بمشارف سيدني، بعدها جاءني الأمير قائلاً: يمكننا أن نكون زوجين على طريقتي الخاصة. فقامت بطرده لتبدأ رسائل التهديد المتوالية لي، ولم يكن أمامي سوى الهروب إلى غرناطة حيث يقيم لويس، فدبر لي أمر بيع المؤسسة والدخول باسم ابنته راشيل في شراكة مع الوكالة التي نعمل بها الآن».

كان مقتل ابن أمية بالنسبة لي صدمة كبرى، فلم أكن أتصور بأي وجه من الوجوه أن يموت السلطان على يد رجاله، أيًا كانوا وأيًا كان الخلاف بينهم وبينه، اعتزلت الأمر ولم أخرج من خيمتي إلا للصلاة عليه والعودة إلى حيث أجلس في ركن يجلس أبي قباليته، وكأن كلاً منا كان يبكي بصمته ضياع الدولة التي حلم أنها ستعيد للإسلام مجده، كان فرناندو يجيئني بالأخبار محاولاً إنقاذي من الغوص في العزلة، قال إن ابن عبو يريد أن يخرج الأمر من أيدينا ويعطيه للمتطوعين الجزائريين والأتراك، طارحاً أن يكون حسين جودت الأمير بعد ابن أمية، قال إنه عارضه رافضاً الدخول عليه في خيمته، متهماً إياه بالجبن، قلت: «أليس الرجل بحزين على صاحبه؟»، قال: «كلنا مكلومون، لكنه الحلم، فهل نتركه ليضيع من أيدينا؟»، قلت: «ربما عافت نفسه المؤامرات والدسائس». فنظر إليّ غاضباً: «أترمي إلى شيء يا بن عمي؟»، قلت: «لَمْ قُتِلْ ابن أمية، ومَنْ قتله، ولم الآن؟»، قال: «لو كنت أعلم لكنت أول مَنْ يطيح برأسه»، وسحب سيفه من غمده فنظرت إليه متقرّزاً، فأغمده من جديد

قائلاً: «لو كنت تعتقد أن لي دخلاً فيما جرى، أو أنني أعرف سبباً لذلك، فقد ظلمتني». قلت: «فلم الدفع بابن عمنا؟ ولم السعي لأن يكون بنو جهور هم ورثة بني أمية؟». قال: «كأنك تفكر فيما جرى قديماً، لكن هل نجا الناس من الفتن بغير حكمة جدنا الحزم بن جهور؟ وهل حكم الحزم الناس بغير الشورى والعدل؟ وهل ترى سوى ابن عمو الآن أهلاً للأمر؟ وهل بنو بدمائنا ملكاً ثم نتركه للأتراك، وهل يفهمون معاناتنا كي يقفوا في وجه عدونا مثلما وقفنا وما زلنا واقفين؟»، كنت أسمع أسئلة فرناندو وأنقل وجهي ما بين وجهه ووجه أبي الصامت، كنت أريده أن ينطق بكلمة تدلني على الصواب، لكنه ظل صامتاً، كأن زوجته وابنته ماتتا للتو دون أن يثار لدم أي منهما، أو كأنه عاد بذاكرته لترحيله من البيازين إلى البشرات، ليمنحه قس بغيض بها حق الحياة عبر التعميد بالماء، أو أنه يتفكر فيما هو آتٍ من ظلمات تتبعها ظلمات، فظللت صامتاً لا أعرف بما أجيب على ابن عمي، حتى تركني وخرج آسفاً، فنكست وجهي برهة من الوقت ثم انفجرت في صاحب الوجه الصامت أمامي: «لَمْ لا تتحدث؟ لَمْ جئت بي إلى هذا العالم المملوء بالقتل والغدر؟»، حينها رفع رأسه من على صدره: «كي تتعلم»، كان صوته أشبه برجع الصدى، حتى إنني تفرغت منه حين دوى حول أذني، وكدت أتوه عن نفسي وأنا أقول بحسرة: «أتعلم القتل أم الخيانة أم الصمت؟»، فرفع رأسه من جديد ودوى من حولي: «كل شيء بكتاب»، ثم وضع رأسه في حجره وغاب عني، حتى ساد الصمت طويلاً، ربما يومان أو ثلاثة،

دون أن أعرف كم ظللت أعاني من الحمى التي هاجمتني، لكنني حين فتحت عيني وجدتني مدثرًا بأغطية لا حصر لها، شعرت برائحة العرق في كل شيء، ورأيت بقايا خرق وأعشاب وأواني شراب، ودمت ما بين اليقظة والصحو مخدرًا، أفتح عيني برهة ثم أتوه من جديد، حتى دخلت خيمتي صبية في الخامسة عشر من عمرها، كانت تظنني نائمًا، فأخذت تنظف الخيمة وترتب أشياءها، ثم شرعت تنفخ بفمها في شراب مغلي كي تبرده، بعدها دخل فرناندو وهرناندو الحبقي وحسين جودت ورجلاً عجوزًا لا أعرفه، قالوا: «أما زال نائمًا»، فردت عليهم باستحياء: «أظنه هكذا»، فاقرب العجوز مني ودس يده تحت إبطي فاقشعر بدني وفتحت عيني، فضحك قائلاً: «كأنه كان مستيقظًا». ورأيت فرناندو يتقدم بلهفة نحوي ليحتضنني: «لم يبقَ لي سواك، فهل تتركني يا أخي وابن عمي؟»، وددت أن أقول له إنني بخير، وددت أن أقول لن أتركك ما حييت، لكن الكلام كان ميتًا في فمي، فلم أستطع إخراجه ولا بلعه، لكن ثغري انفرج رغمًا عني، فتبسم الجميع وهناؤني على السلامة، فرددت عليهم التحايا بطرفات عيني، وهتف العجوز في الصبية: «أطعميه ما شئت الآن، فلا بد من استعادته للحياة»، وهلل حسين التركي بصوته الجهير: «سأجيئه الليلة بأرنب بري». لكن الحبقي أزاحه جانبًا: «هذه ابنتي هند، لو شئت زوجتها لك الليلة». فسقط الجميع من الضحك قائلين: «كأنك تصطاد في الماء العكر زوجًا لابنتك».



في اليوم التالي استرددت جزءاً من عافيتي، فأطعمني فرناندو ما اصطاده وطبخته هند، «وجدته يترنح بين الصخور فترصدته حتى أوقعت به هدية لك»، هكذا قال بفرح شديد، سألته: «ما هو؟»، قال: «طبي غريب، لو رأيته لاستحرمت أكله». فنظرت إليه متعجباً، لكنه أدرك مفارقتة فابتسم قائلاً: «لكنه أشهى ما يأكله مريض مثلك». حينها رفعت عيني من جديد إلى وجهه المبتهج: «كيف عرفت؟»، قال: «هل كنا سنتركك تأكل طبيًا وحدك ونحن نتضور من الجوع بجانبك؟»، فعلمت أنهم سهروا الليلة عليه، علمت أيضًا أن الأمير كان ليلة انتخاب ابن عبو أميراً، فقد أقنع فرناندو حسين جودت أن ابن عمنا أحق منه بالإمارة، ولا ينبغي شق الصف بتقديمه لها على موريسكي جاهد في الأمر من بدئه، فالموريسكيون لن يقبلوا أن يكون أميرهم تركياً. علمت أن التفاوض انتهى بأن يعلن ابن عبو انضمامه لآيالة الجزائر، حيث علي داي الذي يمثل السلطان العثماني سليم الثاني القابع الآن على عرش السلطنة العلية في إسطنبول، وأن ابن عبو وافق على الأمر، علمت أيضًا أن ابن مكنون والأرشدوني رفضا أن يجاهدا تحت راية الجزائريين والأتراك، فأعلنا انسحابهما من الجهاد، مقررين مغادرة الأندلس إلى الجنوب، حيث ينتظرهما ملك السعديين في المغرب، لكن فرناندو قال إنها الغيرة، فقد ظنا أن الأمر سيقع في يد أي منهما، ولم يكمل حديثه حتى سمعنا بعض الأصوات من خارج الخيمة، فنهض لينظر الأمر، فإذا بالأمير محمد بن عبو داخلًا في صحبة الحبقي وابن المليح والشعبي وبولود، فانحنى له

فرناندو بالتحية، وكدت أنهض لاستقباله لكنه قال: «كما أنت»، وقبل أن أتحدث بشيء كان قد ألقى بنفسه جالسًا بجانب رأسي، قال: «أيها البطل أريدك، ثمة مكاتبات كثيرة تحتاج إلى ريشتك، وقد ولى أوان الدلال، فحمدًا لله على السلامة». هنأته على الإمارة ودعوت له بالتوفيق، فربّت كتفي: «لا تتأخر علينا، فلن نتخذ قرارًا بدونك».

لم أكن أعرف ما الذي يتحتم عليّ بعدما انتهى النهار والأمير يرغب في توقيع قراراته صباحًا ليذهب كل إلى عمله، حملت أدواتي وأوراقى ومنضدة صغيرة وسراجًا عامرًا بالزيت إلى خيمتي، وجلست طيلة الليل أكتب قرارات تولية ابن مليح قائدًا عامًا على وادي المنصورة ومنطقة بسطة، والشعبي قائدًا عامًا على البشرات وجبال شلير، وبولود قائدًا على ألمرية وأجوارها، وفرناندو قائدًا عامًا للجيش، وحسين جودت قائدًا للأتراك والجزائريين، وفي النهاية كتبت رسالة لعلي داي في الجزائر، يخبره فيها ابن عبو بما استقر عليه الأمر في البشرات، ويدعوه لقبوله أميرًا على البشرات كإمارة تابعة لحكمه في الجزائر ولراية العثمانيين في الشرق، واستيقظت على صوت فرناندو يستعجلني بما كتبت كي يختمها ابن عبو بخاتمه، ويرسل بها رسله لينادوا في الناس بها، ثم أمر حسين التركي أن يفرض واحدًا من رجاله بقيادة جنده، ويذهب بنفسه لملاقاة علي داي ليحدثه عن حاجتنا إلى إعلان هذا الأمر على الجميع عبر مدد كبير منه بالسلاح والرجال.

كان ابن عبو رجلاً جسوراً، ويعلم حكمة الحرب ومواطئ ضعف الرجال، كان يعلم أنه يقود أمة تسير على فوهة بركان سينفجر في أي وقت، فدفع بالجميع إلى العمل مرسلاً برسالة واضحة إلى الإسبان بعد موت ابن أمية، فنظم جيشاً من عشرة آلاف رجل لقنص مدينة أرجبة، ونجح الرجال في ذلك، وحاصروا قلعتها من كل جانب، فاستنجد قائدها بنائب الملك وشقيقه غير الشرعي دون خوان النمساوي، فأنجده بجيش كبير تحت قيادة الدوق دي سياسة، لكن الرجال فطنوا إلى الأمر، وقطعوا الطريق المؤدي إلى أرجبة من لانجرون، وقنصوا القلعة قبل تمكنه من تعديل مساره، ثم قنصوا غليرة، وحين جاءت من أشكر قوات دون خوان استبسلوا أمامها حتى شتتوا جندها وأسروا بعض قادتهم، فتوهجت الأرواح التي خبت بموت ابن أمية، وأيقن الجميع أن ابن عبو قائداً لا يقل أهمية عن سلفه، فانتشرت رايته على ملقة ورندة، وفتح ابن مليح حصن أرية، وأرسل البشارة بذلك للأمير، فأرسل له بترقيته قائداً عاماً على المنصورة وبسطة وأرية.

قلت لابن عبو. «ما الذي جعلنا نرفع راية الجزائريين على أرضنا؟»، فنظر إليّ: «لو أن والدك حي بيننا ما فعل إلا ذلك، فكنه الأمر في الإبقاء على الدولة وليس لون الراية، نحن نريد أن نبقي على دولتنا، وليس أمامنا غير القبول بشرط الساعة التي نحيها، ليس أمامنا جدار كبير نحتمي برايته سوى بني عثمان، وأقرب طرف لهم من أيدينا هو علي داي، ولو هُزمنّا فسيقول الناس إن بني عثمان قد هُزموا، وهم لن يقبلوا بذلك؛ لذا

كان ينبغي توريط الكبار في الأمر، وقد حدث ما نريد، فها هو علي داي يرسل ستة آلاف جندي بسلاحهم، بينما الصدر الأعظم محمد الصقلي يمارس ضغوطه على السلطان سليم الثاني كي يؤجل فتح صقلية ويجرد جيشه للنزول على شواطئنا، ولو حدث هذا فإن الإسبان سيفقدون شرق الأندلس إلى الأبد، وربما تهددهم الموت في غرناطة ومجريط وقشتالة نفسها، وحينها الملك لله يا بن عمي، يهبه لمن يشاء ويورثه من يشاء».

أعجبني حكمة ابن عبو في توريط الكبار، لكن الأمنيات ليست كالواقع دائماً، فبنو عثمان كانوا يعتبرون الأندلس خطوة لا بد لحدوثها من خطوتين أولاً، أولها أن تحرر تونس من قبضة الحفصيين التابعين للإسبان، وقد فعلها علي داي، فهيج الإسبان الذين كانوا يقرأون المشهد تماماً مثلما يقرأه ابن عبو وآل عثمان، مدركين أن الأخيرين لم يبقَ لهما غير الاستيلاء على صقلية كي يدين لهما البحر بكامله، بعدها لن تجد سفنهما من يعارضها في الدخول إلى مجريط نفسها، ولم يكن أمام فيليبي الثاني سوى أن يجمع قادة حربه راسماً أمارات الغضب الكامل على وجهه وهو يقول: «بنو عثمان دخلوا تونس، ويسعون الآن لإقامة حلف مع شارل التاسع ملك فرنسا، ولا نعلم إلى أي مدى سيقف البابا في صالحنا ضد هذا الحلف الذي يقصدنا، ولو حدث ما يريده الأتراك فلن ينجو أحد منا من القتل أو السبي للبيع في أسواق الرقيق، وأنتم هنا لا تستطيعون أن تنهوا على حفنة من المستضعفين الذين يتهلون إلى ربهم كي يبقوا على أرواحهم حتى يدركهم جند الترك ومددهم، فماذا

تنتظرون؟»، لم يكن لسؤاؤه سوى إجابة بدأت علاماتها تتضح في الوجوه، فنظم خوان قواته في ثلاثة جيوش مزودة بالمدافع والبنادق، كان أولها بقيادته، وثانيها بقيادة دي سياسة، وثالثها منح قيادته لأنطونيو دي لونا بعدما عزل المركز دي بلش من منصبه، في النهاية صرخ فيليبي الثاني فيهم الصرخة التي سمعنا أصداءها هنا: «لو عدتم بغير أن تنهوا على هذه الحفنة فلا تبكوا على قشتالة بعد ذلك».

انقلبت الأمور علينا، وكان عناد الإسبان أشد قوة من عنادنا، وعزيمتهم أقوى من عزيمتنا، فاستولى دون خوان على غولجر في طريقه إلى غليرة التي سقطت بعد قصف لا يرحم من المدافع على أسوارها، فقتل كل مَنْ وجده في طريقه قاتلاً: «لا أريد أسرى»، ثم زحف على صيرون التي عرف ابن عبو أنها مقصدهم بالأساس، فأمدّها بستة آلاف مقاتل بقيادة الحبقي وابن المليح قاتلاً: «لو سقطت سقطنا، ولو بقيت فالأمل كبير في نجدة بني عثمان»، فأحكم القائدان خطتهما، وكما خارج المدينة يترقبان مجيء دون خوان بجيشه المكون من عشرين ألفاً، بينما أحكم قائدها غلق مداخلها، فلما نصب دون خوان مدافعه فوجئ بانقضاض ابن مليح عليه، فانتشر رجاله لمطاردته وقنصه، تاركين المدافع والعاملين عليها خلفهم، ففاجأهم الحبقي بَمَنْ معه، وأشعل فيها النيران فانفجرت على نفسها، وارتبك الجيش العظيم من الأشباح التي تتقاذف خفيفاً بين صخور الوديان والجبال، وراحت المدينة تفتح أبوابها لصيد الإسبان من الخلف، فسقط منهم الكثير، وقُتل مربي الملك، وكاد دون

خوان نفسه يهلك في المعركة، لولا أن دوق دي سياسة ظهر في الأفق بجيشه، فكان أمرًا غير متوقع حتى للإسبان أنفسهم، فعادوا للتجمع من جديد، وفشلت المدينة في غلق مداخلها، وراحوا يطاردون الرجال خلف الصخور بالبنادق والمدافع، حتى هلك الجميع ولم يبقَ غير قلة تمكن الحبقي من الفرار بها، فعادت الغلبة للإسبان وسط فلول جيش مشنت في الجبال، راحوا يطاردونها حتى حصلوا على نجولة وبرشانة وكتورية وتهالي، ووصلوا إلى سهل البدول في البشرات، بعدها عاد دي سياسة إلى غرناطة جامعًا مزيدًا من الرجال لمحاصرة البشرات من الغرب، ووصل دي لونا إلى جبال طوميز وشرق مالقة، وجمع دون خوان كل مَنْ وجده من الموريسكيين في غرناطة ومرجها، فأرسلهم في جماعات سلسلة دون طعام أو شراب إلى قشتالة في الشمال، وَمَنْ لم يمت منهم جوعًا أو هوانًا تلقفته أسواق الرقيق، ولم تُجدِ رسائلنا إلى الجزائريين أو العثمانيين نفعًا، فقد تمكنت حاشية السلطان من إفشال محاولات الصقلي بتأجيل فتح صقلية ونجدتنا في الشرق، ونشط علي داي في توطيد حكمه بتونس ضد فلول الحفصيين الذين أمدتهم إسبانيا بالسلاح والرجال، أما محمد بن غالب السعدي في المغرب فقد كان أكره ما على قلبه أن تقوم في الأندلس دولة تابعة لبني عثمان، فوقفنا وحدنا ننظر ضياع ملكنا حصنًا وراء حصن، وقطعة تلو الأخرى، وبعدما التقى جيشا خوان ودي سياسة في سهل البدول اتجها جنوبًا لقنص أندرش وكبيته ومارو ونرجة وبرجة وقمارش، مرسلين برجالهم لابن عبو كي يفاضونه على التسليم.

فوجئ مراد بالطبيب الشاب خارجاً من بيت الموريسكي، لم يرد على ذهنه سوى أن الجدة أصيبت بمكروه، حاول الرجل أن يوضح له أنه كان على مقربة من البيت فصعد للاطمئنان عليها ليس أكثر، لكن مراد لم يصدقه، وأصر على عودته معه، كانت شركة الاتصالات التي استأجرت فيلا حبيب الله تفتح ذراعها على الشارع لاستقبال عملائها، فتركاها واستدارا متخذين الممر الجانبي، عابرين من بين كراسي المقهى الذي نشأ على ضفاف المول المجاور للبيت، والذي كان يوماً ما حديقة يهلو الموريسكيون تحت أشجارها، حين وصلا إلى الباب الخلفي تطلع الطبيب إلى الأسانسير ذي الحديد الصديء والتراب المختلط ببقايا زيت قديم، أسلما نفسيهما لصعود الدرجات الرخامية وبسطاتها الفسيحة النائمة حول مجرى الأسانسير، رأى مراد أسراب القطط وهي تنزل أمامه في سرب طويل متقطع، ودون رغبة منه في اعتراض طريقها نظر إلى الطبيب باحثاً عن أي من ملامح الدهشة لرؤيتها، لكن الأخير كان منشغلاً بتحسس أقدامه للدرجات في بقايا

الضوء الشحيح المتسرب من منور الأسانسير إلى السلم، كانت الرطوبة قد أثقلت أنفاسه فتلمَّس أول بسطة أمامه ليجلس عليها قائلاً: «غريب أمر هذا البيت، كنت أظنه في صغري كنيسة ليس بها سوى قساوسة ورهبان»، توقف مراد في انتظار نهوضه قائلاً: «ما كان لأي من أجدادي أن يفكر في أن يكون قساً أو شيخاً، فجميعهم حكمهم الخوف الذي توارثوه في الدماء، لكن حبيب الله حين فكر في بناء بيت لهم أحضر مهندساً إيطالياً طالباً منه أن يبني له بيتاً لا يغري أحداً بالسطو أو التجرؤ عليه، قال: أريده أن يكون قلعة لأهلي من بعدي، لا يتركونه ولا يسكنون معي، لكنه يحميهم من غائلة الأيام. يومها اقترح عليه المهندس أن يبني له فيلا صغيرة تفتح أبوابها على الشارع الكبير، وخلفها بيت من خمسة أدوار، كل دور يحتوي على ثلاثة أجنحة، في نهايته غرفة واحدة للغسيل، وخلفه حديقة كبيرة يلهو فيها الأطفال والنساء، لكن مرور الأيام جعل الموريسكيين يتنازلون كل يوم عن جزء منه، فالحديقة باعها جدي رقيق لتصبح مولا يغطي على البيت، وفيلا حبيب الله أجرتها جنى هانم لشركة اتصالات كي تنفق على البيت».

بدا للطبيب أنه أثار شجون مراد من حيث لا يدري، فلزم الصمت حتى وصلا إلى البسطة النائمة أمام شقة مراد، حينها لم يستطع أن يمنع نفسه من السؤال عن تركهم لهذا الأسانسير معطلاً طيلة الوقت، لكن مراد الذي ابتسم ساخراً من رغبة الطبيب في معرفة كل شيء قال: «نطمئن على



جنى هانم أولاً، ثم دفع الباب ليجد جدته بكرسيها المتحرك في انتظاره، كان وجهها مشرقاً وعيناها تلمعان بفرح جميل، فانحنى ليطبع قبلة على خدها مادحاً ذلك الجمال الذي لم تؤثر فيه السنون، لكنها بغمزة عين سألته عن سبب إحضاره الطبيب، ولم يجد تبريراً لاصطحابه معه سوى أن قال: «وجدته بالقرب من البيت فأمسكت به ليشرب الشاي»، هزّت رأسها غير مقتنعة بتبريره، ثم استدارت بكرسيها المتحرك نحو غرفة الخادمة العجوز كي تخبرها بوجودهما، ولم يمضِ الكثير من الوقت حتى ظهرت الأخيرة متثابة وفي يدها صينية من الفضة المشغولة باللون الذهبي على المقابض والحواف، وضعت الشاي الأخضر أمامهما ووقفت بانتظار إشارته، فأوماً مراد لها بالعودة لغرفتها ثم نهض ليحضر منفضة السجائر من غرفته، حين عاد وجد الطبيب واقفاً وحقيقته في يده طالباً الاستئذان في النزول: «أعتقد أنه لا داعي لوجودي الآن»، هكذا قال بوجه صارم حزين، لكن مراد الذي شعر أنه مدين باعتذار للرجل جذبه من يده ليجلس في مكانه قائلاً: «حين بنى حبيب الله هذا البيت لم يكن يعرف ما هو الأسانسير، ولو كان عرفه ما كان سيفكر فيه، ليس لأنه لم يكن مغرمًا بالأمور الحديثة عليه ولكن لأنه لم يكن يريد أن يختلط بالموريسكيين، لكن زوجته هانم التي ما أرادت أن يشعر أبناء عمومتها بتكبرها عليهم انتقلت بأبنائها لتقيم بينهم، جاعلة من فيلا حبيب الله مقراً للقاء الضيوف والغرباء، غير أن الروماتيزم هاجمها في سنواتها الأخيرة،

فأنشأت هذا المصعد الذي لم يُصَبَّ بعطل ولو لمرة واحدة، حتى نشبت الخلافات بين جنى هانم وبقية الموريسكيين على عمادة العائلة، ففوجئ الجميع بأنه يسقط بها وحدها في بثره السحيقة، لتخرج منه إلى المستشفى، وتعود بكرسي متحرك».

كان الطبيب قد استرخى في مكانه منصتًا باهتمام لمراد، ناسيًا أنه كان يرغب في النزول، وأن شايه قد فقد حرارته دون أن يرتشف منه شيئًا، فنبهه مراد مازحًا: «يُقال إن أكبر إهانة لموريسكي في بيته هي ألا تحتسي شايه؟»، فرد الطبيب على المزحة بمثلها: «لكن الموريسكي لم يحضرني من أجل ذلك»، أدرك مراد أن عليه الحديث مباشرة فيما أراد الطبيب فيه، فقال إن الجدة في الآونة الأخيرة دائمًا ما تتحدث عن الراحلين، ذاكرة كل تفاصيل حياتهم كما لو أنها كانت تعيش معهم، رغم أنهم رحلوا قبل ميلادها بزم من طويل، ابتسم الطبيب موضحًا أن هذا يسمى بفصام العجائز، فهم يرفضون واقعهم كمسنين موشكين على الرحيل، ويسعون لاستحضار طفولتهم والعيش في كل تفاصيلها، وبعضهم يتماهى في هذه الحالة حتى إنه يعتقد أن كل ما سمعه في صغره هو محض حقائق عاشها، رغم أنها لا تخصه ولا يعرف عنها الكثير. حاول مراد أن يوضح أن المشكلة هي حدوث أمور أخرى، وكاد يحكي له عن الققط التي تدخل غرفتها وتتحول إلى آدميين، لكنه تذكر أن الطبيب لم يرَ الققط التي كانت على السلم، وخشي من أن يخبره بذلك كي لا يتهمه بالجنون، فقرر أن يغير دفة الحديث سائلًا عن تخصصه، وبوغت بأنه حاصل على ماجستير

في الأمراض العصبية والنفسية، فراح يسأل بانزعاج عن متابعته لصحة سيدة مسنة وهو في تخصص بعيد عن حالتها، هنالك أحنى الطبيب رأسه وأخذ يتحدث في ارتباك عن أن أستاذه صَنَّف شللها النصفي كمرض نفسي، وتعاملت أغلب تقاريره معها على هذا النحو، لكنه من الزيارة الأولى لها أيقن أنها تعاني فصام العجائز، ومن ثم فإنه يتابعها بين حين وآخر، وفي ظنه أنها الآن في طريقها للشفاء.

تنفس مراد الصعداء، فقد كان يظن أنه ورث عنها الخرف أو الجنون، فنهض ليحضر له شايًا جديدًا وهو يقول إن حبيب الله جمع الموريسكيين في هذا البيت واضعًا كل زوجين منهم في جناح، فلما وافته المنية جعل زوجته هانم وصية عليهم من بعده، تاركًا لها من الأبناء: سميح وفخري وسعيد وهيام، وكان عليها أن تدير تركة مليئة بالمتاعب، من بينها تلك التي تقاسمها حبيب الله مع الأعراب في كفر الدوار على أن يقوموا بحماية ما بقي له من جفلك الباشا الكبير، فلما انتقل إلى المحروسة كانوا يزرعونها ويؤدون ثمن محصولها إليه، لكن بوفاته تغيرت الأحوال، فقد طمعوا في ريع سنوي منها، ورأت هانم أن الموريسكيين يقيمون في المحروسة بلا عمل، فلم لا يذهبون لحراسة أرضهم وزراعتها، لكنهم رفضوا قائلين إنهم لن يفعلوا أمرًا رفض آباؤهم من قبل أن يفعلوه، ولو كان خيرًا لألزمهم حبيب الله بفعله، فلما أصرت على موقفها قالوا: «نقتسم الأرض وكل يفعل في نصيبه ما يشاء»، ولم يكن أمامها غير الرضوخ لطلبهم، فباعوا نصيبهم وتفرقوا في أعمال تخصصهم، ولم يكن أمامها سوى أن تدبر أمرها

لتنفتح محلاً لبيع الغلال في روض الفرج كي تنفق على أبنائها الصغار،  
مشرطة على الأعراب أن تأخذ ريعها من أرضها غلالاً تبيعها، وبدا أن  
العين الراحية كانت في معيتها وضد الآخرين، فزّبت تجارتها وخاب  
سعيهم، حتى صارت كلمتها هي المسموعة بينهم، فلا يقطعون أمراً إلا  
بمشورتها، وإن حكمت بشيء نفذوه من فورهم، فزوّجت ابنها سميح  
لهويدا ابنة نسيم بن موسى، وزوّجت فخري لقدرية ابنة ناصف ابن  
إسماعيل، وحين قرر سعيد السفر للاستكمال تعليمه في أوربا زوّجته  
مديحة ابنة مجيد بن إسماعيل، وأصرت على سفرها معه، وزوّجت هيام  
من راضي بن رؤوف بن عزيز بن موسى، وحين كبر الأحفاد أخذت في  
تربيتهم وتزويجهم مذكّرة الجميع بما قاله الموريسكي لجدهم رزق الله  
في تغريته: «ليس للموريسكي أن يتزوج بغير أهله»، فزوّجت جمال بن  
فخري من لميس ابنة رامز بن نسيم فأنجبا عفيف وأسعد، وحين سمعت  
أن جنى ابنة فخري تعرف طالباً في دار العلوم زوجتها من رفيق بن  
سميح، فأنجبت منه يوسف ونجاة، وظلت هانم رابطة العقد في البيت  
حتى ماتت قبيل الحرب الكبرى في أوربا، فلما علم الموريسكيون بقرب  
قدوم الألمان إلى مصر خشوا على أنفسهم، فقرروا الفرار بحياتهم لبلاد  
بعيدة عن الحرب وآثارها، ولم يكن سميح من القوة بما يكفي لمنعهم،  
غير أنه ذكرهم بوعد العين الراحية لحبيب الله أن من يخالفه ويغادر  
بيته لا ينال إلا غضبه، لكنهم خالفوه، وتاهوا في بلاد لم يعد منها إلا  
صغارهم، وفتح الله على سميح حتى اشترى مصنعاً كبيراً للزجاج، وراح

يديره بنفسه حتى هلك تاركاً الأمر من بعده لرفيق، ذلك الذي نال من اسمه الكثير، فسعى للعيش على ضفاف الحياة برقة لا حدود لها، وزهد أطمع فيه عفيف بن جمال وزوجته جواهر، ومات تاركاً العمادة في يد جنى ابنة فخري بن حبيب الله، التي جاءت محنتها كمحنة عمها سميح، ولم تمضِ شهور على رحيل زوجها حتى سقط الأسانسير بها، ثم طالبها أبناء أعمامها بالتنحي عن العمادة لأي منهم، لكنها قالت: ما ألبستني إياه العين الراعية لا أنزعه لأحد، فتركوها وفروا كما فرَّ آبأؤهم من قبل في شتات طويل».

كانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها مراد العين الراحية، كان في الحلم واقفًا في ميدان التحرير مع أصدقاء لا يتذكر أيًا من ملامحهم، والميدان مزدحم بأناس تفد من كل اتجاه تحت رايات وأعلام متباينة، بينما الخيام التي نصبت على الكعكة الحجرية تفضج بأعداد المصابين النائمين داخلها، وأبوابها مغطاة بلوحات تزينها خطوط يدوية هزيلة، وبلا مقدمات راحت السماء تمطر بمياه حمراء، والريح تشتد ضاربة جدران الخيام التي تدافع الناس لدخولها، فوقف مراد ينادي على أصحابه ألا يذهبوا معهم، لكن أحدًا لم يكن ليتبه لندائه، ولم يكن لصوته أن يخرج أبعد من جدران فمه، حين أصابه اليأس جلس على الأرض مستسلمًا للهزيمة التي حطّت بصمته لا مثيل له على المكان، رافعًا نظره نحو عمر مكرم الواقف على منصته في شموخ باهر، وهو يشير بيده تجاه فارس ملثم يدخل الميدان من جهة جامعة الدول، شعر مراد أنه يعرف الجواد وصاحبه، وأن الأمر مألوف بالنسبة له، فظل جالسًا في مكانه حتى توقف الفارس أمامه: «ما بك يا مراد؟»، وأجابه

الأخير: «الخوف يا جدي». فضحك الفارس: «وكاننا ولدنا دون خوف يا بني؟!»، ولم يكن لمراد أن يسلم بأنه جاء من خوف إلى خوف، فأوماً برأسه ساخرًا، هنالك انحنى جده من على جواده العالي مهددًا: «رفقًا بنفسك يا بني، فلا هي تملك غير ما تفعل، ولا أنت تملك غير ما ترى». ثم اعتدل لا كزًا جواده بقدمه الطويلة فانطلق كالرمح في سهول واسعة على امتداد البصر.

قالت الجدة إن العين الراعية لا تجيء إلا ساعة الخطر: «فما الذي حدث؟»، هز رأسه بحزن قائلاً: «لا أعرف، لكنني أواجه بعض المشكلات في عملي»، ربت كتفه ثم حركت كرسيها لتحضر له عودًا من النعناع الأخضر، وما لبثت أن تركته لتذهب إلى مكانها الأثير بالشرفة. لكن مراد أخذ الأمر على نحو مختلف، فقد استقر بذهنه أن هلاوسه وتهيؤاته بلغت حدًا أكبر مما يحتمل، فاتصل بصديقه الطبيب طالبًا لقاؤه، كان الأخير مشغولًا مع مرضاه في عيادته بباب اللوق، فطلب منه أن يمر عليه بها، حين ذهب لم يجد أحدًا سواه، ولم يأخذ كثيرًا من الوقت حتى وجد نفسه مستريحًا على الشيزلونج مستمتعًا بسريان حقنة الاسترخاء في أعضائه، فأغمض عينيه وراح يغوص في أعماق نفسه، كان يسير في سراديب ملتوية ومظلمة ولا يرى فيها سوى ضوء ضعيف في نهايات أطرافها، كان يلهث في سيره من أجل الخروج من هذه الأنفاق المظلمة، كان يود لو أن بإمكانه العودة إلى حيث ترك الطبيب أمام الشيزلونج ليتوسل إليه ألا يدخله هذه الأنايب الموحشة،

لكن دوامات من الريح الباردة كانت تدفعه نحو الأمام، ولم يكن أمامه سوى الاستجابة السريعة قبل أن تلحقه دوامات الصراخ العالية الآتية من بعيد، في النهاية وجد نفسه خارجًا من كهف جبلي يطل على سهول واسعة خضراء، وجد أناسًا في طريقهم للكهف خوفًا من ملاحقة جنود وكلاب مدربة تطاردهم، لم تكن أعداد الراغبين في الاختباء كبيرة، وثمة دخان كثيف كان يشتعل في السهول المحيطة، وعلى البعد كانت أسراب كبيرة من البشر تسير نحو الجنوب، أسراب لم يكن قادرًا على حصرها ولا معرفة هويتها، لكنهم كانوا مستسلمين لعدد قليل من الخيالة المحلقين حولهم، كما لو أنهم كانوا مقرين بالجريمة التي يستحقون من أجلها هذا العقاب، حين قرر بعض الجند أمام الكهف جمع ما يستطيعون من عشب ليشعلوه في المدخل توقع أن مصير من لجئوا إليه ليس أفضل حظًا من المقيدين في أسراب متباعدة، كان بوده أن يعود إلى الكهف ليخرجهم منه لكنه لم يستطع، حاول أن يمنع الجنود المتباهين بقسوتهم عن إشعال النيران لكنه لم يستطع أيضًا، بدا له أنه محض هواء لا يؤثر في شيء، أو أنه ظل ضعيف لرجل يرقب المشهد بعينين يابستين وأنفاس حبيسة بين الصخور، حين رحل الجنود رحل خلفهم موقفًا بمصير من تعالت أصوات سعالهم في ظلمة الكهف الممتلئ بدخان مشبع برائحة القار، كان عليه أن يلحق بالجماعات المستسلمة لمصيرها وهي في طريقها نحو البحر البعيد، لا يعرف كم لبث معهم من الأيام في تلك الرحلة التي تساقط فيها الكثيرون من الجوع والخوف والتعب، كان الحراس يضربونهم بالعصي والكرابيج إذا تلوأوا في مشيهم، وكان على الجميع



أن يجبر في سيره من أصابه الإعياء أو اسودت الدنيا في وجهه فرفض الذهاب نحو المصير المجهول، وكان الجنود إذا رأوا أيًا منهم وقد أصبح حملًا ثقیلاً على المسيرة يتبرعون بضرب عنقه أمام الجميع، كان الكل يعلم أن الموت قدر لا مفر منه، ومن لم يمت من الإجهاد مات في السفن العجوز التي تنتشر الآن على الشاطئ، لم يكن لأحد أن يفكر في قدرة السفينة على حمل من تسلقوا جنباتها، بقدر ما كانوا يفكرون في البحث عن رشفة ماء أو كسرة خبز على ظهرها، كانت النساء تصعد في البدء مع الأطفال، ثم تأتي لحظة الهجوم من الرجال والصبيان، عجائز كثيرون داستهم الأقدام وهي تهول في سعيها نحو طوق النجاة من العذاب، وربانو السفن يصرخون فيهم أن يتراجعوا أو يعاونوا بعضهم بعضًا، لكن ذلك كله كان بلا جدوى، ولم يكن الجنود الذين رافقوهم إلى الشواطئ معينين بغير منعهم من العودة إلى الوراء، كان البعض يلطم خديه متشبثًا بالأرض الواقف عليها كأنه اكتشف فجأة أنها نهاية الحلم وبداية الكابوس، وأن تراب أجداده ستذريه الرياح من بعده، وأن أحلام العودة ليست سوى ضرب من الخيال، بعضهم كان يقبل أقدام الجند الجالسين على صهوة جيادهم من أجل أن يعودوا ليأخذوا أطفالهم معهم، لكن ذلك لم يكن يثير لدى الجند سوى مزيد من الضحك بأصوات متعالية، بينما السياط التي مزقت الملابس والجلود كانت تقول للجميع إنهم لم يعد لهم مكان على هذه الأرض، في النهاية كانت السفن تتمايل على وجه الماء بحملها الزائد كما لو أنها تبتهل لله أن يمن عليها بالغرق، ومع أول موجة كان الذين على السطح أو الحواف يتساقطون في العباب

الهائج، البعض كان يمد يده ليلتقطهم، والبعض كان يتساقط خلفهم، ودوامات البحر تجرف الجميع كوليمة سماوية للسماك الجائع، بعض الساقطين تصور أنه عبد الرحمن الداخل، وقرر مغالبة الموج من أجل الوصول إلى الشاطئ الآخر أو حتى أطراف الأنامل الممتدة من على سطح السفينة باتجاهه، بعضهم استسلم لمصيره وعدم معرفته بالبحر من الأصل، وراح يغوص منجرفاً مع الماء المالح، وبدأ أن السماء نفسها كانت أكثر قسوة عليهم من الجنود الذين شيعوهم بالضحكات، ف راحت تغيم وتزمر وتبرق، وبعدها هطلت بسيول لم يعرف الناس في بلادهم مثلها، حتى إن الذين شكُّوا في قدراتهم على احتمال العقاب صرخوا في وجهها: «ما الذي فعلناه من أجل كل هذا العذاب؟!»، لكنها لم تكن لتستجيب للضعفاء، فظلت سادرة في غضبها، وظل البحر يضرب جنبات السفن العجوز كأنها حبات رمل في غربال مشدود، في النهاية قال الربان إنه لا يمكنه الاقتراب من الشاطئ، وعليهم أن يقطعوا المسافة المتبقية سباحة، فصرخت النساء القابعات في جوف الخشب: «لا نرغب في الموت»، والربان يقول: «كل رجل يحمل طفلاً على جسده وامرأة في ذراعه». بعضهم ضربه بما تبقى لديه من قوة على الغضب، وبعضهم قرر أن يقود السفينة التي لا يعرف عنها شيئاً، لكنها أعلنت عصيانها الأبدي، فاستسلموا على أمل أن مَنْ يصل أولاً سيلقي لهم بحبال النجاة، لكن مَنْ كان يقطع الأمتار الطويلة في مصارعة الموج ما كان له أن يفكر في غير التقاط أنفاسه، حين استفاق بعضهم وألقى بها فبدت الحبال كما لو أنها أسراب نمل تطفو على الماء بينما الموج يطيح بسيرها كلما انتظم،

الكثيرون ماتوا غرقاً وخوفاً وربما رغبة في وضع حد للعذاب، البعض كان الموج رحيمًا به فألقاه من حيث لا يدري على الرمال لتلتقطه أيدي المغاربة المنتظرين بخيامهم في الجنوب، كانوا سعداء بلقياهم كما لو أنهم رزقوا بكنز بحثوا عنه عشرات السنين، وما بين جند الكراييج والسيوف في الشمال، وجند ضاقوا ببضاعة فاضت عن حاجتهم في الجنوب، كان البحر يذهب ويعود بمزيد من الأجساد، وبين العيون المتحجرة من الخوف رأى مراد وجه جده محمد بن عبد الله بن جهور يطل من بين الجموع كأنه نبهم في هذا الظلام، حين وقعت العين على العين انتفض صائحًا على جده، لكن الأخير لم يسمعه، وأخذ يضرب يده على مجلد كبير قائلاً: «كل شيء بكتاب».

ربحت ناريمان الرهان ووصل الإخوان إلى الحكم، كان ذلك بالنسبة لمراد صدمة ألزمته الجلوس في البيت عدة أيام لا يود فيها رؤية أحد أو سماعه، في النهاية جاء أستاذ التاريخ لزيارته، لم يكن لدى أي منهما رغبة في الحديث، بدوا كما لو أنهما جنديان خرجا من معركة فقدتا فيها كل شيء، حتى القدرة على النظر في وجه بعضهما، بعد صمت طويل أعلن ضابط الأمن أنه بحاجة لتدخين حجري شيشة على أي مقهى، لم يرفض مراد ولم يقبل أيضًا، لكنه تحرك بألية المستسلم لفعل بدا كأنه قدر مكتوب، حين جلسا على طاولة بمقهى منعزل في السيدة زينب ظلا صامتين كأنهما في انتظار تقبل العزاء من الناس، لكن أحدا لم يعرفهما انتباهًا، حتى عامل المقهى نفسه كان يرقبهما من بعيد دون أن يقترب من مكانهما، وحين طلب منه المقدم شايًا وشيشة تمتم لنفسه: «بكرة يمنعوها»، فنظرا إلى بعضهما وانفرطا في موجة من ضحك لم يعرفا سببًا له، بعدها وضع مراد عينه في وجه صديقه: «كيف حدث هذا؟»، ولم تكن لدى مقدم الأمن إجابة، فسحب نفسًا طويلًا وأطلق عدة دوائر من

الدخان قائلاً: «أوراقهم كانت أفضل، والأمريكان وغيرهم كانوا يفكرون ويدعمون بكل ما لديهم، لعبوا على مشاعر الجميع واشتروا الكثيرين، ولم يكن باستطاعتنا وقفهم». ضحك مراد ساخراً: «أين المشير والقوى الوطنية من هذا؟»، صمت مقدم الأمن ولاحت في عينه دمعة وهو يقول: «ما الذي نتوقعه من رجال في السبعين من أعمارهم، يجزؤون خلفهم غنيمة أكبر مما قد يكسبونه من حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل».

شعر مراد بأن ما يقوله صديقه الآن هو ما كانت تقوله ناريمان من قبل، وأنها ربما في قرارة نفسها لا ترغب في ذلك، ولا تتمنى التعاون مع جماعة تحكم باسم الله، لكنها بالتأكيد تعرف أكثر منه عما يجري في العالم من حروب وصفقات، وتسرب إليه شعور بأنه مدين لها باعتذار؛ لأنه تخيل أن العالم تحكمه إرادات الشعوب، في النهاية سأل صديقه: «هل سنستسلم؟»، فمسح الرجل وجهه من الحزن مشيراً للعامل المقهى أن يغير الحجر: «الحرب جولات، وليس شرطاً أن من يربح أولاً يربح أخيراً، وفي بلد أصبحت العشوائية فيه نظام حياة تصبح المعارك أطول مما نتوقع لها، ومن الصعوبة الحديث عن نصر أو خسارة»، تذكر مراد أن عدة ملايين الآن يجلسون في بيوتهم بلا عمل، وأنهم على استعداد للتعامل مع الشيطان طالما سيسد جوعهم، تذكر أيضاً أن هذه البلاد منذ قديم الزمن يحكمها الكهنة القابعون في غرفهم المظلمة، وليس الفراعنة العاجسون على كراسيهم المذهبة، فارتسمت على وجهه ظلال ابتسامة لمحها ضابط الأمن سائلاً عن سببها، فهشَّ مراد ذبابة حومت

على وجهه: «لا أعتقد أن راشيل متورطة في شيء»، هنالك أطلق الرجل سحابة من دخان أخذ يتابع حلقاتها في الهواء قائلاً: «يبدو أنك لم تعد تعرف إن كانت ابنة عمك أم أنها جزء من مخطط رُسم في بلاد بعيدة».

كان المقهى قد بدأ يزدحم بالوافدين، وراح الجميع يضرب ودعه محللاً ما يجري، فتعالت الأصوات وانتقل التوتر إلى النقاش، والتقط مراد الخيط قائلاً لصاحبه: «الكل يرى أنكم الطرف الثالث»، ورد الثاني: «ما المصلحة؟»، نظر مراد متعجباً: «فمن يكون إذا؟»، المقدم: «ليس كل ما يُعرف يُقال يا صديقي، فنحن نجمع المعلومة، ونرفعها لصاحب القرار»، «ما الدليل؟»، هكذا قال مراد بغضب، وأجابه رجل الأمن الحاصل على دكتوراه في التاريخ: «من اليوم سيختفي هذا الطرف، فهل عرفت من كان وراءه؟»، كانت كلمتهما قصيرة ومتلاحقة كتبادل إطلاق النيران، وحين شعر كل منهما أنه أوجع صاحبه بما يكفي أغلق فمه وغرق في صمته، لكن رجل الأمن ما لبث أن وضع مبسم شيشته على المنضدة تاركاً المقهى، فانتفض مراد خلفه ليصطدم بعشرات الأكتاف لاحقاً به في الميدان الواسع قائلاً: «بقي لديّ سؤال يخصني»، نظر إليه مقدم الأمن وهو يهز رأسه بأسف: «لم يعد للموريسكيين وقف»، حينها فغر مراد فاه، فزاده أستاذ التاريخ بيتاً جديداً من الصدمات: «بعد أن عاد محمد علي من الدرعية منتصراً، كان عليه أن يواجه المماليك المتجمعين على حدوده مع السودان، ولم يكن أمامه سوى أن يلغي الأوقاف ويضم أرضها للدولة، كي يتمكن من تجهيز جيشه الجديد، وظلت البلاد

بلا أوقاف حتى جاء الخديو ليسمح بأن يوقف الناس ممتلكاتهم لخدمة أعمال خيرية، لكن ذلك لم يعنِ أن الأوقاف القديمة تعود لأهلها ولا للأعمال التي أوقفت عليها، والدولة لا تعترف إلا بوثائق الوقف التي تخص الفترة من سعيد إلى ثورة يوليو، فبعدها ضمت الثورة أراضي الوقف إلى الإصلاح الزراعي، وحتى لو كان ثمة اعتراف بوقف من قبل مجيء محمد علي للحكم فهل تعتقد أن هناك محكمة يمكنها أن تصرح بعودته؟ حتى وإن فعلت فهل تعتقد أن هناك حكومة يمكنها أن تستجيب لهذا الأمر، لقد مضت سنوات طويلة والتاريخ لا يعود إلى الوراء»، كان المقدم يتحدث بهدوء وحزم، لكن ذلك لم يمنع رغبته في التمتع بإيلام صديقه مثلما أغضبه الأخير في بداية لقائهما اليوم، فانفجر مراد في وجهه متحدثاً عن الدستور والقانون، لكن رجل الأمن المدرب على ضبط الأعصاب ابتسم من جديد قائلاً: «للدساتير أن تقول ما تريد، لكن الحياة تسير كما ترى، والدولة ما زالت هي الصانع الوحيد والزارع الوحيد، ونحن لم نفارق بعد خطة الباشا الكبير في تغييره لثقافة المماليك، فدع وثيقة أهلك محفوظة في الأرشيف الكبير، ولا تسع في أمور إن لم تضرك فلن تفيد سوى غيرك».

أدرك مراد أن أحلام جدته في استعادة الوقف قد تبخرت، وأن عليه أن يعيش حاضره دون آمال في العودة للماضي، للحظة تحجرت عيناه، واجتاحته الرغبة في البكاء، لكن صديقه الذي شعر أنه أوجعه بما يكفي ربّت كتفه، وأخذته من يده معدلاً مسار طريقهما نحو محطة مترو سعد

زغلول، كانا يتفاديان الناس بشق الأنفس في شارع السوق، ومراد يسأل: «ألا يوجد أمل؟»، وبوهن مصطنع ضحك المقدم: «طالما ما زلنا على قيد الحياة فثمة أمل»، طأطأ مراد رأسه بحزن من يسير في مشهد جنازتي وهو يغز في سيره خلف صديقه، حين انتبه إلى أنهما خلفا محطة المترو وراءهما توقف عن السير، لكن مقدم الأمن الذي زال غضبه ابتسم من جديد وهو يقول: «دعني أستضيفك على شيشة في مقهى المفضل».

على مقهى جانبي في شارع ضريح سعد أخذ مراد ينفث سحبا من الدخان ذي الرائحة العطرة، بينما صديقه الحاصل على دكتوراه في التاريخ ينظر في عينيه قائلاً: «لم يكن موت طاهر الحر هو نهاية نضال بقايا الموريسكيين من أجل دولة تخصهم، فقد كان موته بداية لشرارة جديدة في لشبونة بحثاً عن الاستقلال شرق الأندلس، فقد أخذ رجاله يكتبون منشورات يوزعونها على الأهالي في القرى بأن موته لم يكن سوى نتاج خيانة، وأن عليهم أن يكملوا الذي بدأه كي ينعموا بالحرية والسلام، فأخذ الناس يغيرون على القوافل المحملة بالفضة من إشبيلية إلى مجريط، وكانت إسبانيا وقتئذ منشغلة بحرب السنوات الثماني مع الهولنديين، فتشجع الناس على التظاهر في غرناطة مطالبين بالانفصال، واكتشفت الحكومة المركزية مخططاً للانقلاب بقيادة دَبَّاح في غرناطة يدعى فرناندس دي ماهاندون، فقد درب ما يزيد على ثمانية آلاف من أبناء البيازين وأجوارها على حمل السلاح للاستيلاء على غرناطة، لكن قبل أن يأتي الوقت المحدد لبدء خطته انفصل عنه أحد رجاله وكشف مخططه لحكومة مجريط، فحاصر الجيش البيازين وأعدم



ماهاندون وخمسين شخصًا من كبار رجاله، ونفوا أكثر من خمسة آلاف رجل إلى خارج غرناطة، كان الأمر بالنسبة للإسبان فاجعة، فقررت حكومتهم معاقبة الموريسكيين جميعًا بالإهمال، فلم تقدم لهم يد المساعدة حين انتشر الطاعون في العام التالي، وتركتهم للجوع والبرد تحت وطأة الجفاف الذي ساد الأندلس، وظلوا خائفين من الخروج على الحكومة حتى ماتت لسيده جاليقية طفل من الجوع، فحملته على ذراعيها وخرجت تصرخ في الشوارع بالدعاء على حاكم المدينة، فتجمع الناس حولها بالعصي والسكاكين متجهين إلى بيته، لكنه فرّ ليحتمي بأسوار الكنيسة، فعادوا إلى بيوت النبلاء مشعلين النيران فيها، ثم عرجوا على بيت المطران فأخذوا ما به من قمح وشعير، وجلسوا مكونين مجلسًا ثوريًا من بينهم، معينين من قبلهم حاكمًا على قرطبة يدعى ديبكو فرنادس، وطاردين النبلاء من مدينتهم وأجوارهم، ملزمين مجريط بقبول خطتهم وحكومتهم الجديدة، ولم يكن أمام الملك سوى أن يعلن عفوّه عن كل من شارك في الثورة، ومرسلًا لفرنادس ألف دوقه ليشتري بها قمحًا لأهل قرطبة، كان لهذه الثورة مفعول السحر في نفوس الأندلسيين، فحذا أهل إشبيلية حذوها، وقادهم رجلان يدعيان أيزديرو طريس وفرانسيسكو هورتادو لطرد النبلاء من المدينة، وتشكيل حكومة ثورية، جاعلين مصارف الري خدمة للجميع».

كانت الشمس قد أوشكت على الغروب حين توقف أستاذ التاريخ عن الكلام مبدئيًا رغبته في الذهاب، لكن مراد الذي استسلم لفكرة ضياع الوقف ما كان له أن يستسلم لعدم معرفة ما جرى لأهله ونضالهم، فأخذ

يلح على صديقه أن يكمل ما بدأ، فأشار الأخير إلى النادل لتغيير الشيشة وإحضار شاي، واتخذ موقعه كحكاء عجوز في مقهى قديم قائلاً: «حين اجتاحت جيوش بونابرت المقاطعات الإسبانية عام 1808، فرَّ الملك والنبلاء من أمامها، وشعر بونابرت أن إسبانيا العظيمة دالت له، لكن الشعب الذي تخلت عنه حكومته ما كان له أن يستسلم، فقد انتفض أهل قادس في وجه الفرنسيين ليذيقوهم أول هزيمة، بعدها تجمعوا من جديد ليهزموهم في معركة حاسمة على مشارف بايلن، مكونين في إشبيلية حكومة باسم المجلس المركزي للثورة، وأخذ ثوار قادس في وضع دستور جديد للبلاد، نصَّ على أن كل إقليم شبه ولاية مستقلة، من بين هذه الأقاليم الأندلس التي تضم مدن مملكة غرناطة القديمة، إلا أن هذا الدستور ألغي بمجرد عودته، وكان ذلك نكبة لكل الذين دفعوا دماءهم للدفاع عن البلاد التي تولى حكامها عنها، ولم تمضِ ثماني سنوات حتى نظم رجل يدعى رفائيل دل ريغو صفوف الثوار في الأندلس، مطالبًا بالعودة للعمل بدستور قادس، فاضطر الملك فرناندو السابع لإعادة العمل به، لكنه سرعان ما أرسل للفرنسيين كي يحتلوا بايون، أمرًا القساوسة بالصراخ على المنابر أن الديمقراطية أضاعت البلاد، فخرج المؤمنون ليهتفوا: تسقط الديمقراطية، عاشت محاكم التفتيش، وأمام هتافهم نزل الملك على رغبتهم وأوقف من جديد العمل بدستور قادس، فلم يجد الأندلسيون سوى محاكم التفتيش ليصبوا عليها غضبهم، فأشعلوا فيها النيران محرمين وجودها بينهم، وتوالت الثورات والانقلابات، لكنها جميعًا باءت بالفشل، ففي عام 1835 اندلعت ثورة

شعبية في مالقة، وسرعان ما انتقلت إلى إشبيلية وقادس وجيان وألمرية وقرطبة وغرناطة، ووضعت مجالسها الثورية دستورًا جديدًا عرف بدستور أندوخار بمقاطعة جيان، نصّوا فيه على أن الحكم في إسبانيا كونفدرالي، مكونين جيشًا انتصر على جيش الملك في معركة مرمى الكلاب، وهو الوادي الذي كان القشتاليون يلقون فيه بالموريسكيين لتأكلهم النار، غير أن قادة الاتحاد حلوا أنفسهم بعدما وعدهم وزير الملك بالموافقة على مطالبهم، لكن النضال من أجل قومية أندلسية لم ينته، حتى جاء بلاس إنفانتي وكاد يعلن دولة خاصة بالأندلس، لولا أن البلاد سقطت في يد فرانكو الذي ألغى الملكية وعصف بكل معارضيّه، فلما انتهى عصره عادت البلاد للملكية على دستور جديد مستوحى من مبادئ قادس، وروح بلاس إنفانتي الذي لُقّب بالأب الروحي للقومية الأندلسية في إسبانيا».

دفع بي فرناندو لخطبة هند ابنة الحبقي قائلاً: «سيكون أفضل عرس في البشرات»، لكن قلبي كان منقبضاً من شيء لا أعرفه، فظلتت أوجل الأمر لحين ظهور أبي من جديد، فمنذ صرخت فيه في خيمتي عقب مقتل ابن أمية وأنا ألتمس ظهوره، لكنه لم يأت، في النهاية وأمام إلحاح فرناندو وكلمات الحبقي المسمومة قلت فلتكن خطوبة فقط، فالإسبان قد كسروا عن أنيابهم وهناك أنباء عن تجهيزهم جيشاً جديداً، دخلوا على ابن عبو وفاتحوه في الأمر فاستحسنه قائلاً: «كي تطمئن قلوب الناس، ولا يذهب بهم الفرع في الأودية والشعاب»، حملني فرناندو على كتفيه وهو يدور بي صائحاً: «هذا عريس البشرات»، بينما التهاني تأتيني من كل حذب وصوب، حتى إنني لم أكن أعرف على من أرد ومن أقبل، هم أنفسهم لم ينتظروا ليعرفوا من العروس، فقد كان الحبقي يمشي بجانب فرناندو دون أن يلتفت إليه أحد، لكنهم راحوا يهتفونه بحفاوة في حفلة السمر، وأصروا على رقصي معه بالعصا، كما أصروا على أن أحمله على ظهري من موقع الحفل إلى خيمة العروس، فحملته وهرولت به والفتيان

يهتفون خلفي حتى خرجت هند من خيمتها في كامل زينتها، يومها رأيت  
بدرًا منيرًا يطل برأسه من كوة مظلمة، فألقيت بالحقي وشخصت بنظري  
في جمالها، ولم أنتبه إلا على صياح الفتيان من حولي وضربهم كفاً  
بكف وهم يضحكون، ثم صاحوا بي: «قَبِّلْهَا»، ففعلت، وراح الخجل  
يعلونا حتى اجتذبتها عشرات الأيدي من داخل الخيمة، وحين هممت  
بالدخول خلفها أمسك بي الحقي ضاحكاً: «قلنا نصف إكليل وليس  
إكليلاً كاملاً»، فضحكت وأنا أقول: «حين يمن الله علينا بالنصر سنقيم  
عرساً يليق بها».

قلت لها: «لم أكن أتخيل أنك بهذا الجمال»، قالت: «لم أكن أحلم  
أنني سأزوج قبل أن تعصف بنا الدماء»، كان ذلك بعد حفلة السم، فقد  
قرر الجميع أن يتيح لنا فرصة للتعارف، حين أبدت غضبي من جملتها  
راحت تعتذر عن صدقها، هونت من الأمر قائلاً إنني أيضاً لم أكن راغباً  
في خطبتها إلا بعد أن تهدأ الأحوال، لكن الله أراد لنا أن نكون عريسي  
البشرات في أيام كهذه، وأخذت أعدها بمستقبل يليق بجمالها وحياتها،  
فكشفت عن وعاء به طعام: «دعنا نأخذ بركة الحفل»، هكذا قالت ثم  
نظرت إلى القمر الساطع في السماء باكية، سألتها عن سبب البكاء،  
حدثتني عن أمها التي قُتلت، وشقيقها اللذين راحا في الأسر، وحلمها  
بحياة ليس فيها قتل ولا حرب، ليس فيها مسيحية ولا إسلام، مسح  
على رأسها وأنا أبكي متذكراً أُمِّي وأختي وعمي باديت وزوجة ابنه بيلارا  
التي قالت: «سنتظرك على حالنا». وراح كل منا يحمّل القمر أمنياته بعالم

ليس فيه غير المودة والسلام، لكن سحابة كثيفة طفت فجأة على وجهينا فاستيقظنا من أحلامنا على فاجعة استشهاد حسين التركي، ولم يمض شهر حتى خسرنا كمبيته ومارو ونرجة وبرجة وقمارش وكوثر وبني مرغوشة، ودك دوق دي أركش بجيشه الكبير ومدافعه العملاقة مواقعنا في الجبل الأحمر بأربوطو والحصينة وقصر بنيرة، وأمر خوان بنقل كل من نجا من القتل إلى قشتالة مباشرة، فكنا نراهم من أعلى الجبل سائرين في سلاسل متباعدة كقطط مستأنسة وسط حراسة من جند مزودين بمطارق وهرأوى، ولم يجرو أي منا على النزول لنجدتهم، في ذلك الوقت حضر رسل الإسبان لابن عبو مطالبينه بالاستسلام والدخول في طاعة فيليبي الثاني، لكن الأمير ألقى على مسامعهم خطبة عن الذل الذي لاقاه أهلنا منذ استسلم عبد الله الأحمر للملكين الكاثوليكين، موقعًا معاهدة لم يدم احترام بنودها لأكثر من ستة أشهر، وانتهى إلى أن لديه من الزاد ما يكفيه للاعتصام بالبشرات عشرة أعوام كاملة، ولو أتى أمر الله بالهزيمة فإنه يفضل الموت عن قبول الهوان في بلد لا يحترم العهود ولا المواثيق.

كان فرناندو وبرناندينو بن عامر وكونسالفو الشنيش والحبقي، الذي أصبح قائدًا عامًا للجيش بعد مقتل ابن مليح، ممن شهدوا اللقاء، وقد أسقط في يد الجميع من عنف ابن عبو في الرد، حتى إن هرناندو برادة الذي تطوع بالوساطة في الصلح احمر وجهه ولم ينطق سوى بجملة واحدة: «لقد أغلقت كل النوافذ على نفسك يا صاحبي»، ثم خرج برفقة

مَنْ حضر بصحبته، بينما هاج الحبقي في ثورة لم تكن نتوقعها منه، حتى إننا خفنا أن يجرد سيفه ويضرب به ابن عبو أمامنا، فأخذه الشنش وابن عامر وخرجا ليهدئا من ثورته، ووقفت وفرناندو حائرين لا نعرف إلى أي الفريقين ننحاز، بينما ابن عبو يلعن ويسخط قائلاً: «الموت أشرف من الحياة بلا دين ولا أهل ولا وطن، الموت أشرف من كأس الذل التي يريدوننا أن نتجرعها حتى النهاية»، فرحت أهون عليه قائلاً: «إنها الحرب، وإننا يمكننا أن نطيل المفاوضات إلى أن نوقف زحفهم لترتيب أوضاعنا، ويكفي ما خسرناه من مدن وقلاع وأرواح». بدا على وجهه أنه يفكر في رجاله الذين بلبلهم الحلم بالحياة حتى ولو في ظلال الأسر، وبدا فرناندو كما لو أنه غير مرتاح لما يدور من حوله، فظل صامتاً حتى خرجنا نبحث عن الحبقي وبرادة، إلا أننا علمنا أنهما تركا معسكرنا في برشول وترفلش وذهبا إلى قمة جبل شلير، فأصدر ابن عبو قراره بعزل الحبقي وتعيين فرناندو قائداً للجيش، وفوجئنا بمناشير يتناقلها الجنود فيما بينهم سرّاً بفتوى لشيخ مسجد البشرات لوبيز بن عدول يطالبهم بالاستسلام والخلاص من المصائب التي جرّها ابن عبو على الجميع، حين بحثنا عنه لم نجده، وأدركنا أن الأمر باتت تشوبه المؤامرة، وعلمنا أن الحبقي وهرناندو برادة يرسلان الجميع، مطالبينهم بالضغط على الأمير للاستسلام، ثم ظهر رسل الإسبان من جديد، بصحبة دون ألونسو دي غرناطة، وهو واحد من أصدقاء ابن عبو القدامى، فراح يحثه على التفاوض والحصول على أفضل الشروط، أرسل الأمير للحبقي موكلاً إياه في التفاوض، فلما ذهب إلى الإسبان اتفق معه مجلسهم العسكري

على أن يذهب لدون خوان مسلماً سلاحه ورايته طالباً العفو عن ابن عبو ومن معه، ففعل، ومنحه دون خوان الأمان للجميع، على أن يرحلوا من البشرات إلى مكان بعيد، ووافق الحبقي، ثم عاد إلينا بمندوبين ليتسلماً صك الاستسلام من ابن عبو، لكن الأمير ما إن علم بالشروط حتى صاح في الحبقي: «جئتنا بمن يمن علينا بقبوله استسلامنا؟ ولم تحفظ لأهلك البقاء على أرضهم ولا دينهم أو حتى لغتهم وأزيائهم؟ فلم كانت كل هذه الدماء؟». كان الحبقي ينظر في عين الجميع ملتصقاً بمن يناصره ولو بكلمة، لكن أحداً لم يجرؤ، كانت الشروط مذلة ومهينة، وكنا جميعاً نحلم أن نضع سلاحنا ونعيش حياتنا في هدوء، لكننا لم نتخيل قبوله بأقل مما رفضناه قبل ثورتنا المشؤومة، فقلنا إننا مع ابن عبو في رفضه، ولا بد من عودته لتغيير الشروط، فخرج كالذاهب إلى الموت، ثم عاد من جديد برسل جديدة دون تغيير، فعادوا كما حضروا، ولم تمض أيام حتى وجدنا الحبقي برفقة مجموعة من القشتاليين يتسللون إلى كهف الأمير، صاح عليهم الحرس من المتطوعين الجزائريين بالتوقف، واشتبكوا معهم في قتال عنيف، وسرعان ما صحونا على العجبة التي انتهت بأسر الحبقي ورجاله، وعلمنا منه أنه منح دون خوان وعداً بتنفيذ اتفاهه منفرداً، فأمر ابن عبو بقتله، ثم أمرني بكتابة رسالة إلى دون خوان على أنها من الحبقي قائلاً: «حدثت الأمير ورجاله فيما اتفقنا عليه فقالوا إنهم لا يمكنهم تغيير دينهم ولا أزياء آبائهم، ولا يمكنهم مغادرة البشرات والسعي في بلاد لم تطأها أقدامهم من قبل، فإذا حفظتم لهم ذلك فيمكن التفاوض مع الأمير على التسليم». ثم أمرني بكتابة رسائل لرؤساء المناطق كي يواصلوا الحرب،



ورسائل أخرى إلى أهل المغرب والجزائر يستحثهم فيها لدعمه، لكن الأمد طال، فسرعان ما علم الإسبان بمقتل الحقبى، وأدركوا أن الأمر محض خدعة، فجهزوا أربعة جيوش بقيادة دون خوان ودي سياسة ودون ركيصانص ودوق دي أركش، وبدأوا هجومهم الشامل على البشرات من كل جانب، كانوا يحرقون كل ما أمامهم، مطلقين مدافعهم على الجبال والوديان، حتى لاذ الجميع بالصخور والكهوف، ولم يكن لدى الإسبان وقت لينتظروا خروجهم منها، فكانوا يجمعون ما تقع أيديهم عليه من عشب وقار فيشعلونه فيها، موقنين بموتهم مختفين في ظلمة كهوفهم، وراحوا يشعلون النيران في وادي شيش حتى أصبح كجهم الحمراء، وكل من قبضوا عليه من الموريسكيين ألقوه فيه قائلين: «إلى مرمى الكلاب»، حتى عُرف الوادي بهذا الاسم، وصار الفرع من الاستسلام أكبر من الفرع من الحرب، فتشتت الجميع، وضاعت القلوب، وانكشفت المداخل، ولم يبقَ معنا سوى أربعمئة رجل لا نعرف كيف نصد بهم هذا الطوفان من القشتاليين، وفجأة ظهر كونسالفو الشنيش بعد شهر من ذهابه إلى المغرب، ظهر بصحبة عشرين رجلاً، قال إنه كان من المفترض أن يصل بصحبة مئتي متطوع، لكنه لم يستطع تجنب الاشتباك في الحرب. فهللنا فرحاً به، ودخلنا على الأمير ابن عبو في كهفه فهناه على السلامة، مكلفاً إياه بأن يكون في الحرس الشخصي له، لكن لم يمضِ يومان حتى وجدناه يصيح فينا أن الأمير قد قُتل، دخلنا عليه فوجدنا رأسه مفصولاً عن جسده، ولا ندري كيف شاع الأمر بين الجنود بهذه السرعة، وكيف علم الإسبان به قبل الصباح، فنادوا علينا بالاستسلام، وكثفوا هجومهم

بالمدافع حتى إنه لم يكن هناك موطئ قدم إلا وتزلزل منها، فأدركت أنها النهاية، وليس أمامي سوى الجلوس بجانب جثة الأمير منتظرًا أمر الله فيما هو قادم.

لا يعرف مراد من أين علمت جدته بمجيء ناريمان، فالمرة الوحيدة التي جاءت فيها إلى البيت لم تكن الجدة قد استيقظت، هو نفسه لم يكن اطمأن بعد إلى أنها ابنة عمته، فلم يخبر جنى هانم بشيء، فمن أين علمت بمجيئها إلى مصر؟ حين سألتها عن ذلك أخذت ترفع صوتها مع المغنية التي ترنم بالدور الأندلسي القديم وكأنها لم تسمعه، فأعاد السؤال عليها بلهجة ضابط في قسم شرطة، حينها أوقفت صوت الكاسيت الرابض إلى جانبها قائلة: «تشممت رائحتها من بين عشرات العطور التي تضعها على ملابسها، حين نزلت القاهرة في المرة الأولى شعرت أن قلبي ارتجف في صدري، حتى إنني أغمي عليّ من فرحتي، وجئت أنت فأحضرت لي الطبيب، لكنني لم أخبرك بشيء، فقد جاءني جدك قائلاً إنك يجب أن تعرف بنفسك». لم يستطع مراد أن يمسك نفسه عن الضحك ونظرت الجدة في وجهه كما لو أنها تقول: «هل أدركت أنني لست مصابة بالخرف؟»، فتوقف عن ضحكه سائلاً: «وهل صدقتها؟»، أو مات بالإيجاب قائلة: «العين الراحية لا تترك أبناءها في محتهم، وناريمان

لك وأنت لناريمان». لم تكمل جملتها حتى رن جرس الباب فأمرته أن يفتح بدلاً من الخادمة العجوز، فتح الباب ليجد نفسه أمام ناريمان بشوب أبيض كعروس في يوم زفافها، وقبل أن يفتح فمه وضعت إصبعها على شفثيه: «جئت من أجل جدتي وليس من أجلك». ولم يستغرق الوقت أكثر من ذلك ليسمعاً من عمق الصالة صوت الجدة منادياً عليها، فتركته غير مستوعب لما يجري وهرولت لتغمر الجدة بالقبل، شعر مراد أن أسرار الموريسكي بدأت تشتعل أمامه، وأنه أصبح غريباً حتى في بيته، فاتخذ كرسيًا نائيًا وجلس يشاهد نسختين من سيدة واحدة، لكن إحداهما بالألوان والأخرى بالأبيض والأسود. حين أطلق ملحوظته هذه هبّت كلتاها لضربه وهو يستغيث بالخادمة التي فتحت باب غرفتها قائلة: «عايز حاجة يا مراد؟»، فما كان من ثلاثهم إلا أن سقطوا في نوبة ضحك جعلت الخادمة تعود من حيث أتت مغلقة على نفسها.

على الغداء سألتها: «لماذا لم تخبريني أنك التقيت بالجدة؟»، فأجابته: «ولم لم تطلب مني أن ألتقيها؟»، شعر أن موقفه ضعيف فلزم الصمت، بينما حرّكت الجدة كرسيها متجهة إلى غرفتها كي يطببا جراحهما على مهل، كان من المفترض حينها أن الموريسكي سيدخل كعادته تحت جلده كقنفذ يشعر بالخطر، لكنه تذكر ما قاله صاحبه مقدم الأمن. «لا ينبغي لهم أن يشعروا بضعفك»، فألقى بالشوكة من يده مستديرًا إليها بعينين محتدتين: «لأنني حتى الآن لا أعرف إن كنت راشيل أم ناريمان»،

كانت هذه الجملة بمثابة القشة التي قسمت ظهر البعير، فانها ل سيل من الدموع لم تستطع معه ضبط مكياجها وهي تقول: «كان بإمكانك أن تسأل الجدة»، فأمسك بنفسه عن «لا أستعين بخرافات العجائز»، وهي بدورها لم تنتظر رده فأردفت: «أو تسأل قلبك يا بن عمتي»، وكانت هذه الجملة كافية كي يشعر بمدى الجرم الذي ارتكبه، فوضع يده على كتفها قائلاً بصوت مخنوق بالدمع: «إنني في متاهة لم أعد أعرف فيها الخطأ من الصواب، فكل شيء مشوش، وكدت أوقن أنني مصاب بالخرف والتهبؤات، وصرت أشك حتى في أصابعي»، وفجأة تذكر كلاهما حركات يد الرئيس الجديد وحديثه عن الأصابع، فلم يستطع أي منهما إمساك نفسه عن الضحك، وانتهازها ناريمان فرصة لتغيير موجه العتاب قائلة: «هل تعرف أننا حصلنا على اتفاق لتعليمه فنون الإتيكيت، كان بعض رجالهم لدينا وتطرق الحديث إلى سلوكه وتصرفاته، في البدء كانوا فخورين باستعراض شجاعته حين أقسم اليمين الدستورية أمام الشعب في ميدان التحرير، وقد صورنا هذا المشهد وسوّفناه عبر عدد من الوكالات المتعاونة معنا، كان مشهداً عاطفياً قمنا بتقديمه على أنه شجاعة مفرطة، هم بدورهم شعروا أننا قدمنا عملنا بشكل محترف، فجاءوا ليلدوا الرغبة في التعاون بشكل أكبر، قلت إنه لا ينبغي للرئيس أن يستخدم لغة الجسد أكثر من اللازم، وشعرت أنهم لم يستوعبوا، فأشرت بإصبعي مثلما يفعل فلم يستطيعوا تجنب الضحك، وراحوا يبررون فعله بأنه رجل مسالم، انشغل لسنوات طويلة بتخصصه العلمي، قلت إن هناك

مؤسسات كبرى يلجأ إليها الساسة لتعلمهم مثل هذه الأمور، وبدا الأمر بالنسبة لهم مفاجأة، فاتفقنا على أن نتعاقد نحن مع مجموعة من الخبراء كي يرافقه عدة شهور».

لسنوات طويلة كان مراد يعتقد أنه لن يرى ناريمان من جديد، وأنها كغيرها من الموريسكيين الذين ذابوا في الرمال أو بطون البحار، لسنوات طويلة كان يعتقد أنه آخر الموريسكيين في المحروسة، وأن بموته ستنتهي المسيرة التي بدأها جده رزق الله بن يونس، ذلك الذي خشي أعمامه أن يثير الناس عليهم برعونه وكبريائه، قد كان على استعداد لأن يقتل أو يقتل لو شعر أن أحداً شكك في دينه، وكان أهل تونس قد بدأوا في مضايقة الموريسكيين الذين حطوا على بلادهم مقاسمينهم رزقهم وأرضهم، فطمعوا في البساتين التي خضروها، والبيوت التي أقاموها، مشككين في دينهم وولائهم لهم، فخشي عماء الربيع وعمار أن يجلب عليهما غضب الحكام في البلاد، فيدخلان بأبنائهما شتاتاً جديداً، حينها قرّرا أن يتخلصا منه في رحلة الذهاب بلا عودة، قائلين إنهم قد كثروا في المكان، وصار لأبنائهم رغبة في الزواج من التوانسة والبربر، ولم يترك لهم أخاهم يونس أو أبوه محمد بن جهور ما يدلهم إن كان يجوز للموريسكي أن يتزوج بغير موريسكية، وليس أمامهم سوى أن يستفتوا شيخ الأزهر بالمحروسة في هذا الشأن، راسمين له طريق الخروج من حومة الأندلس إلى مشارف مصر، فخرج من الحومة إلى بنزرت ومنها إلى المهدية فصفاقص، عابراً الصحراء التي بين طرابلس وتونس، ولم يكن قد خرج منها من قبل، فلما

وصل إلى سرت سأل عن الطريق إلى الأزهر، لكن أحدًا لم يفهم من حديثه المختلط بالإسبانية ولهجة أهل تطوان، ولم يكن الأمازيغ يعرفون هذه ولا تلك، فزودوه بالماء والطعام وأشاروا له على نجم في السماء، فلما غاب عنه تاه في الصحراء الواسعة، وخشي على نفسه من الضباع والسباع التي راحت تعوي عليه، فصعد ربوة وهو يصرخ فيها أن تتوقف، في تلك اللحظة ظهر جده عبد الله بن جهور على جواده الأبيض مطارداً السباع التي فرت من أمامه في الفلاة، فلما انتهى من أمرها سأله رزق الله عَمَّن يكون فأجابه: «أنا جدك، أنا العين الراعية لأبنائي في التيه»، حينها بكى رزق من اليأس قائلاً: «خرجت منذ أسابيع قاصداً المحروسة، فلا أنا وصلت ولا أنا قادر على الرجوع، كلت قدماي من السير، وطاردني الظمأ والجوع»، فجلست العين الراعية بجانبه على الربوة سائلة بحزن: «ولِمَ كل هذا العذاب يا بني؟»، أجابه أن عميه يريدان أن يسألا شيخ الأزهر إن كان للموريسكي أن يتزوج غير موريسكية؟ فصمت الجد حتى شعر رزق الله أنه قال ما يغضبه، فراح يسأل: «ألك خصومة هناك يا جدي؟»، لكن الجد الذي امتطى جواده ضحك قائلاً: «خصومتي مع مَنْ أرسلاك، فقل لهما إنه لا يجوز»، لكن رزق الله هز رأسه بالنفي قائلاً: «أعطيت عهدًا ولا بد أن أفي بالعهود، وما يقوله شيخ الأزهر أعود به إليهم»، فأردفه جده خلفه على الجواد وظلا يتبعان النجم الذي سطع في السماء، فلم يعرف رزق الله كم استغرق من وقت حتى أنزلته العين الراعية أمام باب الفتوح قائلاً: «هذه هي المحروسة، فاسأل أهلها عن شيخها».

كانت المحروسة قد انتهت قبيل وصوله بشهر من فتنة رجل ادّعى النبوة، وأظهر كراماته دافعاً الناس إلى التجرّد حتى من الملابس قبل أن تجيئهم القيامة، اتبعه السفلة والعوام من بيت إلى بيت، وانتشرت دعوته حتى صدقها الأغنياء وأهدروا أموالهم تقريباً لله، من بينهم أميرة تركية تركت قصرها ومزّقت ثيابها وراحت تجوب خلفه الأزقة والحارات، وفرغت الحوانيت وكسدت التجارة وانتشر الخوف في قلوب الناس، وشعر السناجق والأغوات أن مُلكهم سيزول على يد ذلك النبي الجديد، فجهزوا وليمة ودعوه إليها يوم الجمعة، فلما دخل البيت ومعه مجاذيبه وبهاليله أغلقوا عليهم الأبواب، وانهاّلوا على أجسادهم بالسياط، وأخذوه يستتيبونه على يد الفقهاء والشيوخ، لكنه أصرّ على أنه رسول الله، وأن القيامة ستقع في اليوم الذي يموت فيه، فأفتى الأئمة بقتله، لكن السنجق أمر بحبسه أسبوعاً علّ معجزة تحدث من أجله، ولما لم يُظهر كرامة طيف به في الشوارع وعُلّق على باب الفتوح والمنادي يصيح من أمامه: «مَنْ لا يملك النجاة لنفسه لا يملك الهلاك لغيره».

على باب الفتوح سمع رزق مَن ينادي بأن كوجيك محمد أبطل الحمايات التي فرضها ممالك الإنكشارية والعزب، فهلل الناس فرحاً متمنين دوام سعد كوجك ورجاله، فلما سألهم رزق عن الأزهر، نظروا إليه بملاسه الغريبة وكلماته غير المفهومة وأخذوا يسألونه عن بلده؟ فقال: «بنزرت»، قالوا: «فيم مجيئك؟»، قال: «أنا رسول». ولم يعرف ما الذي جعلهم يخرون من الضحك، فغضب قائلاً: «كأنها القيامة»، فقالوا:



«رسول وتذرننا بالقيامة أيضًا؟»، وانهالوا عليه ضربًا، ثم حملوه إلى بيت الكتخدا رجب، فحبسه رجاله حتى ينظر في أمره صباحًا، ورزق الله لا يعرف ما الذي فعله من أجل ذلك، ولم تمض ساعات حتى اصفرَّ الهواء واشتعلت الرياح وامتلاأت البلاد بالتراب، فانتشرت بين الناس إشاعة أن رسولًا تحدث عن القيامة في يوم الجمعة محبوس في بيت الكتخدا، فتجمعوا وذهبوا إليه لاطمين الخدود وناثرين التراب على الوجوه، والكتخدا يسأل بفزع عن كل حرف قاله أو نطق به هذا الرسول، ثم ذهب فأخرجه من محبسه وهو ينحني ويستقيم أمامه مرات ومرات، ورزق الله لا يفهم ما الذي يجري، وكلما قال جامعة الأزهر فهموها على أنها جمعة الأزهر، وكلما قال إنه رسول شقوا الجيوب ولطموا الخدود، ورزق الله ينتقل من بيت الكتخدا إلى بيت المستحفظان إلى الدفتردار إلى الباشا، ولا أحد يفهم من لغته ولا كلامه سوى ما ردَّده العامة، حتى أمر كوجك محمد باعتقاله إلى يوم الجمعة، فإن قامت الساعة فقد صدق وقامت على الجميع، وإن صلى الناس ولم تقم فقد أحل دمه، وحتى الجمعة ظل رزق الله عزيزًا مكرمًا يخدمه الجنود ويتمسح به الأثرياء قبل الفقراء، وهو لا يفهم من أمرهم شيئًا، فلما عبرت الجمعة جلس الناس في الجامع الأزهر ينتظرون القيامة حتى صلاة العصر، فلما صلوه خرجوا بشيخ الشيوخ إلى سجن القلعة طالبين قتل النبي المدعي، لكن شيخ الشيوخ قال: «لا بد من استتابته، فإن تاب يعذر، وإن استمر على دعوته يقتل»، فأتوا به إليه قائلين هذا شيخ الأزهر، فانحنى رزق على يديه يقبلهما، والناس ينظرون

لبعضهم على أن به مسًا أو جنونًا، حتى أخرج لشيخ الشيوخ ورقة ملفوفة في جورب من الكتان، فنظر فيها الشيخ ولم يفهم منها شيئًا، فقد كانت بالخيما دو التي اخترعها أجداده الموريسكيون، نظر الشيخ إلى ملابسه الغريبة سائلًا: «هل يعرف أحدكم ملابس أي بلد هذه؟»، وكان من بين الشهود مجاورون من تونس والمغرب، فقال أحدهم: «تونس»، سأله: «هل تعرف حديثه؟»، فاستوضحه الرجل عن مكانه وأهله ورحلته، وفي النهاية نظر في الورقة قائلاً: «هذه لغة إسبانية بحروف عربية، لكنه يقول إنه موريسكي ممن أقاموا في بنزرت بتونس، وإنه أتى برسالة من أهله لسؤالكم هل يجوز للموريسكي أن يتزوج بغير موريسكية؟»، وكان شيخ الشيوخ قد تعب من اللغط الذي أثاره في البلاد، وشعر بالغضب من الفتنة التي وقعت بسبب سؤال كهذا، فأجاب: «ليس للموريسكي أن يتزوج بغير أهله»، ولم يكذبدا في شرحه لجملته حتى دخل رسول من السلطنة في كوكبة من الجند قائلاً إن السلطان رزق بتوأم، ولا بد من ذبح الذبائح وإقامة الولائم وتعليق الزينة والأنوار ابتهاجًا بالأمر، فنسي الناس ما حدث وانشغلوا ببطونهم، ولم يتذكر رزق الله في غمرة الفرح غير الكتخدا رجب، ذلك الذي قال: «إليّ بالموريسكي كي نتندر عليه قبل سجنه»، لكن العين الراعية همست لحفيدها أن يطلب منه البشارة، فبعد يومين سيكون له شأن كبير، ضحك الكتخدا قائلاً: «هل عدت إلى الجنون؟»، أشار رزق الله بيده: «يو مان»، قال: «لن نخسر الكثير»، ثم أمر بسجنه حتى ينتهي من أفراح السلطان، ولم تكد الناس تذوق الولائم

حتى صدر أمر الباشا في القلعة العالية بتنصيب رجب كتخدا سنجقاً،  
فنادى في جنده أن يأتوه بالموريسكي فأطعمه وألبسه وسأله: «ما الذي  
كنت تفعله في بلادك»، قال: «كنت أزرع الأرض وأبيع ثمارها»، فأمر له  
بدار وقطعة أرض كبيرة في رملة بولاق.

عاش جدي رفيق باحثًا عن السلام طيلة حياته، فقد شهد بعد رحيل جدته هانم خوف والده سميح على الموريسكيين من غضب العين الراحية، رآه يبكي من أجلهم حتى كف بصره ونحل عوده ولزم فراشه حتى مات، شهد حزن جمال ابن عمه فخري على ابنه عفيف بعدما علم أن العين الراحية غير راضية عنه، مؤمنًا بأنه لا ينبغي أن يجتمع ظلمان على قلب رجل، فلما طمع عفيف في مصنع الزجاج تركه له، محذرًا إياه من أن يطغى ذات يوم على ميراث أخيه أسعد، فلما صودر المصنع منهما احتضن رفيق الأخير، وزوجه ابنته نجاة، واعدًا إياه بتقسيم ثروته ما بينه وبين ابنه يوسف، فلما مات أسعد ونجاة حمل ابنيهما ناريمان ووديع وجلس يبكي بكاء اليتيم، لكنه كان يوقن في قرارة نفسه أن عفيف ظلم بمصادرة المصنع، وأنه لم يحصل على ميراثه من أبيه؛ لذا لم يعارضه حين جاءه طالبًا أبناء أخيه منه، كان يعلم أنه ما جاء من أجل ذلك، وأنه مهما حصل على مال فإن العين الراحية لن تتركه يتمتع به؛ فباع حديقة البيت الكبيرة لرجل أعمال أقام عليها «مولاً»، وأعطاه ثمنها مع ناريمان

ووديع كشفعاء له، عسى أن يخففا من غضب العين الراعية عليه، وظل واقفاً على قدميه في مواجهة الخطوب حتى رحل ابنه يوسف، فظل يبكي حتى كف بصره، ولزم غرفته لا يخرج منها حتى أيقن بالرحيل، حينها نادى عليّ قائلاً: «يا مراد.. أبلغ أعمامك أنني أحتضر»، فهرعت أطرق الأبواب بقوة المستجير من رخ عظيم سيحط بجناحيه الكبيرين على البيت العتيق، كنت أطرق الأبواب بكل ما لديّ من قوة لطرده: «جدي يحتضر.. جدي يحتضر»، هكذا كنت أصرخ، وأقدامي تركزل الدرجات تلو الدرجات، حتى انتقل خوفاً إلى صدورهم، فرأيتهم يهرعون بملايس نومهم كأن السماء ستنطبق على الأرض، أو أن الطائر الخرافي سينحني ليتخطفهم من غرفهم، ولا ملاذ لهم سوى حجرة الجد، حين وصلوا وجدوه جالساً في أزهى ثيابه، متعطراً بالمسك والريحان، فتعجبوا من نضارة وجهه وبهاء طلعتة، هو بدوره ابتسم في وجههم وأخذ يحكي رحلة جده يونس بن محمد بن عبد الله من بلاد المغرب إلى حومة الأندلس بتونس الخضراء قائلاً: «كونوا كمن تبعوه في رحلته، غير عابئين إلا برضاه عنهم، موقنين أن عينهم الراعية تسير في معيته لمحاربة اللصوص وزجر الضواري، منقذة لهم من قسوة الخوف على الأرواح، وبأس الجوع على الأبدان. من تطوان البعيدة بدأ وبالجزائر غير المأمونة مرّاً، وعلى هوامش بيوت الناس في بنزرت قال انزلوا فلا باي الجزائر يأخذكم لمحاربة السعديين، ولا السعديون في المغرب يقذفون بكم في هجير الصحراء لمحاربة أسودها، كونوا خلف عميدكم من بعدي كما

كان أجدادكم خلف يونس في ترحاله وظلمته، فإن قال انزلوا بأرض فاعلموا أنه مأمور بها، وإن قال اخرجوا منها فاعلموا أن سيف العين الراعية يشير إلى غيرها، تعلموا الصمت أكثر من الكلام، فإن ارتبتم في شيء فردوه إلى عميدكم، واعلموا أن التيه خلف العميد أكثر رضا للعين الراعية من الخروج عليه».

رأيتهم يكون في ضراعة لا مثيل لها، موقنين أنه سيختار واحدًا منهم ليحمل الراية من بعده، رأيتهم ينكسون رؤوسهم والدموع تبلل الوجنات والآهات تحرق الصدور، حين أجهده الكلام توقف ليلتقط أنفاسه، ونهضت الجدة جنى من مكانها باحثة عن دوائه المهدئ، لكنه أزاح يدها وراح يكمل: «الله يعلم أنني أبصركم بعين قلبي، وأرى ما في النفوس وخلف الأجساد، وإنني قد تلقيت أمرًا أعلم أنكم ستخالفونه، وأشفق فيه على عميدكم من بعدي، فأقسموا لي بالطاعة له قبل أن تعلموا اسمه»، فأقسموا بالله أنهم لمطيعوه، ولن يخرجوا عن أمره مهما كان، حينها تناول دواءه وعدل من جلسته في سريره وهو يقول: «رأيت بالأمس جدكم على جواده مسرعًا، وفي يده كتابكم بتمامه قائلًا: اقرأ، ففتحه على صفحة بيضاء لا أعلم ما بها، فإذا بالسطور تستقيم، والكلمات تتضح بحروف ما بين النار والنور وهو يهتف في. اقرأ. فوجدتني أقول: لما قضى رفيق نحبه جعلنا جنى وصية على الأبناء من بعده».

رأيت الوجوه تسود، والراحات تصك الجيوب، والعيون تنظر في العيون، بينما الهمهمات تعلو ثم تعلو، فقال. «أريحيني يا جنى»،

وكان ذاك إيذاناً بأن الرسالة انتهت، فسحبت الوسادة من خلف ظهره، ووضعت يدها على كتفه لترريحه في سريره، بينما تسحبت الأقدام من الغرفة إلى الصالة ودرجات السلالم، وراح الهمس يعلو ما بين متعجب ومستنكر، ولم تكمل الصدور نفث زفراتها حتى سمع أصحابها صراخ الخادمة، فأيقنوا أن الروح صعدت لبارئها وأنهم أمام عهد جديد.

كان الجميع يوقن أن جنى هي آخر من يمكن أن يكون عميداً لهم، ربما لأنهم كانوا يتطلعون إلى انتقال العمادة من بيت حبيب الله إلى بيت عميه موسى وإسماعيل، وربما لأن جنى كانت طيلة حياتها مدللة لا تعرف الكثير من أمورهم، لكن الأيام أبرزت لهم نقيض ما توقعوه، فقد كشفت عن وجه حازم إلى حد القسوة في كثير من الأمور، فقد مسحت دموعها على زوجها ووقفت تشرف بنفسها على أداء الطقوس، غسلت جثمانه بيديها ونزلت إلى القبر مطيبة ثراه بالماء والنجس، بعدها أمرت بفتح فيلا حبيب لتلقي العزاء، محضرة المقرئين وجالسة على أريكة جدها حبيب في أول الصفوف، حين انتهت أيام الحداد ارتدت ملابسها وذهبت إلى الوكالة لتجلس في مكان جدتها هانم وعمها سميح وزوجها رفيق، ورأى الموريسكيون ذلك غير حسن، فأخذوا يضعون العراقيل عسى أن تترك الحال كما تركه رفيق لهم، لكنها كلما فاجأوها بمعضلة تمكنت من حلها، فاستسلم الرجال موقنين أنها قد تكون أفضل العمداء، لكن غير النساء لم تستسلم، فكيف لجنى الساذجة أن تكون العميد، رحن ينفخن في النار موغرات الصدور، حتى إذا وضعت يديها في دفاتر

الحسابات مواجهة كل منهم بأخطائه وتجاوزاته انفجروا ثائرين في وجهها، قالوا إنها مخرفة وإنها تسعى للخلاص منهم، قالت إنهم خراف تسيرها النساء، فجلسوا في بيوتهم تاركين أعمالهم منتظرين لجوءها إلى أبوابهم، لكنها كانت مؤمنة بأن اليد القوية أفضل من اليد الضعيفة في ضبط الأمور، فأحضرت عمالاً جدداً، وتجاراً جدداً، وظلت في عملها من الصباح حتى المساء، لا تعرف الكلل ولا تنصت لثرهات النساء، لكن ذلك لم يدم طويلاً، ففي صباح مشئوم ارتدت ملابسها وخرجت مع غبشة الصبح لتذهب إلى عملها، غير أن الأسانسير الذي لم يُصَب بعطل من قبل سقط بها في بثره السحيقة، لتبقى في المستشفى أياماً ظنوا خلالها أنها فارقت الحياة، لكنها نهضت من جديد، وخرجت من موتها بكرسي متحرك، قالوا إنها قد أصابها العجز، فجمعوا بعضهم وجاءوا خلف ابن عمهم قنديل بن داءود ذي الصوت الجهير، قال: «يا جني صحتك اعتلت، والعائلة مشكلاتها كثرت، ولا بد من رجل يتحمل الأعباء»، فابتسمت قائلة: «وما الذي ترون يا ابن عمي؟»، خفف الرجل من حدة صوته موضعاً: «آن الأوان كي تستريح وتختاري عميداً يحمل عنك الأعباء»، فهزّت رأسها: «وهل توافقونني؟»، استبشر الرجل خيراً وفتح فمه وعينه بالسُرور: «بالتأكيد يا خير العمداء»، فما كان منها إلا أن صدمته: «العميد من بعدي هو مراد بن يوسف»، نظر الرجل نحوي بدهشة غير مصدق: «لكنه صغير»، رفعت وجهها عن المفرش النائم على ساقها: «مراد العميد، وكل شيء بكتاب»، هنالك انتفض الرجل من مكانه كما لو أن ثعباناً لدغه: «إنك تعقدين الأمور»، ثم خرج



لا يحدث أحدًا ممن انتظروه ولا ينظر في وجه أي منهم، وحدي الذي شاهدت دموعها تنزف منذ مسحتها عقب وفاة رفيق، حين سألتها عما يبكيها احتضنتني قائلة: «هؤلاء ضلوا الطريق»، ولم يمضِ يومان حتى راحوا يبلغونها بعزمهم على الرحيل قائلين: «نريد نصيبنا من حبيب الله كما أخذ عفيف نصيبه»، فباعَت الوكالة ووزعت أموالها بالتساوي على الرؤوس.

نهض مراد من الشيزلونج غير قادر على حفظ توزانه، فتلمَّس ما يمكنه الاتكاء عليه، ولم يكن هناك سوى صديقه الطبيب، في الشارع تنسم الهواء وقرر أن يسير إلى البيت، لكن الطبيب أصر على اصطحابه، وأمام تمثال طلعت حرب وقفًا يتطلعان إلى غلاف كتاب عن الموريسكيين ومحتهم في مكتبة شهيرة، توقع الطبيب أن يدخل مراد لشرائه، لكنه أشار إليه باستكمال سيرهما، ثم فاجأه بالسؤال عن مصير الجلسات التي يقوم بتسجيلها على شرائط لديه، فتوقف الطبيب عن السير سائلًا إن كان ما يزال يراوده الشك تجاهه، لكن مراد قهقه عاليًا ثم قال: «لي رجاء لديك، إذا مت، أو حدث مكروه لي، فلا تتخلص منها، ولكن قم بنشرها على الناس، علَّهم يعلمون ما الذي حدث للموريسكيين وأعقابهم».

ظلمت جالسًا بجانب جثة الأمير ابن عبو في كهفه حتى جاءوا، هم أيضًا لم يتأخروا طويلًا، فلم تمضِ بضع ساعات حتى ظهر ضوء الفجر خارج الكهف، كان الليل بطوله قد انقضى بين كرٍّ وفرٍّ، وشعر الجميع أن الهزيمة أهدقت بهم من كل جانب، كان الخبر الذي انتشر كالنار في الهشيم قد قصم الظهر التي تخيلت أن بمقدورها الصمود، الجميع تبلبل وفقد القدرة على الصواب، فقد أعلن الإسبان الخبر وتدافع الجميع ليتأكدوا منه، وكل مَنْ رآه في حالته هذه خرج مذهولًا مما يجري، متمنيًا لو أن الأمير قبل بشروط التفاوض، ولم يمضِ كثير من الوقت حتى حاصر الإسبان قمة الجبل، معلنين أن مَنْ سيستسلم سينجو بنفسه وأولاده من الموت، وأن مَنْ له أقارب في الأسر سيفرج عنهم، كان الأمر أشبه بكرة الثلج التي بدأت على استحياء ثم ما لبثت أن تزايدت واتسعت، في البدء تناول الناس الأمر باستنكار، ثم ما لبثوا أن قرروا التفكير، وراح كل منهم يسعى للزعامة في غياب الأمير، حاول فرناندو أن يثنيهم عن الاستسلام جازمًا بأنها خدعة، لكن الشنيش ظهر

برجاله وراح يدعو لترك القتال، قال إنهم أكبر قوة وعدداً، وإنهم علموا بمقتل ابن عبو ولن يسمحوا لأحد بالفرار منهم، والاستسلام الآن خير من انتظار الموت في الصباح. تبلبلت الأذهان وقرر الجميع أن يتصرف وفقاً لهواه، البعض أصر على استكمال الحرب إلى أن يموت واقفاً في مكانه، فلا رغبة لديه في البيع أو التعذيب، لا رغبة لديه في ترك دينه والموت على دين النصارى، كانت الكلمات تخرج عالية، وكأنها تحاول أن تثبت أصحابها على مواقفهم، لكنها لم تثبت غير القليل، فقد هجم الإسبان فجأة، وصارت قمة البشرات منطقة حرب خاسرة، فسلم الكثيرون سلاحهم على السفوح وفي الشعاب، ونزلوا صامتين مع الجنود، ومن لم يستسلم مات في مكانه، فصارت الشعاب المؤدية إلى قمة البشرات ممرات الوصول السريع إلى المختلفين في مركز القيادة، هؤلاء الذين ألقى بعضهم بسلاحه معلناً أنه سيستسلم، ولم يكن أمام الآخرين القدرة على منعه، لكن فرناندو قال: «إذا كان علينا أن ننسحب فيجب أن نبحث عن قمة أخرى نتحصن بها قبل أن نترك لهم هذه القمة، وحتى يتحقق لنا هذا فلا بد من الاختباء في الكهوف والأحراش حتى يعودوا إلى بيوتهم»، وافقه الجميع على ذلك وتوالت الصيحات بضرورة الانسحاب، لكن الإسبان كانوا قد وصلوا، نعم وصلوا حتى قبل أن يتم التفكير في كيفية الانسحاب، فقد نزل الشنيش وأحضر مجموعة منهم في الوقت الذي كان على فرناندو أن يضع خطته لذلك، فوجئ به يطلب منه تسليم سلاحه، فسأله بأي سلطة يطلب ذلك، ورد

عليه الشنيش: «سلطة إمارتي عليك»، ودهش فرناندو من الرد قائلاً: «ومن الذي ولّك علينا؟!»، فأجابه بأنهم الإسبان، ومن اليوم لا أمير سواه، ثم أمره أن ينادي في الرجال بالاستسلام حقناً للدماء، وكان ضوء القمر يلمع في السماء، بينما النيران تشتعل في الوديان والسفوح، ودخانها الخانق يملأ الأفق في كل مكان، فابتسم فرناندو وسحب سيفه بسرعة البرق في مواجهة صديقه القديم، وراح كلاهما يكيّل الضربات للآخر، حتى أنهكهما التعب فوقفا يلتقطان الأنفاس، قال فرناندو: «إذا فقد قتلت ابن عبو بأمر من أسياذك»، وأجابه بأنفاس متقطعة: «هو الذي قتلنا جميعاً بعناده، هو الذي جعلنا في هذا الموقف الضعيف، كان يجب أن يوقع المعاهدة التي تضمن لنا الحق في الحياة، لكنه لم ير سوى نفسه، لم ير سوى الإمارة ولو على أشلاء أناس مثلنا»، حين سأله فرناندو إن كان ذلك مسوغاً لقتل الرجل، هجم عليه قائلاً: «ومسوغاً لقتلك أيضاً»، لكن فرناندو تلقى الضربة بمهارة، وظل يحارب كما لو أنه يدفع بالإسبان جميعاً بعيداً عن قمة البشرات، ظل يضرب بعنف حتى سقط الشنيش أمامه، دون أن يدري كيف سقط، فألقى سيفه وفرّ نحوي في الكهف قائلاً: «علينا أن نحمل جثة الأمير ونهرب من هنا، علينا أن ندفنه كما يليق به كأمر لنا»، فانتبهت إلى أنني يجب أن أتوقف عن البكاء كي أفعل شيئاً، فنهضت من فوري لأمدد معه الجثة في بساط بمنتصف الكهف، لكننا كنا قد تأخرنا كثيراً، تأخرنا في كل شيء، حتى موت الشنيش نفسه جاء متأخراً بعدما دلهم على مسالك الطرق إلى

القمة، فلم نستطع أن نسير بضع خطوات في الخارج حتى وجدنا أنفسنا محاطين بعشرات منهم، كانت سيوفهم مشهرة نحو أعناقنا وصدورنا، فتركنا البساط يسقط بالأمر ورفعنا أذرعنا في الهواء، ولا نعلم إلى أين سُحبنا لنجرد من كل شيء، فتاه كل منا عن الآخر، وتناولتنا أيدي ألفت بنا إلى أيدي، فصرنا نهزول أمام الهراوى من أعلى إلى أدنى، أيدينا خلف ظهورنا وأقدامنا تتعثر في الرمال والأحجار والأحراش والحصى، أقدامنا أصيبت بعمى غريب، فكلما خرجت من حفرة اصطدمت بصخرة، وكلما عدلت توازنها على جرف انهار بها آخر، كان السفح في هذه اللحظة الصباحية الباردة أشبه بأسراب قطط خائفة مذعورة، أسراب قطط مستأنسة في طواير مرتبكة، لا أحد يفتح فمه، ولا أحد يصرخ أو يتمرد، الجميع مستسلم بشكل غريب، كما لو أنه كان ينتظر هذه اللحظة منذ سنين. في الأسفل، حيث كان حقل أبي القديم، وحيث كان فرناندو يعلمني الحرب بالعصا، كانت نقطة تجمع الأسرى، أوثقونا ببعضنا بعضاً، ثم أمروا برحيلنا، كان الدخان يتصاعد من كل فج، والجثث ملقاة في كل مكان، البعض كان ينزف ويحتاج لمن يُسعفه، البعض فارق الحياة، والدماء تفترش الرمال والحصى وتسيل من فوق الصخور في خيوط رخوة متجلطة، ونحن لا نعرف إلى أين المسير، نساء وأطفال وعجائز وقلة قليلة من الرجال، بعد فترة وجدنا تجمعاً أكبر، كانت تأتي قطارات من نواح أخرى، بعضها كان مقتصرًا على النساء فقط، بعضها كان مختلطاً ما بين النساء والأطفال والعجائز، هناك أعادوا ربطنا في

صفوف طويلة، وراحوا يصرخون فينا بالتحرك، على مقربة من البيازين كانت سلاسل الأسرى تتزايد وتكثر، أوقفونا هناك ليعبدوا ترتيبنا وتنظيمنا، ورأيت مجموعة كبيرة من الجند تحاصر جوادًا عليه رجل وجهه للخلف، «هذا ابن عبو»، صرخت امرأة في وسط الصفوف فارتفعت الأعناق عن الصدور لتنظر من يكون، نظرت معهم فرأيتهم الأمير وقد مال عنقه على صدره، فتذكرت أنهم قد اجتزوا رأسه، وأني سهرت أنعيه طيلة ساعات والحرب تدور في الخارج، صرخت: «الأمير قد قتل»، ولا أعرف من أين جاءني الضربة التي ألجمتني، كان الحارس قد نزل بهراوته إلى كتفي، شعرت أن كرة الحديد اخترقت ملابسي ولحمي وهشمت عظامي، فلم أستطع أن أفتح فمي، وكلما فتحته اشتدت عليّ أضلعي، فصرت أبكي غير قادر على إخراج صوت للبكاء، أئن في صمت وأمشي في صمت، وروحي تنسحب مني في صمت أكبر، حين دخلنا ساحة غرناطة وجدنا النصاري يحيطون بنا، ويهتفون باسم الملك فيليبي الثاني، واسم شقيقه غير الشرعي دون خوان، وبعضهم كان يهتف على استحياء باسم رئيس محكمة التفتيش بدرو ديسا، بينما الطبول تقرع والأناشيد تغنى، والموسيقى العسكرية تتقدم عرض الأسرى المهانين، يتبعها ابن عبو القليل على جواده وكأنه أسير مهزوم، ابن عبو الذي رفض أن يموت ذليلاً أحيوه ليكللوا رأسه بالعار بعد موته، لكنني كنت أدرك أنه الآن يضحك في سمائه، يخرج لسانه إليهم قائلاً: «خذوا الجثة فقد نجوت بكبريائي»، رأيت شبحة يطوف

بعيدًا وهو يلوح لأتباعه قائلاً: «هذا ما أردت أن أنجيكم منه، هذا ما لم أرد أن تناوله على يدي»، بينما شبح الشنيش مقيد في حبل طويل بنهاية سرج جواد ابن عبو الطائر على الرؤوس، ورأس الشنيش مكلل بالشوك، ملطخ بالقار. في النهاية توقفت الموسيقى عن عملها، وظهر دون خوان على منصة كبيرة فهتفت الجماهير باسمه، هتفت بشجاعة لم تمتلكها من قبل، وكأنها وجدت نفسها في الهتاف، فتحدث دون خوان لهم في الساحة الكبيرة، ورجاله ينقلون عنه، كانت الأصوات تنوّه ما بين الهتاف والضجيج، في النهاية أشار إليهم بإعدام ابن عبو على رؤوس الأشهاد، فأحضروا خشبتين كبيرتين متقاطعتين على هيئة عروس خشبية، وأوثقوا جثته عليها، وطوقوها بإكليل الشوك، وقذفوها بالحجارة من كل جانب، وفي النهاية تقدم سياف ببلطة كبيرة في يديه، ثم ضربه ضربة أطاحت بالرأس عن الجسد، لكن دمه لم يسيل، ولم يكن للجماهير المحتشدة بفرحة النصر أن تدقق في وجود دماء من عدمه، فقد تناوله الفرسان بأقدام جيادهم، ثم مال أحدهم بحريته فغرسها في الرأس، ورفع كعلم دار به في الساحة أمام الجميع، معلناً أن هذه نهاية الشيطان الرجيم، نهاية من يفكر في الخروج على جلالة ملك إسبانيا العظيم، نهاية ابن أمية وابن عبو وابن جهور وكل أبناء العرب والبربر الزنادقة المهرطقين، بعدها أخذنا إلى ساحة الكنيسة، وتركنا مقيدين طيلة اليوم وجزءاً كبيراً من الليل الطويل، كنا ننبول في أماكننا نساءً ورجالاً، فالخوف وانعدام الكرامة أزهقوا فينا كل شيء، ولم يعد يشغلنا انتظار المصير، في

منتصف الليل تعاطف بعض الحراس مع بكاء الأطفال والنسوة، كان الخجل يقتل بعضهن، والمثانة لا تعرف أسيرًا من حرٍّ، فأخذوهن إلى جانب مظلم ليقضين حاجاتهن، لكن الأطفال كان احتياجهن مختلفًا، بعضهم كان يبكي من الجوع، بعضهم كان يصرخ من الخوف، وقلة هي التي كانت ترغب في العودة إلى البشرات، والرجال ساكنون في أماكنهم كأنهم أصيبوا بالتبلد والجمود، فلا خوف ولا شفقة ولا بكاء، بينما العيون جفت في محاجرهما، وماتت من التلهف على رؤية بقية الأهل، بحثت بنظري عن فرناندو فلم أجده، بحثت في النساء عن هند ابنة الحبقي فلم أعرفها من بينهن، وبحثت في ذاكرتي عن أي شخص أعرفه وما زال حيًّا فلم أجد سوى أن رجفة البرد شملتني، وسقطت عيني في النوم، فرأيت مَنْ يقف أمامي بجواده، يمد لي يده في الظلمة قائلاً: «قم يا محمد، ما الذي أجلسك هنا؟»، حين فتحت عيني لم أجده، ولم يكن أبي، لكنه كان العم باديث، ولا أعرف لِمَ حلمت به، فهل وصلت أبناء هزيمتنا إليه، أم أنني الذي أرغب في الذهاب إليه. في الصباح أتى الحراس ملقين بالخبز على رؤوسنا، فنسينا مأساتنا ووضعنا لقيماتهم في أفواهنا، كنا نلوكها في صمت، بينما ضحكاتهم تصم آذاننا، كنا نبتلع كما لو أننا نبتلع بعضًا من عظامنا، متذكرين هيئة ابن عبو ومَن تركناهم في حفرهم مقتولين موزعي الأشلاء، لم تكن لدى أيِّ منا رغبة في الأكل، لكنه الجوع الذي لا يرحم، والخوف الذي يدفعك للتخفي منه في أي فعل، نمنا من جديد على أنفسنا ونحن نرتعد من وطأة المجهول،



حتى أيقظونا ليكتبوا أسماءنا في كشوف طويلة، ومرَّ يومان حتى علمنا أن الملك أصدر قراره بتفريقنا في مقاطعات الشمال، صفونا عشرات وقسمونا على القرى الصغيرة، تلك التي لا تثور ولا تعرف معنى الثورة، تلك التي ارتضت بالصفقة تاركة دينها وتاريخها من أجل الحياة، أخذنا في قطار طويل يحيطه الحراس بجيادهم وهرأويهم، فظللنا نقطع المسافة سيرًا تحت وطأة البرد والحزن والجراح التي وصلت مع البعض إلى حد الغرغرينا، كنا ندعو لبعض الحالات بالموت، وندعو لأنفسنا بالرحمة على أي الوجوه، فلم يعد بمستطاعنا أن نجر أنفسنا وغيرنا في سلاسل الموت البطيء، حين وصلت مع مَنْ تم إرسالهم إلى طليطلة وجدت الناس يخرجون من بيوتهم لينظروا إلينا، كانوا ينظرون بعيون باكية وقلوب حزينة، بعضهم كان شامتا ويلقي بسبابه وبصاقه علينا، وبعضهم كان يتلو صلواته للمسيح وكأنه يرى نفسه من معرفتنا، كان من بين هؤلاء العم باديث، رأيت يمسك عصا ويضرب البعض مساعدًا الجند في ضبط الصفوف، حتى إنهم نهوه عن ذلك، فقد أصدر الملك أوامره باحترام المورييسكيين، وصاح جندي: «لا يجوز لأحد ضربهم سوانا»، ثم انهال بهراوته على كل مَنْ رآه ينظر خارج الصف. في ساحة كنيسة طليطلة، تلك التي أمضيت ثلاثة أشهر مع العم باديث في ترميم زخارف أسوارها وحوائطها، وقفنا بالمثلثات في انتظار توزيعنا على القرى التابعة للمدينة، سجل القساوسة أسماءنا وجاءوا بمندوبين من هذه القرى لتسلمنا، ذهب مع ثمانية رجال وعشر نساء وسبعة أطفال

إلى كنيسة طَلَيْبِرَة الواقعة على نهر تاجَة غربي طليطلة، كنت أعرف الطريق أكثر من غيري، فكثيرًا ما قطعته لإحضار الأحجار الملونة والأكاسيد المطلوبة لورشة العم باديث، في ساحة كنيسها الصغيرة جاء القس بتقريره لنا أمام شعبه، ثم صاح فيهم: «مَن له حاجة في أي من هؤلاء الأنجاس فليتقدم ليأخذه في حمايته، لا يخرج من القرية دون إذنه، ولا يعمل في شيء إلا بأمره، وله نصف ما يتحصله من أجر»، فتهافت الناس على تفحصنا كرقيق سيدفعون ثمنهم، بعضهم كان يفضل النسوة ولا يرغب في الأطفال، بعضهم كان يبحث عن الشباب غير راغب في العجائز، في النهاية لم يبقَ سواي وثلاثة عجائز وطفلين، كان الكل يرى أنني رقيق الحال لا أصلح لشيء فيتعد عني، حين تقدم نحوي رجل بدين تفوح منه رائحة السكر التتن لم يُعطه القس فرصة للتفكير: «هذا يناسبك يا خوليو، يتمتع بالطول والجمال والحزن المناسب لمجالسة ضيوفك»، ولم يراجع خوليو، فقد هزَّ كتفيه زامًا شفتيه وكأن الأمر لا يعنيه، ثم تركنا ودخل غرفة القس ليوقع على استلامي، ثم جرنى خلف جواده موثق اليدين، حتى وصلنا إلى بيت من دورين، فنزل صائحًا في خدمه: «خذوا هذا الحزين وأعدوه لمجالسة الضيوف».

في واحدة من مفاجآته الغريبة خرج الرئيس على الناس بإعلان دستوري حصّن فيه نفسه ولجنة الدستور ومجلس الشورى من الطعن، مما جعل الناس تصفه بأنه الحاكم بأمر الله، فقد أطاح بالمجلس العسكري عقب مقتل مجموعة من الجنود المصريين برفح في سيناء، كان مشهد الإطاحة بالمشير ورئيس الأركان خيالاً، فلم يحدث الصدام المتوقع، ولم تهتز شعرة في الجيش لأجلهما، فقط جعلهما ينتظرانه بغرفة مجاورة لمكتبه بالقصر الجمهوري، واستدعى أصغر أعضاء المجلس العسكري مكلفاً إياه بوزارة الدفاع، والتفتت له عدة صور آن أدائه اليمين الدستورية، وفي الوقت الذي راحت نشرات الأخبار تذيع النبأ كان المشير ورئيس أركانه يتلقيان خبر إحالتهما إلى التقاعد من الرئيس نفسه، ولم يكن في استطاعة أيّ منهما الاعتراض على شيء؛ لأنهما معزولان عن العالم، وجنود الحرس الجمهوري تحيط بهما من كل جانب، وليس في الإمكان سوى الخضوع لأنامل الزعيم الجديد وهي تعلّق على صدر كل منهما نوط الشجاعة التي لم يعملأ بها في ذلك

اليوم. كان الخبر صادمًا للكثيرين وفي مقدمتهم الموريسكي الذي راح يصرخ أن القمر أوشك على الاكتمال، وأن الكونت دراكولا أخذ في التحول.

حاولت ناريمان أن تشرح له ما جرى في الكواليس، وأن الرجلين اللذين أدارا البلاد لعام ونصف لم يتمتعا بالذكاء الكافي، وكل ما فعلاه حين علما بعزلهما أن اتصلا بأصدقائهما من الأمريكان ليجيئهما الرد بأن الأمر شأن مصري خالص، لم تكن ناريمان راغبة في إظهار مشاعرها على الملأ، فأخذت ترتجف في أحضان مراد وهي تردد: «نعم دراكولا سيقضي على الجميع»، لكن رجل الأمن الحاصل على دكتوراه في التاريخ ظل هادئ الأعصاب قائلاً: «الحرب خدعة يا صديقي»، ولم يكن ذلك مرضياً للموريسكي الراغب في معرفة ما الذي يجري في البلاد، فظل يضغط على فكيه غيظاً ورجل الاستخبارات يرسم شبح ابتسامة باردة: «الدولة أكبر من كل هذه الزوابع».

كان مراد موقناً أنهم أصبحوا بمثابة دراكولا المتعطش للدماء، دراكولا الذي انتظر مئات السنين في الأقبية المظلمة حتى يخرج مع التقاء المريخ بالمشتري في قوس زحل، فمع اكتمال البدر يخرج أنصاره من السجون ليحملوا مومياه على أيديهم، مرتلين التعاويذ المحفوظة على صدورهم كي يمنحوه حق العودة للحياة، حينها ستكتسي عظامه لحمًا ويكتمل في صورة رجل مشوه قادر على إعلان نهاية العالم، بادئًا

بتذويب المفاسل وإلغاء الحدود، ومنتهيًا بصك الجميع على شاكلة  
تشبهه، فلا يبقى أحد دون أن يصيبه الوباء.

كانت ناريمان شبه مختفية في هذه الأيام، وكثيرًا ما أغلقت هاتفها  
أو امتنعت عن الكلام، بينما مراد يشعر أن العالم من حوله على جمرة  
من نار، ولا يعلم ما الذي خبأته الأقدار في الكواليس، كان خوفه يتعالى  
كل لحظة من أن تصبح القاهرة مدينة للأشباح التي تلتصق بالأعناق  
ولا تتركها قبل أن تتحول إلى كائنات خرافية لا تعرف غير النزوع إلى  
الموت، وكان رجل الأمن الحاصل على دكتوراه في التاريخ الإسباني  
مختفيًا، ولا يُعرف له مكان بعدما ترك موقعه بدار الكتب، ومراد يبحث  
عمن يرشده إلى الصواب ويرفع عنه مخاوفه، ولم يكن هناك سوى  
الطبيب المختفي في عيادته، فأسلم نفسه للسير وسط المتظاهرين حتى  
وصل إلى باب اللوق، وعلى نقیض ما توقع وجد العيادة تعج بمرضى  
ينتظرون الدخول، كان أغلبهم صامتًا وعلى وجهه ملامح ذهول أو  
جنون، شعر مراد أنه يختنق وليس باستطاعته ترك الثورة في الشارع من  
أجل انتظار صديقه الغارق في عمله، فأبلغ مساعدته أنه سينتظره على  
مقهى إستراند.

كانت المناضد مكتملة العدد، وجميعها مشتعل بجدل يصل إلى  
حد الشجار، حتى الذين حاولوا أن يبدووا غير مهتمين بالأمر كانت قطع  
النرد تخرج من أيديهم كما لو أنها تبادل لإطلاق النار، بحث بنظره في  
المكان عن مقعد شاغر فلم يجد، وكاد يستدير عائداً للشارع لولا أنه لمح

رجلين نهضا لدفع الحساب والخروج، كانت المنضدة التي تركاها في عمق المقهى فقطع المسافة إليها في لمح البصر، منادياً على النادل كي يحضر له شاياً وشيشة، حين جاءه الأخير بما طلبه انتبه مراد إلى ملامحه المحفورة وأسنانه البارزة، فارتعد من فكرة أن يكون التحول قد بدأ في الناس، وأسلم نفسه لزخات متوالية من الدخان المتصاعد في فضاء ملبد بالضجيج، كان الجدل دائراً حول ماهية الرئيس، البعض يراه مجنوناً وآخرون يرونه المهدي الذي سيملاً الأرض عدلاً، ظل مراد منصتاً للنقاش الدائر على المنضدة المواجهة له دون أن ينتبه للرجل الذي جلس معه على منضدته، كان في السبعين من عمره، طويلاً إلى حد ما، بدا كما لو أنه غريب عن المكان وجاء في مهمة محددة، حين استدار نحوه وجده يبتسم قائلاً: «لِمَ كل هذا الحزن يا بني؟»، للحظة لم يعرف بِمَ يرد عليه، فملامحه مألوفة وصوته الدافئ يرن في أذنه، فأجابه بسؤال: «مَن تكون؟»، وابتسم العجوز: «يمكنك أن تعتبرني جدك، فأخبرني عن سبب حزنك»، تحير مراد في الرد مستسلماً للهدوء الذي تسرب إلى أعضائه وذهنه، وما لبث أن هز رأسه قائلاً: «أحوال البلاد والعباد يا جدي»، فألقى الرجل بعينه على وجهه: «خائف؟»، هنالك انتابت مراد رجفة هزت كل ما فيه، ولم يعد يعرف إن كان بمقدور الجالس أمامه أن يفهم أسباب خوفه أم لا، لكن الرجل بدا كما لو أنه سمع ما يدور في ذهنه، فتنهَّد بعمق قائلاً: «خلقنا من خوف إلى خوف، ولا ينفع حذر مع قدر، فكل شيء بكتاب؟»، هزَّ مراد رأسه مؤمناً على الكلام، وشرَّد بذهنه متذكراً الجملة التي اعتادت جدته على قولها: «كل شيء بكتاب»،

رفع رأسه ليسأل محدثه عن هذه الكلمة التي توارثتها العائلة أجيالاً بعد أجيال، لكنه لم يجده، دار بعينه سريعاً في المقهى بحثاً عنه، على البعد رآه من ظهره خارجاً من الباب، فألقى بما معه من نقود على المنضدة وفرّ ليلحق به، لكن الزحام كان قد تضاعف في الشارع، والناس بدت كما لو أنها أمواج بحر غاضب، جال بنظره بينهم بحثاً عن العين الراحية، تلك التي ذابت مع النسيم المتدفق من النيل إلى سراي عابدين، بينما صوتهما يرن في أذنه كالصدى: «كل شيء بكتاب».

تسحبت يده على السور الحديدي للسلم كأنها تتلمس منه الأمان، وأخذت أقدامه تضرب بوضوح الدرجات الرخامية كأنها تطرد أشباحاً تتفافز من حوله، كان همه الآن هو الصعود بأسرع ما يمكن للجدة التي تنام في الظلام، حين فتح الباب وجد ضوءاً خفيفاً يتسرب من غرفتها، تلبّسه الفزع لكنه سرعان ما لملم شتات نفسه ودخل لمواجهة المجهول الذي لا يعرفه، فوجئ أن ناريمان جالسة بجانبها وفي يدها بطارية صغيرة، لم يعرف إن كان عليه أن يحتضنها أم يثور غاضباً لاختفائها عنه كل هذا الوقت، لكنها فاجأته بثورة أكثر غضباً، متهمة إياه باللامبالاة وعدم القدرة على تحمل المسؤولية، سائلة كيف له أن يترك جدته في هذا الوقت وهذه السن ليغوص في غمار المتظاهرين، بدا لنفسه أنه شخص موصوم بالخطأ، وأن فشله وضعفه لا حدود لهما، فتسحبت أقدامه به إلى الظلام، ليلقي بنفسه في فراشه باكياً كطفل عاجز عن الكلام، حين جاءت لتعتذر عمّا فعلت سمعت نشيجه المكتوم، فتصاعد غضبها عليه

من جديد: «توقف عن هذا، فلم تعد صبيًا، ولن تبقى طيلة الحياة مدللًا»، رفع رأسه ليسخر من كلماتها لكنه وجدها تسقط بجانبه في نوبة بكاء مرير، شعر أنها تحمل على كتفها أكبر منها، فأخذ يربت كتفها متسائلًا عما حدث، قالت: «آن الأوان لنحصل لنا على وطن»، مسح عينيه ونظر في الضوء الشحيح بالمكان إلى وجهها: «كيف؟!»، تنهدت كمن يلقي باعتراف أخير: «الموريكيون يعدون لمؤتمر سيطالبون فيه الإسبان بمنحهم الجنسية مثلما منحوها لليهود، ولا بد أن يكون لآل جهور ممثل هناك».



صرت في بيت خوليو البدين خادماً لضيوفه السكارى، كان ذلك من أبغض الأمور إلى نفسي، فأنا أمسح الأرض وأحمل النبيذ وأقدم الخبز والنساء لهم، كنت أستغفر الله في صدري عشرات المرات كلما طلبوا مني شيئاً، وظللت أشعر بالمهانة كل لحظة حتى شاءت الأقدار أن التقيت ثابيرا دي قرطبة، ذلك الذي طلب من البدين أن يبحث عمن يقص عليه الحكايات القديمة، كنت أنظف مائدة بالقرب منه، ولم يكن لدى خوليو أي من الشعراء أو الحكائيين، فأخذ يعتذر للرجل مؤكداً أنه سيحضر واحداً منهم، لا أعرف كيف واثتني الشجاعة لأقول: «يمكنني أن أحكي لك عن ملوك الأندلس»، فنظر خوليو بغضب تجاهي، لكن ثابيرا ابتسم سائلاً: «هل تعرف حقاً؟»، نحيث خوليو جانباً وأنا أقول: «جربني»، غير أن البدين لم يعجبه ذاك السلوك، فأزاحني قائلاً: «هذا الموريسكي لا يعرف غير التمجيد في أهله، ولن يفيدك إلا في تعكير صفوك وإشعال الفتنة في المكان»، احمرَّ وجهي وغلَّت الدماء في عروقي وكدت أضربه بما في يدي، لكنني خفت العواقب، وما بين الرغبة في الثورة عليه

والخوف من عقابه اختنق صوتي وغلبتني الدموع، فنهض ثابيرا ليُجلسني على كرسيه، قائلاً له بغضب مكتوم: «أهكذا ستجعلونه مسيحيًا صادقًا، أم أنكم جميعًا ترغبون في أن تكونوا أعضاءً بمحاكم التفتيش، إنكم لا تتركون لأمثاله سبيلاً سوى أن يضعوا خناجرهم في أعناقكم ذات مساء؟»، حينها شعر خوليو بالخوف وارتبكت كلماته وهو يبرر موقفه، ووصلني خوفه وهو يتبسط معي طالباً زجاجة نبيذ أخرى لثابيرا، لكن الأخير أصرَّ على أن يحضرها خوليو بنفسه، ثم استدار لي قائلاً: «كلي آذان مصغية»، أخذت نفساً طويلاً قبل أن أبدأ قائلاً: «كان الخليفة هشام المؤيد آخر خلفاء بني أمية، تولى مُلكه في سن صغيرة، فلما أطاح به المستعين وحبسه في سجن الإمارة، أرسل سرّاً العلي بن حمود قائلاً: لك ولاية العهد من بعدي، على أن تخرجني من السجن، أو تأخذ بثأري إن أصابني المستعين بمكره، فجمع علي رجاله وخرج داعياً لنصرة هشام المؤيد، جاوبه كثيرون وانضموا لدعوته، فخرج بجيشه من ملقة قاصداً قرطبة، فلما انتصر على المستعين أحضره بين يديه سائلاً عن الخليفة، لكن المستعين قال: قتلته، فأمر علي بضرب عنقه أمام الناس، وجلس في كرسي الإمارة داعياً الناس لمبايعته، وملقباً نفسه بالخليفة الناصر، بادئاً عهده بالتقرب من أهل قرطبة، وإبعاد البربر عن حكمه حتى دانت له المدينة وأحوازها، لكن البربر قتلوه وأرسلوا لأخيه القاسم أن يأتيهم ليستلم الخلافة، متخطين حق ابنه يحيى وإدريس في الحكم، فما كان من يحيى إلا أن جهّز جيشه وخرج من ملقة لملاقاة عمه القاسم في قرطبة،

وشعر الأخير أن البربر لن يقفوا بجانبه، فترك المدينة دون أن يتنازل عن الخلافة وفر إلى إشبيلية حيث ترك ولديه يحكمانها، فبايع الناس يحيى ابن علي بن حمود ولقبوه بالمعتلي، فارتدى في أحضان البربر حتى تضرر الناس من أفعالهم، فلما فكر في تقليص سلطاتهم قاموا بخلعهم، وأرسلوا من جديد لعمه القاسم أن يأتي ليحكم قرطبة، فجاءهم وهو موقن أن سلطتهم في الحكم أعلى من سلطته، فتركهم يفعلون ما يريدون في الناس، حتى ضجروا منه ومنهم وقاموا بالثورة عليه طاردينه ومن معه من البربر، مغلقين أبواب مدينتهم في وجوههم، فحاصروها حتى تضرّج أهل قرطبة من الجوع، ولم يجدوا أمامهم غير الخروج لحربهم، ففتحوا أبوابهم وأخذوا يطاردونهم حتى فرقوا شملهم، مجمعين أمرهم على ردّ الخلافة إلى بني أمية من جديد.

في نهاية الليل كان ثابيرا قد ترك مبلغًا كبيرًا من المال مكافأة لي، فودعته مع خوليو حتى باب الخان، مرحبين بعودته ليستمع للمزيد في أي وقت، لكن خوليو جذبني من عنقي معنفًا: «هل آويتك عندي لتنقل الفتنة من غرناطة إلى طليبة؟»، ولم تكن لديّ رغبة في إفساد ليلتي الجميلة، فمازحته: «وهل كنت تريدني أن أحكي قصص القديسين وخرافاتهم؟»، فتوقف عن غضبه سائلًا: «وهل تعرف شيئًا منها؟»، وجدت لها فرصة لأنقل نفسي من منزلة الخادم إلى مرتبة الشاعر، متذكرًا القصص التي نسختها في بيت العم باديث، فقلت بفخر: «أعلم الكثير»، ولم أكن أتوقع أن

يتحول خوليو أمامي فجأة إلى كلب ذليل، فقد نهض من مكانه وأخذ يقبل رأسي قائلاً: «أنت من الآن صديقي، وشاعري المفضل».

في اليوم التالي وجدته وضع تختاً في صدارة المكان، وأرسل لي بشاب جديدة معطرة، وقبل أن أدخل على الناس وجدته يقول: «الليلة سيمتعا شاعرنا الكبير ألبرتو دي قرطبة بقصة القديس أنطونيو الشجاع»، ثم دفع بي نحو الأريكة بين تهليل وصياح من السكارى، ولم يكن في ذهني شجاع ولا ضعيف، لكنني اختلقت كلاماً سرعان ما وجدته ينتظم حول قديس يدعى أنطونيو، خرج من بيته قاصداً الانضمام لجيش الإمبراطور، غير أنه ضلَّ الطريق ودخل قرى الموريسكيين على الجبال، ولم يكن معه سوى عصا يتكئ عليها، فلما علم الموريسكيون بأمره خرجوا عليه بأسنانهم التي تقطر دماً راغبين في قتله، حينها لجأ لكهف صغير كي يحتمي به، فأشعلوا النار ببابه ليقتلوه، فما كان منه إلا أن استحضر المسيح في عينيه، وبكى متضرعاً حتى تحولت عصاه إلى سيف على هيئة صليب كبير، أشار به إلى النيران فتراجعت أمامه، وخرجت تطاردهم حتى عادوا إلى بيوتهم، وأخذوا يجتمعون حول شيوخهم قارئین تعاويذهم السحرية مستنجدين بالمردة والشياطين، لكن القديس أنطونيو كان شجاعاً، فكلما خرج عليه مارداً أخذ في محاربته حتى قضى عليها جميعاً، ثم اقتحم البيوت المحفورة في الجبال مشعلاً فيها النيران باسم المسيح، حينها خرجت الشياطين كأسراب الجراد الهائم في الهواء، فأخذ يجمعها في مخلاته ويلقي بها إلى وادي

الكلاب المشتعل بالنيران المقدسة، ثم جمع من القرية وأمر كلاً منهم أن ينزل لينتشل مارده من الجحيم، فكان كلما نزل واحد التهمته النيران باسم المسيح، فلما انتهى من القرية وشياطينها انتقل غيرها لينظفها من المردة والوحوش، حتى فتح الطريق لجيوش البابا الذاهبة لتخليص بيت المقدس من حكم الزنادقة الملحدين.

كان السكارى يرسمون علامة الصليب على صدورهم ووجوههم وهم يتابعون خرافاتي عن أنطونيو الشجاع، بينما خوليو يجلس منتشياً في ركنه وكأنه بعث من جديد، فقد زادت مبيعاته وكثرت التحايا باسم القديس الشجاع، وصاروا كل ليلة يطلبون مني أن أحكي لهم عن قديس جديد، والبدین یزید فی مکانتی لديه، كنت أبتكر شخوصي هازئاً من خرافات محاكم التفتيش، والسكارى يهللون لاسم القديس الأريب أو الشجاع، الشخص الوحيد الذي لم يهمل لشيء هو ثابيرا، فقد اعتاد الجلوس في مكانه متابعاً ما يجري إلى أن تنتهي قنيته فيلقي للبدین بأكثر من حسابه ثم يفر خارجاً من الخان، وظل على هذا الحال حتى حضر في يوم مبكراً قبل الجميع فسألته: «هل تريدني أن أحكي لك عن القديسين ومعجزاتهم؟»، فضحك ساخرًا: «مثلي لا يسمع لهذه الترهات»، حينها سألته: «ألا تؤمن بقدراتهم؟»، فضحك ثم وضع عينه في وجهي هامساً: «ليس لموريسكي أن يؤمن بالخرافات»، أصابتنی جملته بالدهشة والفرح، فهو آخر من كنت أتوقع أن يكون موريسكيًا، ربما لأن كل من عرفتهم منهم كانوا فقراء مستضعفين، فوجدتني أقول: «موريسكي

وشرى؟!»، فابتسم موضحاً أن والده كان تاجرًا كبيرًا، وأنه شارك في حرب البيازين، وحين هاجر إلى البشرات تركها ليقم بين المدجنين في طليطلة، «وهناك زادت ثروته، وورثت التجارة عنه»، يومها علمت أن العم باديث لم ينكرني حين رآني في الكنيسة بطليطلة، لكنه تتبع أخباري حتى علم أنني صرت لدى هذا البدين، فاتصل بثايرا كي أكون تحت عينه وسمعه، حين سأله عن أخبار طليطلة ومَن بها هز رأسه: «الهرم زحف على باديث، والورشة هجرها مَن فيها»، تسرب الحزن إلى نفسي، واجتاحني الشوق لرؤية باديث وزوجته وبيلا را، قلت: «أريد رؤيته»، قال: «محاكم التفتيش تترصد الموريسكيين في كل مكان»، فطفت سحابات الحزن على وجهي ولزمت الصمت حتى قال: «لكل معضلة حل، فصبراً آل جهور».

ظلمت أنتظره كل ليلة حتى يئست من مجيئه، وأيقنت أن مصيري البقاء في ذلك الخان حتى نهاية حياتي، لكنني فوجئت ذات مساء بالبدين يصعد إلى غرفتي ووجهه مسود كأنه بشر بموت عزيز عليه: «ثايرا يريدك»، فتهلل وجهي وغيبت ملابسي ونزلت لألقاه في ركنه المعتاد: «ظننتك نسيتني»، فرد ضاحكاً: «ما كان لي أن أجيئك دون أن يُقرئك باديث السلام»، فأخذت أسأل متلهفاً عن أخباره وهو يقول: «ليس قبل أن تحكي لي عما حدث في قرطبة بعد القاسم»، فجلست على الأريكة قائلاً: «طرده القرطبيون القاسم بن حمود ومَن معه من البربر مجمعين أمرهم على رد الخلافة لبني أمية، وجلسوا يخايرون

أنفسهم ما بين محمد بن العراقي وعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار وسليمان بن المرتضى، متوافقين على اختيار المرتضى خليفة لهم، لكن عبد الرحمن بن هشام دخل عليهم بجنده طالباً البيعة لنفسه، فبايعوه تحت السيف ملقبينه بالمستظهر، فما كان منه إلا أن وضع العراقي وابن المرتضى في سجن قصره، وأرسل للشعور أن يأتوه ولاتها بالبيعة فرفضوا، وأمسكوا أموالهم عنه، فأخذ أموال الأثرياء لينفق بها على جنده، وزاد في أمره أن استقبل البربر في قصره، فأيقن الناس أن ثورتهم على القاسم ورجاله ذهبت مع الريح، فنهضوا في حشود ليخرجوا المعتقلين من السجن، نازعين عبد الرحمن بن هشام من كرسي الخلافة حاكمين عليه بالموت، ثم بايعوا ابن عمه محمد بن عبد الرحمن بن الناصر بالخلافة، ملقبينه بالمستكفي، غير أنه سرعان ما أساء السيرة، مضطهداً أولي الرأي حتى فروا لاجئين إلى يحيى بن حمود في ملقة، فثار الناس من جديد وطارده حتى فرّ بنفر من رجاله إلى إقليج، وفيها سأله عمّا حمله معه من المال لهم، فلما لم يجدوا معه شيئاً قتلوه وفروا هاربين، فظلت قرطبة دون خليفة حتى جاءها يحيى، لكنه كره البقاء فيها، فعين لحكمها وزيره أحمد بن موسى ودوناس بن أبي روح، تاركاً معهم حامية من البربر لحفظ الأمن، ثار الناس على البربر من جديد، طاردينهم من مدينتهم ومعهم وزير يحيى، ثم بايعوا هشام بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر بالخلافة، فحكمهم عامين من مدينته في ألبونت، ثم جاءهم ليتلقى منهم البيعة من جديد، وظن الجميع أن عهد الفوضى انتهى، لكن وزيره الحكم بن سعيد القزاز جمع السفلة من

حوله، وأطلق العنان لأهوائه، فاضطربت الأحوال وامتعض العقلاء، وكرهوا الخلافة وبني أمية مثلما كرهوا البربر وحكمهم، فأجمعوا على إنهاء عصر الخلافة وتولية واحد من بينهم، ولم يكن هناك غير الوزير أبو الحزم بن جمهور مؤهلاً لذلك، غير أنه قال لهم: ابحثوا عن غيري، فربما وجدتم من هو أصلح مني، فردوا عليه: لو وجدناه ما جئناك، فقال: لكنني لن أغادر بيتي، ولا أترسم برسوم الخلافة أو الحجابة، ولا أقطع برأي دون رأيكم، فقالوا: من أجل هذا جئناك، فاستقرت الأحوال ونشطت الأسواق وسميت دولة بني جمهور بدولة الرأي وحكم الجماعة».

جلس ثابتاً طيلة الحكي يصفق مبتسماً، بينما خوليو يتميَّز غيظاً في مكانه، منتقلاً عينيه بين الضيوف كما لو أنه يبحث عن مفتشي الكنيسة بينهم، حين أنهيت قصتي نزلت بجانب ثابتاً: «خوليو سيجعلها ليلة سوداء»، هكذا قلت، فرفع ثابتاً كأسه في الهواء مزيداً من حقن البدين، ثم همس في أذني: «هذا كلب وسادته لا دين لهم سوى المال، فلا تشغل به»، هزرت رأسي وأنا أضحك من جملته، لكنني وجدت خوليو قائماً على رأسي يقول: «جاء اليوم الذي أنزل فيه لأمثالك الخمر»، فأغلقت فمي متوقعاً بيعي غداً في سوق الرقيق، أو تجديفي على سفينة متهالكة في طريقها للعالم الجديد، ولم يخب ظني كثيراً: «غداً سأعيدك إلى الكنيسة»، هكذا قال وأنا أنظر إلى ثابتاً مستجيراً، لكن الأخير التزم الصمت، ولم أعرف إن كان عليّ أن أضحك أم أجثو على قدمي طالباً من البدين العفو، ولم يكن أمامي سوى



أن ألقى في جوفي بمزيد من الخمر متذكراً باديث وبيلا را وفرناندو،  
فرحت أنشد:

أيها الراكب الميمم أرضي      أقرئ من بعضي السلام لبعضي

ظللت أشرب علي أنسى ما ينتظرنني في الغد، فرأيت وجه أبي وهو  
يردفني خلفه على الجواد منطلقين من قريتنا في رحلة لا تنتهي بين  
السهول والهضاب، رأيت باديث يعلمني كيف أحفر الخشب على هيئة  
الجص ملائكة وشياطين، وفرناندو الجريح يبكي دون أن أدري كيف  
تفرقت بنا المصائر، بينما بيلا را تجلس على سلم بيتها قائلة: «سنتظرك  
على حالنا»، فلا أعرف أهى التي قتلت سفوح البشرات أم هند ابنة  
الحبقي، رحت أصرخ في أبي الجالس في ركنه المظلم: «كيف عدنا  
من جديد غرباء؟»، وثايبيرا يهتف في البدين: «أنت قاتل»، والآخر يلطم  
على وجهه: «توقف عن محابة هذا الحقيير»، واستغرق الأمر كثيراً من  
الرجفة والبكاء، حتى حملني الخدم إلى غرفتي، وأنا أصحو وأغفو ما  
بين طليطة والبشرات، وأبي يحملني على جواده نحو قمة تجلس في  
أعلاها بيلا را بوجهها المشرق، وطفلها الصغير يصيح: «من أنت كي  
تبكيننا جميعاً»، وأنا أهتف: «إن رأيتم فرناندو فأبلغوه أن الثورة لا تحنو  
على الضعفاء».

في الصباح انتبهت على جسدي وهو يهتز فوق بغل عجوز في طريقه  
للكنيسة، رأيت البدين يقول للقس: «أرسلوه للجحيم»، فقلت إن الجحيم  
أفضل عندي من رؤية هذه الوجوه، لكن ثايبيرا جاءني بخدمة فحملوني

إلى بيته، ثم تركني وغاص في ظلمة ردهة بعيدة، بعدها رأيت باديث وفي  
يده صبي يهرول نحوي، هممت بالقيام لاحتضانه، لكنه ألقى بنفسه على  
صدري وراح يبكي، جاوبته بكاءً وبكاءٍ وعناقاً بعناقٍ، بينما حفيده يسأل:  
«مَن هذا يا جدي الذي تبكيننا لأجله»، فرفع باديث رأسه عني: «هذا يا  
بدرو عمك محمد، ابن شقيقي عبد الله بن جهور».

كان على رزق الله أن يتخذ أول سفينة متجهة إلى تونس بعدما رأى جده غاضبًا، فقد استقر في البيت الذي منحه له السنjq رجب، وقام بزراعة الأرض التي خصه بها، منتظرًا أول حصاد منها، كان قد نسي في غمار فرحة الناس به وأنسهم له ما قد جاء من أجله، لكن جده زاره في المنام قائلاً: «مباركة الأرض التي أنت زارعها»، في البدء قال إن العين الراعية راضية عنه، غير أنه ما لبث أن رأى جده من جديد ضاربًا باب بيته بسيفه الطويل: «أين وعد الحر لأهله؟»، حينها انتفض من نومه فارتدى ملابسه وأخذ يطرق باب السنjq طالبًا الإذن في الرحيل، «أأغضبناك في شيء أيها الموريسكي الطيب؟»، هكذا قال رجب، فبكى رزق: «ما شهدت معكم سوى الخير، ولا أظنكم تريدون لي سواه»، فنهض السنjq محتضنًا له: «عدنا إذًا بأن تعود لنا»، غير أن رزق الله خشي أن يقطع بوعده جديد لا يستطيع الوفاء به، فتعلل بطول الطريق وكثرة العثرات، ضحك السنjq: «ما نريد سوى وعد، إن تيسر فقد وجب عليك»، ثم أخرج كيسًا من الذهب قائلاً: «هذه هديتنا لأهلك في بلادهم البعيدة».

حين وصل إلى حومة الأندلس بحث عن أهله فلم يجدهم، سأل عنهم ف قيل له الربيع وعمار باعا محصولهما على الشجر لتاجر من بنزرت، ووقعا له على أوراق تضمن له عدم الرجوع في بيعهما، فأحضر رجاله وعبيده وحصدوا الثمار، لكنهم لم يتركوا الأرض، فلما سألوا عن السبب قيل لهم إنهم وقعوا على عقود بيعها، وإن هذه الأرض لم تعد الآن أرضهم، فغلت الدماء في العروق وتشاجروا، فجاءت الشرطة وحملت الجميع إلى بيت القاضي، قال الأخير إن العقود صحيحة وإن عليهم الاعتذار للرجل وعدم الدخول إلى أرضه من جديد، فلم يتمالكوا أعصابهم وراحوا يصرخون فيه بأنه قاضي سوء يحابي من يدفع له، فانتفض الأخير من مكانه قائلاً: «لم يبقَ إلا النصارى كي يشككوا في ديننا وذمتنا»، أمراً رجاله بجلدهم ليكونوا عبرة للجميع، فشاع الخبر بأن الموريسكيين تنصّروا من جديد، وأن القاضي يردهم إلى دينهم، وغلب الشيطان على العقول فتجمع الفضل والربيع وأبناؤهما مقررين إعادة أرضهم بالقوة، موسعين العبيد ضرباً حتى فروا إلى سيدهم، فأصدر القاضي أمره بترحيلهم عن بيوتهم من حومة الأندلس.

فكر رزق الله في الأمر مدركاً أنه لا يملك من القوة غير الحيلة، فحمل هدية السنجق رجب في يده وذهب إلى والي المدينة قائلاً: «ما كان لأهلي أن يعرفوا العربية وقد تربوا بعيداً عن ديارها، وما كان لهم أن يبيعوا أرضاً أصلحوها بأيديهم بعدما فقدوا أرضهم وبلادهم»، فنظر الوالي إلى زيه ورسمه قائلاً: «على رسلك يا رجل، من أين جئت وفيّمْ

كل هذا الغضب؟»، أخرج رزق كيسه وأخذ يمرر قطعه الذهبية بين يديه موضّحًا: «جئتم من والي المحروسة طالبًا الصديق والعدل»، فأفسح له الوالي بجانبه وأخذ ينصت لقضيته، ثم صاح في قائد شرطته: «الطيور المهاجرة لا بد أن تعود إلى بيوتها».

في الصباح جلس رزق الله يستقبل أهله وهم عائدون من سهول بنزرت ومجاردة وقرى نابل وزغوانن، كانت بيوتهم على ما تركوه عليه، كأن الشرطة والقاضي لم يكونا سوى حارسين عليها، فتدفقت دموعهم وهم يقبلون كل جزء فيها، وجلسوا يشكرون رزق على فعله الحسن، لكنه قال: «ليس للموريسكي أن يتزوج بغير أهله»، حينها تذكروا فيم أرسلوه، وشعروا بالخجل وغضب العين الراعية عليهم، فما حاق بهم ما كان إلا غضب عليهم، فنهض الربيع من مكانه طالبًا الغفران، فما أرادوا إلا الخلاص منه، خوفًا من رعونته وطمعًا في أرضه، لكنهم لم يجنوا سوى الخراب والبوار، حينها صرخ الفضل في أبيه الربيع وعمّه عمار أنهم محض خونة جبناء، وكاد الشجار بين الموريسكيين يصل إلى حد القتل في ذلك اليوم، حين هدأت الأعصاب وعاد كل إلى رشده تناوب الربيع وعمار على الاعتذار لرزق الله مقبيلين رأسه ويديه، لكنه قال: «لقد أبدلني الله أرضًا خيرًا من أرضكم، ودارًا أفضل من دياركم، ولا أريد منكم سوى أن تزوجوني إحدى بناتكم، فليس للموريسكي أن يتزوج بغير موريسكية»، فزوجه عمه الربيع ابنته أمان الله، فبنى بها في دار أبيه، ثم حملها معه على السفينة الذاهبة إلى الإسكندرية عائداً إلى المحروسة.

ظلت الجدة جنى تحكي لمراد والطبيب عما جرى لرزق الله مع أهله حتى داعب النوم جفניה، فتثاءبت ونظرت في عين الطبيب قائلة: «ألا يستحق هذا أن يكون في كتاب؟»، فنظر الطبيب و مراد لبعضهما مبتسمين وخرجا إلى شرفة البيت بحثًا عن الهواء الطري، هنالك قال مراد لصديقه: «رأيت مرضاك قد كثروا»، فاتخذ الأخير سمت الحكماء وهو يقول: «الناس في الأزمات يبحثون عمَّن يخفف من هواجسهم»، رفض مراد أن يكون ذلك كل عمل الطبيب، وعلق الأخير بأن ثمة أنواعًا من القلق تموت باستسلام الناس لها، ودور المعالج لا يخرج عن التمهيد لذلك، تعجب الموريسكي من أن يكون الاستسلام حلًا، ووافق صديقه بأن ذلك في الظاهر يبدو كحل، لكنه بالتكرار يتحول إلى مرض أبرز أعراضه هو السلبية والعدمية، أخذ مراد يبحث في ذهنه عمَّن تنطبق عليه هذه الأعراض، فوجد نفسه وكل من يعرفهم بمن فيهم الطبيب الذي يعيش شبه منعزل عما يدور حوله من أحداث، وكأنه موريسكي يعيش أسفل جلده، فسأل ساخرًا: «هل أنت موريسكي؟»، وعلى نقيض ما توقع فوجئ بعيني الطبيب تروغان بعيدًا، كما لو أنه يهرب من شيء ما. «أنا.. أنا»، هكذا قال بارتباك ودفعت ضحكته الباهتة مراد لأن يعاود الضغط من جديد، وأمام إصراره وجد الطبيب نفسه يقول: «ربما، فأنا لا أعرف لي عائلة غير أبي الذي مات في سن مبكرة، فعشت يتيماً يتنقل من مكان لآخر، ولا أعرف إن كنت أحب العزلة أم أنني موريسكي يحمل الخوف بداخله».

عدت إلى اسمي الذي تعرفني به طليطلة: خوسيه أرماندو، واجتمع من بقي من أصدقائي القدامى ليسلموا عليّ، بينما أعلن العم باديث أنه سترك لي الورشة كي أديرها بما تعلمته من فنون جديدة، حين رأيت بدرو يقف بجانب مستاء ربّت كتفه: «لا يمكنني تقديم جديد بدون صاحب المكان»، هكذا قلت فهلل الجميع استحسانًا، وعادوا يسألونني عن البلاد التي زرتها لتعلم الفنون، فأخذت أتهرّب حينًا وأتذكر ما سمعته عن بلاد عديدة في بعض الأحيان، ناسجًا من خيالي حديثًا مطولًا عن جمالها ومبدعيها، ووجدت النساء أفضل ما ينصت إليه الناس فتفنت في وصف محاسنهن ومغامراتي معهن، فافتنع البعض بما قلت وتوقف البعض عن المجادلة خوفًا من فتح أبواب الألم على العم باديث.

كنا قد عدنا من طليطلة ليلاً فوجدنا بيلارا وزوجة العم باديث في انتظارنا، بكيت وأنا أحضنهما وجلسنا نستقبل المرحبين بعودتي، حين قررت الذهاب للنوم رأيت بيلارا على السلم فقلت: «كيف حالكم؟»، قالت: «كما تركتنا»، ولمحت في عينيها نظرة حزن لم أستطع تحملها،

لم تكن الحمى قد فارقت جسدي بعد، فقد لازمت الفراش في طلبيرة شهرين ما بين العرق الغزير والهذيان الذي يأخذني من البشرات إلى غرناطة ومن طلبيرة إلى طليطلة، حتى أيقن باديث وثاير أنني راحل لا محالة، واستسلما للأمر في انتظار هذه اللحظة، لكنها لم تأت، فقد جاءني أبي قائلاً: «ما عهدناك بهذا الضعف»، ابتسمت معاتباً: «لم تركتني؟!»، لكنه لم يجب، وظل الصمت معلقاً على وجهينا حتى أوشك النهار على الغروب، فرفع رأسه: «آن لي الرحيل»، وبلهفة قلت: «هل آتي معك؟»، نظر ملياً في وجهي ثم قال: «ينتظرونك الآن في طليطلة، فانهض لهم»، فتحت عيني لأرى بدر و يختبر قدرتي على رؤيته، ابتسمت محاولاً الحديث معه، لكنه لم يحدثني وفر صائحاً على باديث وثاير: «إنه حي.. ما زال حيّاً»، فرأيتهما يهرولان نحوي: «حمداً لله على السلامة؟»، فابتسمت قائلاً: «ثمة مَنْ ينتظرني الآن وعليّ النهوض من أجلي»، وفي صباح اليوم التالي امتطينا البغال لنبداً الرحلة نحو طليطلة الجميلة.

لم يستغرق الطريق أكثر من خمس ساعات، لكنها كانت طويلة بما يكفي، حدثني فيها باديث عن والدته التي تزوجها جدي محمد بن جهور بعد خروجه من البيازين، كان يريد أن يثبت لمحاكم التفتيش أنه صار موريسكيّاً صالحاً بالنسبة لهم، فأعلن تنصره وذهب إلى صديق له في طليطلة من المدجنين طالباً زواج ابنته، فضحك الرجل قائلاً: «أعرف مَنْ يمكنه أن يزوّج ابنته لرجل عجوز مثلك»، فتزوج وعاد بعروسه



الجديدة إلى البشرات، لكنه لم يلبث أن مات تاركاً ثمرة في بطنها، قال باديث: «كنت أنا هذه الثمرة التي لم ترَ زارعها»، فحملته أمه إلى طليطلة لتعيش مع أهلها، لكن أشقاءه ظلوا يزورونه حاملين معهم المال والهدايا حتى تفرقت بهم المصائر، جميعهم توقفوا عن الزيارة ما عدا عبد الله الذي لم ينسَ يوماً أن له أخاً في طليطلة.

حين سألته عن سبب خروج آل جهور من غرناطة قال إن جدتي لوالدي كانت السبب، فلم تكن تريد أن تنسى عزها القديم، كانت تخرج كل يوم في خدمها وجواربها إلى الحمام الكبير، وتعود في أبهتها كأن ابنها ما زال وزيراً، وأن أجدادها ما زالوا ملوكاً، ولم يستطع القشتاليون احتمال ذلك، فتركوا عسكرهم يضيقون عليها حتى نزلت وصفعت أحدهم، ونشب الشجار بين خدمها وبينهم، وتنادى الناس أن القشتاليين يعتدون على امرأة في السوق، فخرجوا لنجدتها وفرَّ الجند من أمامهم، لكنهم كانوا يدركون أن ذلك سيعقبه هجوم كبير، فظلوا جالسين على أبواب بيوتهم حتى جاءهم ذلك الهجوم، فانتفضوا مخرجين ما خبئوه من سهام وسيوف لملاقاتهم، فقتلوا بعض الجنود وطرّدوا الآخرين، وشعروا أن بإمكانهم استعادة ملك أهلهم، فاحتلوا الأبراج وأقاموا المتاريس، وما لبثوا أن هاجموا قصر الحاكم وأرغموه على الفرار، وانتخبوا من بينهم حكومة لم تدم أكثر من أيام، فقد تغير قائد جند غرناطة بقائد جديد قدم اعتذاره عما فعله سلفه، مُقراً لأهل البيازين حقوقهم في صون حرمانهم ودينهم وأموالهم، وزاد في الأمر أن حمل أبناءه وزوجته ليقموا بينهم،

قائلًا: «هم رهائن لديكم إن خالفنا عهدنا معكم»، فتخذّرت الأعضاء وعادت الحسابات للرؤوس، فنزلوا من الأبراج ورفعوا المتاريس عن المدخل، ومضت الحياة في سلام حتى فوجئ الجميع بجيش مجرّط يحاصر الحي، ففر أعضاء الحكومة ورجالها إلى الجبال، وجاء قرار فرناندو وإيزابيلا بترحيل أهل البيازين عن بيوتهم، ولم تمضِ شهور حتى صدر قرار التنصير، وجاءت بنفسها إلى غرناطة لإعلان بدء تطبيقه، ولم يكن لأحد أن ينسى أن آل جهور كانوا السبب في ثورة البيازين.

في الصباح وضعت بيلارا الفطور ثم تركتني مع العم باديث وحدنا في غرفة الجلوس، فأومأت سائلًا: «أما زلت على وعدك لي؟»، فhez رأسه بحزن: «كان بيدرو صغيرًا، والرأي له الآن»، شعرت أنه يرفع يده عن خطبتي لبيلارا، وقلت ربما كان يريدني أن أرتبط بها كي لا أذهب إلى البشرات، فرحت أزج بنفسي في طريقي إلى الورشة، حين وصلتها لم أجد بها سوى صبي لا يعرفني، فقال إن بدرو يجيء في الظهيرة دائمًا، وباديث قد يأتي أو لا يأتي، جلست مكانه طالبًا أن يحضر لي نعناعًا مغليًا، حين جاء بدرو سألته عمّن كانوا يعملون مع جده، قال إنهم فتحوا ورشًا أخرى وأخذوا ينافسوننا بما تعلموه منا، ثم تركني وذهب لبعض شؤنه، طلبت من الصبي أن يحضر لي قطعة كبيرة من الصلصال، فرحت أشكلها على هيئة عجوز ضخمة بلحية طويلة وعصا يهش بها على غنمه، حين عاد بدرو أبدى دهشته سائلًا: «مَن هذا؟»، قلت: «النبي موسى يسوق خرافه في الصحراء»، وسرعان ما ظهر العم باديث مبدئيًا إعجابه،

فضحكت قائلاً: «غداً يندم من تركوا ورشتنا خاوية»، وشرعت في عمل مجسم كبير من التمثال، قال باديث: «ما الهدف؟»، فرددت بثقة: «ليس لمثلك أن يبخل على الكنيسة بما أعطاه الله»، فبرق في عينيه ضوء شفيف وهو يقول: «أنت المسئول الآن»، غير أنه في الصباح أرسل إليّ المزيد من المواد التي قد يحتاجها التمثال للاكتمال، وما إن انتهيت حتى قلت لبدرو أن يصطحب جده إلى الكنيسة طالباً حضور رئيسها القس أنطوان لرؤية التمثال، حين حضر الرجل كانت طليطلة بتمامها قد علمت بالأمر، وحين أعلن افتتاحه به عقب العم باديث أنه هدية للكنيسة كي تشملنا برعايتها، كان ذلك بمثابة الفتح العظيم، فقد صنعنا من التمثال نسخة وضعناها أمام الباب لنذكر الناس أننا أصحاب التمثال المنتصب على قاعدة من خشب السرو في مدخل الكنيسة، فتهافت الكثيرون على طلب نسخ منه، ولم يكن أمامنا سوى أن نصنع قالباً من الجبس نضغط فيه الطمي فنخرج عشرات النسخ، وجلس باديث على مكتبه يسجل الطلبات ويجني الدوقات الذهبية، وللحظة شعرت أن طليطلة صارت كهلاً يتمسح بالدين، فطلبت من بدرو أن يكتب على باب الورشة: «توجد قصص جديدة عن القديسين المشائين»، ورحت أملي على بعض الصبية ذوي الخط الحسن ما كنت أرويه للسكارى في حانة خوليو بطليبرة، فما كان من الناس إلا أن دفعوا ثمن القصص قبل أن يتسلموها بأيام، وأخذ الأثرياء يطلبون عمل تماثيل أمام مداخل بيوتهم، بينما الكنيسة لا تقوم بترميم أي جزء في بنائها دون استشارتنا، وكثيراً ما طلبنا آباؤنا

لتزيين حجراتهم وبيوت أصدقائهم، مقترحين أشكالاً جديدة من النحت والتصوير لتوضع في أركانها، فصار اسمي الأكثر تردداً في طليطلة، وصارت الورشة الأكثر جذباً للناس.

كانت الشهور التي أمضيتها مع بدرو في العمل قد أقنعتني أنني والده الذي لم يرّه، وكلما طلب منه الناس شيئاً كان يقول: «اسألو أبي»، حتى وجدته ذات مساءً يقول: «ليس لأمي أن تتزوج من رجل غريب»، كانت سعادتي وقتها بلا حدود، وشعرت أن آبائي وأجدادي جميعاً راضون عني، فذهبت للعم باديث طالباً يدها، هي بدورها كانت تنتظر هذه الفرحة منذ سنوات، خرجنا بكامل حلتنا إلى الكنيسة ليتلو القس أنطوان موعظته ويرشنا بمائه المقدس، عقدنا الإكليل بالكنيسة وعدنا إلى البيت مسرورين، لكنني همست في أذن عمي باديث أنني لا يمكنني الزواج من بيلارا إلا على الطريقة الإسلامية، فhez رأسه قائلاً: «أمهلني يومين»، فتأجل دخولنا حتى أحضر شيخاً وثلاثة موريسكيين برفقة ثابيرا، فوضعنا أيدينا تحت يده ورحنا نردد في سرنا خلفه الفاتحة قابلين الزواج على مذهب الإمام أحمد بن حنبل.

بعد أيام أخبرني بيلارا أنها تريد إعلان إسلامها، قلت إن بدرو بالكاد يحتمل زواجنا، فلن نزيد الفجوة بيننا وبينه بذلك، فمارحتني قائلة: «يبدو أنك لا تريد أن يزداد عدد الموريسكيين في هذه البلاد»، فتعلق ذهني بهذه الكلمة، وظللت أفكر في أمر الموريسكيين الموشكين على الانقراض، ورحت أفكر في إحياء أرواح المسلمين في أجسادهم، وظل الأمر يدوي

في رأسي كدوي النحل حتى صعدت على سطح المنزل في جوف الليل بحثًا عن الهواء، وللحظة تخيلت أنني مؤذن يرفع الأذان للصلاة كما كان أهلي في البشرات يفعلون، ودون أن أفكر وضعت يدي على فمي كالبرق ورحت أهتف بالتكبير وتلاوة الشهادتين، شعرت حينها أنني أزحت ثقلاً عظيمًا من على صدري، كنت كلما ارتفع الصوت تلاشى الخوف من أعماقي، لكنني ما إن أنهيت ثورتي حتى وجدتني أفكر في العواقب، فارتد إليّ الخوف واجتاحني البرد حتى ارتعدت مفاصلي، فهرولت إلى بيلا را قائلًا: «دثريني»، سألتني عمًا حدث فقلت: «صرخت في الناس بالأذان، ولعل الجند قادمون إلى البيت الآن».

في الصباح لم أذهب للورشة، وظللت لا أغادر فراشي ولا خوفي يغادرني، وحين زاد انتظار باديث لي قرر العودة للسؤال عني، أبلغته بيلا را أن الحمى عاودتني، لكنه فاجأها: «هل خرج من البيت الليلة؟»، فأبدت دهشتها وارتبكت في الإجابة سائلة عن السبب، فقال: «الناس يتحدثون عن رجل رفع أذان المسلمين بالليل، والجند يبحثون عنه في كل مكان»، لم يكن أمامي سوى النهوض سائلًا عمًا حدث، قال إن منازل الموريسكيين تم تفتيشها وتحطيم نوافذها وأبوابها، ومن وجد عنده كتاب أو ثياب عربي سيق إلى المحكمة. وضعت يدي على جبهتي باحثًا عن الحمى اللعينة لكنني لم أجدها، فأشار لي أن أساعده في حمل تمثال كبير للمسيح كي نضعه أمام الورشة.

لا أحد يعلم من الذي رفع الأذان في منتصف الليل التالي، كان صوته عاليًا وراسخًا كما لو أنه اعتاد على رفعه مئات المرات، أنا نفسي

سمعتة من غرفتي وخرجت متنصتًا على مصدر الصوت، بدا لي للحظة أنه بعيد، وبدا للحظات أنه أقرب مما أتوقع، لكنني لم أستطع تحديد مكانه، وجلست في الصباح سائلاً عما حدث، البعض قال إنه لم يسمع ويعرف بشيء، والبعض أكد الواقعة في همسٍ كَمَن يتحدث عن أمر مخلٍّ بالشرف، ومن العيون والأصوات كنا نتكهن بَمَن ظل على إسلامه ومَن انخرط في مسيحيته للأبد، كنا نتجنب أصحاب الأصوات العالية، ونبحث عن الخائفين كما لو أن أصابع الاتهام تشير نحوهم، وحين نسأل عن حال الذين أخذوا للمحكمة التفتيش كان الكل يتأسى لحالهم، متفتنًا في وصف ما وقع لهم من تعذيب وضرب أمام الجميع، فما بالنا بدخولهم على الآلات ذات التروس والأسنان والمقابض، حين قلت إن علينا إغالة أبنائهم تفرق الناس من حولي، شعرت أن ثورتي لم تأتِ إلا بتعذيب الأجساد بعدما ماتت الأرواح، وجلست شاردًا أنظر للدوقات العشر التي وضعتها كي يكملوا عليها، موقنًا أن الخوف هو الذي يقتل الرجال، لكنني فوجئت بعد قليل أنها صارت عشرين، ولم يمض كثير من الوقت حتى وجدت في يدي ما يزيد على مئة وخمسين دوقه، لبيدًا التفكير في طريقة لتوصيلها لبيوت من أخذتهم الشرطة للسجن، كانت بيلارا صاحبة الحل العظيم، فقد وضعتها في صرر ونزلت بها إلى السوق، ومن أسفل عباءتها كانت تلقي بها في مداخل البيوت، كان ذلك بمثابة انتحار علني، لكنها فعلتها قائلة: «هل أستحق الآن أن أكون موريسكية؟»، فضحكت قائلاً: «إنك بألف من المدجنين»، واحتفلنا بإعلان إسلامها.

فوجئ مراد أن أكثر من عشرين شخصًا في صالة بيته يتحدثون، ما إن طرقت أقدامه الردهة حتى خفتت أصواتهم، فراح يتطلع إلى الوجوه التي لا يعرفها، وبطبيعة الموريسكي في ساعة الخطر دخل سريعًا تحت جلده، وكاد يطلق لأقدامه العنان متراجعًا لولا أن صوت ناريمان لاحقه من عمق الردهة المؤدية لغرفة الجدة: «تأخرت ليه يا مراد؟»، فتوقف في مكانه سائلًا إن كان ثمة موعد بينهما؟ لكنها جذبتة من يده وأخذت في تعريفه بالحضور، قائلة إنهم ما بقي من الموريسكيين بالمحروسة، فقد كلفت أصدقاءً بالبحث عمن هاجروا من بيت الموريسكي، فكان هؤلاء كل من استطاعوا التوصل إليهم.

تطلع مراد في الوجوه متبهاً إلى أنهم جميعًا في العشرين من العمر، وضعت ناريمان مسحة من الحزن على صوتها وهي تقول: «آباؤهم لم ينج أي منهم من غضب العين الراحية»، وسرعان ما جذبتة من أفكاره بورقة ممهورة بخاتم دار الكتب قائلة: «هذه صورة طبق الأصل من وثيقة وقف الموريسكي»، كان وجهها متهللاً بالفرح كما لو أنها حققت نصرًا

عظيمًا، بينما التف الموريسكيون الجدد من حولهما متسائلين عما تعنيه الورقة، راحت تتلو عليهم بصوتٍ مسموع: «هذا ما أوقفه الملتزم عطية الله بن إبراهيم الخولي بن رزق الله بن يونس بن محمد بن عبد الله بن جمهور الموريسكي المقيم في المحروسة على عائلته ومَن وفد منها على رواق المغاربة بالجامع الأزهر، مئة وخمسون فدانًا بجوار بحر النيل بزمَام دائرة قليب، تُدار بواسطة شيخ الأزهر أو مَن ينوب عنه في إدارة الوقف، ولا يحق التصرف فيها إلا بإذن من عميد العائلة». ثم قرأت التاريخ وأسماء المشايخ الذين وقعوا عليها.

كانت فرحة الموريسكيين بلقياهم كبيرة، وكادت الصالة تشتعل من الصياح بالفرح، نظر مراد في عيني ناريمان سائلًا: «كيف حصلتِ عليها؟»، أجابته أن أصدقاءها بحثوا عنها وسط آلاف الوثائق حتى وجدوها، فتركها وراح يبحث عن جدته النائمة في غرفتها، انتبهت الأخيرة على طرقات أنامله لشباك سريرها، رفعت عينيها إلى وجهه بحزن وهي تقول: «أبلغتهم أنك العميد، وليس في يدي شيء»، لم يعرف بِمَ يُدلي للجالسين في انتظاره بالصالة، فخرج إليهم آسفًا: «لست عميدكم ولا أملك من الأمر شيئًا»، أسقط في يدهم، وأخذوا يتطلعون إلى ناريمان عسى أن تنقذهم بشيء، لكنها هي أيضًا كانت في حيرة من أمرها، ولم تعرف بِمَ تجيب العيون المصوبة نحوها، فتركوها وتسحبوا بأقدامهم كأسراب قطط عرفت طريقها للخروج، وحدها ناريمان التي بقيت لتصرخ في وجهه: «لماذا؟»، ولم يكن أمامه سوى السؤال عن



الموعد المرتقب لمؤتمر الموريسكيين، لكنها حملت حقيبتها ونظرت في وجهه بمقت شديد قائلة: «تم تأجيله».

حاولت جنى هانم التماسك قدر الإمكان أمام أسئلة مراد عما يجري من حوله، قالت إنها تجاوزت الثمانين، وقدرتها على معرفة الصواب من الخطأ صارت ضعيفة، فربّت كتفها وهمّ بالخروج، لكنها لاحقته بصوت واهن: «هذا اختبارك يا مراد، ولا ترقى دون اختبار»، ظلت كلماتها تتردد في أذنه حتى زادته ضعفاً على ضعف، وخرج لا يعلم إلى أين يمكنه الذهاب، فكل ما يسيطر على ذهنه أنه بحاجة لمكان يختلي فيه بنفسه مراجعاً حساباته، تذكر جده رفيق وعزلته باكياً في غرفته، تذكر حبيب الله وقسوته على أبناء عمومته، وهانم التي حافظت على شمل العائلة طيلة أيامها، وجنى التي انفرط العقد من بين يديها، وظل في دوامة التذكر، حضرت ناريمان في ذهنه قائلة: «الأرض في مقابل الأرض»، بينما صديقه ضابط الأمن راح يقول إن الباشا الكبير ألغى الأوقاف، وإن لم يلغها فلا توجد قوة على الأرض يمكنها هدم البيوت والشوارع والميادين من أجل أناس تركوا أرضهم كل هذه السنين.

ألقي بجسده للنوم كي يرى العين الراعية على جوادها تمرح في بقعة واسعة خضراء، وسط جبال مكسوة بالزيتون والساسبان، أخذ يركض خلفه سائلاً عن سر فرحه، لكن المسافة بينهما لم تكن تطول ولا تقصر، ظل يلهث خلفه وهو يصعد نحو قمة جبل عالٍ، بعدها رآه ينزل عن جواده ليدخل في كهف صغير، كانت الظلمة فيه تبدو كجدار سميك،

ظل يمشي على غير هدى حتى تكشفت له معالم المكان، عبر ضوء خفيف في العمق البعيد من الكهف رأى جده جالسًا يملي كلمات أخيرة على شخص بجانبه، كانت الدهشة كبيرة حين رأى صديقه الطبيب، سأل مراد جده عما يفعل في هذا المكان، فابتسم وهو يضرب بيده على الدفتر الكبير: «هذا عهدنا لك.. فأين عهدك لنا؟!».

كانت البلاد قد حسمت موقفها من الدستور ودخلت تحت جلدتها كموريسكي ساعة الخطر، ولم تكن هناك مطالب سوى تغيير الحكومة، الشيء الوحيد الذي حرّك المياه الراكدة هو كلمة «تمرد»، والتي وضعت على منشور وضع خارطة جديدة للبلاد، لم يكن مراد في حاجة للانشغال بشيء سوى اختباره الخاص، فقرر الانسحاب باحثًا عن طريقة لترتيب أفكاره، فكر في مكان يختفي فيه عن راشيل وعيونها، ولمعت في ذهنه فكرة أن يكون قريبًا من جدته بعيدًا عنها، رأى أبواب الموريسكيين المغلقة على حالها منذ سنين تظهر أمامه، فحمل صندوق مفاتيحها وخرج ينظر أيها يصلح خلوة تليق باختباره الكبير، على بسطة السلم وجد القط الكبير واقفًا في انتظاره، لا يزوم ولا يكشر عن أنيابه، فقط يومئ برأسه كما لو أنه يقول: «اتبعني»، ترك أقدامه ترتقي الدرجات خلفه، وكلما فتح بابًا وجده يسبقه متفقدًا المكان، رأى النوافذ مغلقة وقطع الأثاث مغطاة بالبياضات كالشواهد العظيمة، بينما روائح الرطوبة والهواء العفن تحول بينه وبين القدرة على البقاء فيها، فظل يصعد خلف القط حتى وصلا إلى الباب الفاصل بين السلم والسطوح، لم يكن مراد متبهاً إلى أن لقياه هناك، فأخذ

القط يضرب الباب بقدميه حتى فتحه، فتسلل منه النسيم العليل، ورأى مراد بوتقة الضوء القادم من لوحات الإعلانات المعلقة على العمائر المحيطة، كانت غرفة الغسيل مغطاة بالقرميد كطائرة موشكة على الإقلاع، حين فتحها وجد كرسيًا ولمبة كهرباء وتسلل إليه شعور بأنها كانت خلوة أثيرة لواحد من أجداده، حينها نزل فأحضر حاسوبه وحقيبة ملابسه وما يحتاجه من أوراق وأقلام، وجلس أمام الشاشة البيضاء كاتبًا بخط كبير: «متاهة الموريسكي الأخير»، لم يكن في ذهنه أكثر من ذلك، لكنه أخذ يرسم شجرة العائلة منذ جده عبد الله بن جهور حتى ناريمان، محدّدًا فروعها وأصولها، من بقي منها في تونس ومن جاء إلى المحروسة، مسجلًا أسماء من سكنوا في بيت حبيب الله ومن خرجوا منه، ومن تولّى العمادة، ومن أصابه غضب العين الراعية، ثم قاداته أنامله لأن يكتب تعريفًا بكل منهم، ذاكراً ما جرى في عهده، دون أن يدري أنه شرع في وضع كتابه الكبير.

كان شعوري بالذنب كبيرًا تجاه الموريسكيين الذين أخذتهم المحكمة، وما كان لي أن أطلب كل يوم من الناس التبرع لرعاية أولادهم، كان ذلك بمثابة إعلان للشرطة بأنني أطلقت صيحة الأذان، وكان عليّ التفكير في اتجاهٍ آخر، فأعلنت أنني سأصنع تمثالًا كبيرًا ليوحنا المعمدان كهدية جديدة للكنيسة، أحضرت المواد المطلوبة وبدأت في العمل، وقطعت مرحلة كبيرة فيه ثم توقفت ذاهبًا إلى الكنيسة، يومها طلبت لقاء الأب أنطوان شارحًا كم يحتاج تمثال بهذا الحجم إلى جهد ومواد وعمال، ومن ثم فليس أمامي سوى أن ألجأ إلى الآباء كي يمنحوني معونتهم، يومها لم يستوعب الرجل، فكنيستهم لن تعطي شيئًا لأحد حتى لو كان المسيح ذاته، حينها طرحت ما أردت الوصول إليه: «هل يمكنكم أن تدعموني بصك يسهل لي جمع تبرعات من الناس لإكماله؟»، نظر القساوسة لبعضهم كأن الأمر لا يعينهم، فوافق أنطوان على منحي ذلك الصك، كان ذلك إنجازًا لم يتوقعه أي من باديت ولا بدرو ولا حتى بيلارا، فقد صارت لدينا القدرة على دخول كل البيوت

دون خوف أو معارضة من أحد، في المساء جلست معهم نتحدث بسعادة عما وصلنا إليه، لكن اجتماعنا ما كان له أن يكتمل دون حضور ثاير، هذا الذي أرسلت إليه سرًا، فوجدناه على العشاء يطرق الباب قائلاً: «هل لكم في ضيف جائع؟»، رحبنا به وأنهينا عشاءنا ورحنا نتحدث عما جرى في طليطلة، قال سمعت أن مؤذنًا صاح في أذن القساوسة، وندت عني ضحكة جاوبتها ابتسامة من العم باديث، بعدها أعلن الأخير لثاير أنني صرت مفوضًا من قبل الكنيسة في جمع تبرعات لعمل تمثال كبير، حين أخبرته عن هدفي وجدت الحزن يطفو على وجهه: «وهل سترك الذين يعملون لدى خوليو وأمثاله؟»، فتذكرت الحال التي كنت عليها مع البدن، وانتبهت إلى أن هناك من يحتاجون للمساعدة أكثر ممن هدمت نوافذ بيوتهم، فجلسنا نضع خططنا للأمر، قال إن لديه خطة في تهريبه، لكن الأمر يحتاج لمزيد من المال، قلت: «هل سنردهم إلى بيوتهم في البشرات؟»، قال: «ما المانع؟»، ورددت بأن الإسبان لن يسمحوا بعودتهم، ضحك قائلاً: «في الجبال متسع للجميع»، هزرت رأسي بالموافقة قائلاً: «أمهلني يومين كي أجمع ما نحتاج إليه».

في الصباح أخذت أحد مساعدي ورحت أتجول في المدينة طالبًا المساعدة لإكمال تمثال المعمدان وهو يعمد المسيح بالماء، رحلت أبحث في الوجوه عن الموريسكيين المختبئين بين المسيحيين القدامى والمدجنين، كانت ملامحهم واضحة وخوفهم ظاهر، كنت أقف في وجه كل منهم هاتفًا: «اترك شيئًا للمسيح»، ومن كان يمد يده ليمنح كانت

تعود بالمنحة ومعها ما يزيد، لا أعرف كيف انتشر أمر جمعي للمال في المدينة وأجوارها، فأخذ القساوسة يسألونني عن القدر الذي تحصلته طالبين نصفه، معينين كاهنًا يدور معي كمشرف على عملي، هو بدوره كان فاسدًا كأغلبهم، كنت أجلسه في خان على نفقتي وأذهب لأتفقد ما أريده، وحين أعود أعطيه نصيب الكنيسة وشيئًا لنفسه، كنت أعلم أنه يزيد مبلغه مما سيسلمه لرؤسائه، ولم يكن يشغلني ذلك، فعملي كان يسير وفقًا لما أردت وبحماية من الكنيسة ذاتها، ظل الأمر على هذا النحو شهورًا حتى دخلت بيت واحد من الأثرياء، سألته باسم المسيح أن يساعدنا على إنجاز ما بقي من التمثال، أخرج مئة دوقه أمامه قائلاً: «لكنني أريد التمثال»، فابتسمت موضحًا أن ذلك يكلفه ألف دوقه على الأقل، فسحب يده قائلاً: «حين تتم عملك جثني به وأنا أنقذك ما تريد»، كان الأمر بالنسبة لي طرفة، وفكرت في عمل تمثال آخر وبيعه إليه، لكن ثابراً أثار الرعب في نفسي قائلاً إن هذا الرجل مهووس باستعباد الموريسكيين، ولا بد أن هذا اختبار، بعدها سمعنا أن لصوصًا هاجموا بيته وأخذوا ما به من ذهب وأموال، وأن بعضًا من رجاله سهلوا لهم الأمر وفروا معهم هاربين. وظل تمثال المعمدان دون اكتمال جملة من السنين، فقد نسيت الكنيسة أمره، ولم يعد قساوستها يسألون عنه، فقد انشغل الجميع بهجمات اللصوص وهروب الموريسكيين من بينهم، وكثر التوتر على مداخل القرى ومفارق الطرق، وتكرر الاعتداء على الشرطة والقساوسة والأثرياء في وضح النهار، وفي الأخير جاءت الحرب بين البرتغال والسعديين لتغطي على ما دونها من أخبار.

في تلك الآونة تزوج بدرو من ابنة تاجر كبير، فأصر على إقامته  
ببيت يخصصه، لكن باديث رفض الأمر حتى نصحه ثابيرا بأن ذلك أفضل  
لأسرارنا وما نحن فيه، فاشترى له بيتًا على مقربة من الورشة تيسيرًا  
لمتابعة شئونها، كانت السنوات تتسرب من أيدينا كالماء، لكن السؤال  
الذي لم أكن قادرًا على نسيانه: «أين ذهب فرناندو؟»، فظللنا نبحث  
عنه في كل المدن دون جدوى، وبعد عشر سنوات من البحث التقى  
رجال ثابيرا برجلين أضرمنا نارًا في كنيسة، كانت الشرطة قد أخذت في  
مطاردتهما ولم ينقذهما منها غير رجال ثابيرا، حين علموا أنهما من أهل  
البشرات سألوهما إن كانا يعرفان فرناندو بن جمهور، قال أحدهما إنه  
عمل معه كجندي وإن آخر أخباره كانت منذ عامين، التقاه في طريقه  
إلى طليطلة، لكنه لم يعرف وجهته بالتحديد، حين حكى ثابيرا ذلك  
أيقنت أن فرناندو ما زال حيًا، وأن الأمل ما زال قائمًا لألتقي به، وظللت  
أتوقع ظهوره بين لحظة وأخرى، مضت أعوام كلما سمعت فيها بحضور  
غريب إلى طليطلة أسأل عن أوصافه وهيئته، وربما بحثت عنه وذهبت  
لرؤيته، لكن بدرو جاءني قائلاً إن تاجرًا من بلنسية يسأل عني، فذهبت  
للقائه، وما إن رأيته حتى شممت فيه رائحة فرناندو، قلت: «هل رأيته؟»،  
فوضع يده في جيبه مخرجًا ورقة أخذت في قراءتها متشممًا كل كلمة  
فيها، قال إنه بحث عني في كل مكان حتى علم أنني في طليطلة، فلما جاء  
لرؤيتي لم يستطع لقائي ولا حتى مجرد الظهور لي، قال: «مباركة عليك  
حياتك الجديدة، لكنني سأظل موريسكيًا ما حييت»، حينها ارتجف قلبي

وغلبنى البكاء، وكدت أشهق لافظاً أنفاسي حزناً، فقد أضعت ابن عمي بيدي، لكن الرجل أخذ في مواساتي موضعاً أنه بصحة جيدة، وعقل رزين، وأنه أوصاه حين التقاه على مفارق طرق بلنسية أن يخفي الأمر كي لا يفسد عليّ حياتي، قال أيضاً إن قبضة محاكم التفتيش هناك أقل وطأة، وإن الموريسكيين ما زالوا يمارسون عاداتهم بحرية أكبر، لكن الرجل صدمني في نهاية حديثه قائلاً: «لكنني لا أعرف له مكاناً غير الجبال».

كان إنجابي من بيلارا قد تأخر إلى أن خشيت أن تكون قد عبرت سنوات القدرة على الإنجاب، فأخذت تلح علي للزواج بأخرى، ورحت أتعلم بأنني لو فعلتها سيقتلني العم باديث، فاشترت جارية موريسكية ووهبتها لي، ثارت الدماء في عروقي فما ينبغي لي أن أمتلك نفساً كرمها الله، فما كان منها إلا أن منحتها صكاً بحريتها، ثم جعلت باديث يحضر شيخاً ليعقد لي عليها، لكن المفاجأة التي حدثت بعد شهور أن بيلارا هي التي حملت، فأنجبت يونس قبل أن تحمل الجارية لتنجب الربيع وعمار وتموت عقب ميلاد مجيد بأيام، فوهبت بيلارا نفسها لتربية الأبناء جميعاً، فلا تخرج من البيت إلا بهم، ولا تعود إلا بصحبتهم، تضع لوحاً من الخشب في غرفتها وتجلس طيلة اليوم لتعليمهم مبادئ القراءة والحساب، بينما شغلت عنهم بجمع المال لتحرير الموريسكيين وإعادتهم إلى بلداتهم أو جبال بلنسية، حيث فرناندو الذي ظلمت أترقب أخباره لسنوات، حتى توصل رجال ثابيرا إلى مكانه. وسرعان ما قرر ثابيرا الذهاب إليه داعياً إلى الثورة، فقد ازداد جشع النبلاء في بلنسية،



وزادت رغبتهم في استعباد الناس، مذكرينهم دومًا أنهم الذين يحمونهم من محاكم التفتيش، واضعين كل يوم مزيدًا من الضرائب على كاهلهم، حتى باتوا غرباء في ديارهم، يومها قال ثابيرا إن الثورة يمكنها أن تبدأ من هناك لتنتقل إلى غرناطة وإشبيلية، وإن فرناندو يرى الرياح في بلنسية، فالبحر أمامها والجبال خلفها، وجنود بني عثمان ليسوا ببعيد في الجزائر وتونس، والبروتستانت الكارهون للكاتوليك يختلطون بالعجر والموريسكيين في الجبال، ولن يراهن النبلاء على دخول الجيش إلى أراضيهم، فيفقدون محاصيلهم وزروعهم ولا يستعيدون الفقراء الذين استعبدوهم إلى حظيرتهم من جديد، فودعته مرسلًا السلام إلى فرناندو، عسى أن نلتقي قريبًا.

لكنني لم ألحق بهما، ولم أرَ أيًا منهما، فقد شُغلت بمرض العم باديث، وعكفت على متابعة شئون الموريسكيين في طليطلة وحدي، متحملاً مزيدًا من الطلب على قطع التماثيل الجديدة، فمنذ أن نصبنا تمثال المعمدان في وسط المدينة وشهرتي صارت تتخطى حدود طليطلة، وأصبحت الورشة معروفة للجميع بورشة المقدس خوسيه أرماندو، ويقدر ما أعفاني ذلك من الذهاب للكنيسة في الأحاد بقدر ما وفر لي رعاية القساوسة وإبعاد الشبهات عني، وجلست أتابع من بعيد أخبار الثورة التي نشبت في بلنسية، فقد أضرب الناس عن العمل في المزارع والحقول، ولجئوا إلى الجبال مكونين جماعات تُغير على المقاطعات، متخفين من بينهم أميرًا، وواضعين لأنفسهم هدفًا واحدًا

وهو أن تكون بلنسية للموريسكيين وحدهم، لكن الإسبان الذين أوشكوا على حرب جديدة مع الإنجليز والهولنديين كانوا قد تعلموا الدرس من البشرات، فلم ينتظروا أن تحسم الأمر حامياتهم في بلنسية، وفوجئ الجميع بقطع الأسطول الكبير تتحرك لتحاصر الشواطئ، وفرق الجيش تحاصر الجبال، بينما المدافع الكبيرة تدك كل ما أمامها، ولم تمض أيام حتى أسقطوا الحكومة الجديدة وأعدموا أعضاءها، علمت من بعض رجالنا أن ثابيرا وفرناندو فرّا في الجبال نحو الشمال، وأن شهداء سقطوا بالمئات والألوف.

ظللت أكتنم غيظي حتى مات عمي باديث ناطقًا بالشهادتين على صدري، فصممت على دفنه بالطريقة الإسلامية، وجلست أصلي على جثمانه في البيت قبل حمله إلى الكنيسة، وحين عدنا من المقابر فتحت خزانة كتبه، وأخرجت منها مصحفًا جلست أقرأ فيه بصوت واضح على الأريكة التي أمام البيت، حيث كان يفضل الجلوس في المساء، فانتشر الخبر بأن المقدس خوسيه أرماندو موريسكي، وكان ذلك بالنسبة للكنيسة صاعقة لم تعرف ما الذي ينبغي عليها حيالها، حضرت الشرطة وساقنتني ركلاً وصفعاً إلى ظلمة السجن، حيث ثبتوا رسغي بالمسامير في لوح خشبي وتركوني أنزف أمامهم، لم ينشغلوا بكوني موريسكيًا، فذلك ما لم يريدوا الاعتراف به، فما أغضبهم هو أنني أمسكت كتاب الموريسكيين بالراحتين اللتين رمتا جدران الكنيسة وصنعت تماثيل المسيح وموسى والمعمدان، ولولا أن بدرو باع بيته ودفع كل ما يملك

عطايا لأعضاء المحكمة، موضحًا أن موت باديث أصابني بلوثة، ما تركوني أمر بخطيئتي من بينهم، فأفرجوا عني شريطة ألا أخرج من البيت، وما كان لي أن أخرج بعدما هشموا عظام يدي، فانتقل بدرو وزوجته إلى بيتنا لمراعاتي، وكان حظه بذلك سعيدًا، فبعد سنوات من تأخر زوجته في الإنجاب علم أنها حامل، وسرعان ما أنجبت له روميرو، فكان عليه أن يدير شئون الورشة التي انفض الجميع عنها.

في تلك الأيام علمنا أن فيليبي الثالث اتخذ قراره بترحيل الموريسكيين عن البلاد، حينها شعرت براحة الذهاب إلى الموت، وجلست أناقش الأمر مع بيلارا التي قالت إن بلادها حيث أكون، لكنها لا تملك من أمر بدرو شيئًا، وفاجأتنا الكشوف التي علقوها على مداخل الشوارع والحارات، فقد شملت اسم بدرو ولم تشمل اسم زوجته، ولم يكن أمامه سوى أن يطلب منها الرحيل معه، لكن والدها أقنعها بالبقاء من أجل ابنها، وفي ساحة الكنيسة وقف يودعها هي وروميرو، طالبًا منها الحفاظ على الورشة والبيت، وأن يبقى اسم المقدس خوسيه أرماندو عليها، بينما جلست بيلارا تحصي المال الذي معنا للطريق، وظلت زوجة مجيد الله موزعة بين أن تأخذ طفلها الذي لم يتجاوز العامين أو تتركه للكنيسة كي ترعاه، فما كان مني سوى أن قلت: «اتركه فلن يحتمل الطريق»، لكنها صرخت في وجهي بأنني سبب شقائهم، فغضب زوجها وقدم الطفل رغماً عنها للقس الواقف أمامهما، كنت أعتقد أن حياة الرضيع مسلمًا أو مسيحيًا أفضل من الموت في رحلة لا نعلم ما

يخبئه القدر لنا فيها، لكنني لم أكن أدرك أن حياته ستودي بحياة والديه،  
وفي النهاية يتفرق عني يونس والربيع وعمار، وتموت بيلارا التي لولاها  
ما عرفت معنى الحياة.

مضت أيام لا يذهب فيها مراد إلى عمله ولا يخرج من بيته، أيام أغلق فيها هاتفه وأهمل نفسه واعتكف للكتابة كأنه يستشفى من مرض عظيم، أيام أصبح صديقه الطبيب فيها همزة الوصل بينه وبين العالم، يأتيه في المساء بالأخبار وما يحتاجه من ورق وطعام، كان مراد قد أحضر بطانية وطابعة كمبيوتر وجلس على فراش قديم يكتب ما يعين في ذهنه من مشاهد وأحداث، لم يكن معنيًا بترتيب الفصول أو المقاطع، فقط يضع أرقامًا ويترك أنامله تتحرك على لوحة المفاتيح، لاحظ صديقه أنه صار شبّاحًا مهوش الشعر، رث الثياب، طويل الأظافر، متسخ البدن، بينما الحمّى والعرق الغزير يهاجمانه بشكل غريب، حاول أن يقنعه بالعودة للراحة في شقته لكن مراد كان يتعامل مع الأمر على أنه من مهمّات الكتابة، فكلما ازداد ارتعاشه أيقن أن عليه كتابة المزيد، كان الطبيب يتعجب من قدرته على احتمال الألم، وزادت دهشته حين رأى الحمى تقل حدتها كأن المرض أخذ في التلاشي، وفي النهاية سلم الطبيب بأن هذه طريقة جديدة للعلاج، فترك عيادته ومرضاه وجلس يتابع حالته،

ولم يكذب صدق حين قال إنه انتهى من عمله، فنزلاً يتحسسان في الظلمة الطريق إلى غرفته، على السلم لا حظ الطبيب أن ثمة قطعاً تنام على الدرجات، فهمس لنفسه: «كأنهم كانوا مغرمين بالقطط»، وفوجئ بمراد يقول: «أو لعلهم من فرط خوفهم صاروا قطعاً»، حينها لزم الصمت حتى سأله الموريسكي: «هل يمكن لمن ماتوا أن يتحولوا إلى قطط؟»، كبح الطبيب ضحكة لم يشأ لها الظهور، فأكمل الموريسكي: «ما نراه الآن ليس سوى أرواحهم التي تزور البيوت»، فانتابت الطبيب رجفة الخوف موقناً أن هذا البيت مسكون، فتمتم قائلاً: «ولم تخبرني بذلك؟»، فنظر إليه مراد بوهن شديد: «لأنني صرت قادراً على معرفتهم».

في تلك الليلة اشتدت الحمى، وأخذ مراد يرتجف تحت وطأتها، غارقاً في العرق الغزير والهذيان الذي لا ينتهي، ما بين البشرات وطليلة، وما بين القاهرة وحومة الأندلس، كان يحدث بيلارا وحبابة وفرناندو وباديث، يحادث ناريمان وجنى وعبد الله بن جهور وحبیب الله أبو جذام، كان يهذي والطبيب لا يدري كيف ينقذه، في النهاية اتصل بالمستشفى فأرسل عربة إسعاف حملته فاقد الوعي، ليظل أياماً ما بين الحياة والموت، حين استعاد وعيه وجد فمه تحت جهاز تنفس وفي يده أنبوب محاليل، ابتسمت الممرضة في وجهه مسرعة بمناداة الطبيب، جساً الأخير نبضه ورفع الجهاز عنه مربتاً كتفه، حينها ظهرت الجدة بكرسيها المتحرك قادمة من الباب الزجاجي الكبير، قالت: «هل يسقط الموريسكي هكذا؟!»، ابتسم في وجهها محاولاً الاعتذار، لكن لسانه

كان مخدرًا ولم يطاوعه على الكلام، ألقى برأسه على الوسادة شاردًا، حيث جده الذي ترك جواده وأخذ ينحني على الصخور جامعًا أعشابها المتفرقة، حين سأله عما يفعل أجاب دون أن يتوقف عن عمله: «أجمع أبنائي»، فلزم مراد الصمت منتظرًا أن يفرغ له، لكن الأخير حمل ما بيديه وامتنى جواده غير منصت لصراخ حفيده، كان يهتف خلفه في أفق مشبع بحمرة الغروب: «كيف عرفتهم؟»، ويجيبه صدى الصوت المتردد بين ألواح الجبال: «العين لا تكذب والدماء لا تموت»، هنالك انتبه من غفوته على صوت جدته: «كُتبت وثيقة العمادة باسمك»، نظر إليها فرأى وجهها مليئًا بالتجاعيد، غريبًا، وضوء عينيها صار خافتًا، لم يعرف بم يجيبها، لكنه هز رأسه: «أين ناريمان؟»، تنهدت بحزن: «تجهز نفسها للسفر»، ثم حركت كرسيها خارجة من الغرفة لتتركه وحيدًا كما كان، نظر بغضب نحو الحائط فرآه كشاشة بيضاء تتحرك ناريمان فيها بهاتفها وسط شخوص لا يعرفهم في بلد غريب، بينما الطبيب يعتزل الحياة في عيادة وسط القرى، ورجل الاستخبارات يعطي التحية لرؤسائه عائداً للمحروسة من بين الجبال والوهاد، صرخ فيه: «أريدك»، وهز الأخير رأسه كأنه يجيب النداء، شعر الموريسكي أن غضبه انتهى، وأنه الآن يمكنه الخروج من سجنه إلى الفضاء العظيم، رأى الموريسكيين تائهين في بلاد عديدة، وهم أن ينادي عليهم بأسمائهم لولا أن الممرضة الصغيرة أيقظته من شروده: «هناك من يريد أن يراك»، لم يكن ضابط الأمن بحاجة لأن يرفع اللثام عن وجهه كي يتعرّف عليه، كان يكفي مراد أن ينظر لوجهه قائلاً: «تأخرت كثيرًا»، فضحك المقدم: «كأننا على موعد؟!»،

حينها جلسا يتحدثان عما جرى، وما الذي عليهما فعله، وطال حديثهما ساعة أو أكثر، فخشي رجل الاستخبارات أن تفاجئه راشيل، لكن مراد ابتسم: «لن تأتي»، فربّت الرجل كتفه: «إنكم أبناء عم».

كانت ناريمان أول ما سأل عنه حين عاد إلى مكتبه، قيل إنها لم تظهر منذ أيام، وإن رجلاً فرنسيًا كان مسؤولاً عن العمل في غيابها، حينها قرر الاتصال بها، متجاوزاً عن عدم زيارتها له في مرضه، قائلاً إن عليه الآن أن يجمع ولا يشتت، لكنها لم ترد، ظل يحاول مرات ومرات دون جدوى، فقرر أن يفاجئها في مكتبها، عازماً على إزالة الخلاف الذي نبت بينهما حين جمعت في بيته مَنْ قالت إنهم موريسكيون، حين ذهب لم يجد العاملين مرحبين به، قائلين إنها سافرت وحين تعود سيبلغونها بمجيئه، يومها شعر بالإهانة ونظرات السخرية التي أخذت تطل من العيون خلفه، فنزل من المكان متسائلاً عما يجري، موقناً أن راشيل قررت القفز من السفينة قبل أن تغرق بَمَنْ فيها، فاتصل بصديقه رجل الاستخبارات ليتأكد من أمرها، لكن الأخير لم تكن لديه معلومة عنها، ورأى أن جدته هي آخر مَنْ يمكنه أن يلجأ إليه، فغيّر وجهته إلى بيت الموريسكي، كان يتقافز كقط فزع وهو يصعد الدرجات تلو الدرجات، شيء ما كان يدعو له للسرعة في الصعود وفتح الأبواب منادياً على جنى هانم، لكنه لم يجدها لا في الشرفة ولا في غرفتها ولا حيث تنام الخادمة النوبية العجوز، وقف مذهولاً لا يعرف أين يمكن لسيدة مقعدة في سنّها أن تذهب بخادمة لا تستطيع الكلام، حين ساوره الشك أن حينها للماضي دفعها لرؤية



شقق الموريسكيين المغلقة، حمل مفاتيحه وهرع يفتح الأبواب، كان ينادي عليها كالمجنون أو الباحث عن طوق نجاة، ظل يقطع الدرجات لهاثًا حتى وصل إلى معتكفه بغرفة الغسيل، لكنه لم يعثر لها على أثر، شعر وهو ينزل الدرجات كما لو أنه يسقط في بئر سحيقة، مدرّكًا كم كانت أدوار الموريسكيين عالية ولا يدري، وكم كانت الدرجات كثيرة، والسلم الدوار يستغرق وقتًا طويلًا في الوصول إليها، للحظة توقع أن صديقه الطبيب لديه ما يخفف عنه الجنون، لكن هاتفه كان مغلقًا، حين وصل إلى الشارع وقف كطفل تائه لا يعرف أين يمكنه العثور على عجوز وخادمتها، كانت البلاد تستعد وقتها لموجة جديدة من الثورة، فالناس بدأوا يتوافدون على الميدان، والتمرد بات واضحًا في العيون، جلس يفكر على المقهى المجاور للبيت بعمق لا حدود له، لمحه النادل فاقرب منه سائلًا: «هو انت بعت البيت؟»، ففتح عينيه بدهشة وذ هول، لكن الأخير أشاح بيده: «هتخبي ليه؟ ما الشارع كله عارف، وشركة الاتصالات سابت الفيلا»، حينها انتبه إلى أن الشركة مغلقة، فدارت به الأرض موقتًا أن راشيل أضاعت منه كل شيء.

لم يعلم محمد بن جهور أين نزل ولا أين سيلتقي أولاده، فقد حمله الموج إلى شاطئ غير الذي واعدتهم بالانتظار عليه، كانت محاولات الجميع قد فشلت في إقناع الربان بإكمال المسيرة حتى الشاطئ، لكنه قال إن السفينة عطبت، ولا يمكنه الدخول أكثر لأن القاع قريب، وبعد شد وجذب استسلموا لحديثه، نزلوا إلى الماء ضاربين بأذرعهم الموج، قاصدين الشاطئ المختفي في الظلام، لم يكن محمد ولا بيلا را من أهل السباحة، فساندهما بيدرو معتقداً أن الرمال قريبة، وأنهما بمعاونة منه يمكنهما الوصول إلى الشاطئ، لكنهم حين بحثوا بأقدامهم في الماء عن القاع لم يجدوه، صرخ فيه محمد أن يتبه لأمه وأخذ يحاول السباحة كالآخرين، فحال بينهما الموج حتى لم ير أيُّ منهما الآخر، جاهد محمد بكل ما يملك من خوف وحرص على الحياة حتى مرت الموجة الأولى، فأخذ يعيد اتزانته ملتقطاً أنفاسه، باحثاً عن زوجته وابنها بين مئات الأجساد المتناثرة على صفحة الماء، حينها توقع أن الأمر قد انتهى وعادت الحياة لصفوها، غير أنه رأى

على البعد موجة أخرى كالجبل قادمة عليهم، صرخ في بدرو وبيلا را أن يتبها لحالهما، لكن الموجة كانت أقوى من سابقتها بكثير، فعصفت بالجميع، هو نفسه استسلم للموت فاقداً الوعي، ولم يشعر بنفسه إلا وهو ملقى على الشاطئ بأعضاء مخدرة وسعال لا ينتهي، والدنيا تظلم وتضيء في عينيه، بينما وشيش البحر يتعالى سريعاً من حوله، حينها رأى الذين التفوا حوله، كانوا يضغطون على صدره وبطنه مدلّكين أنامله ويديه، وجوه كثيرة كانت تنحني عليه كملائكة جاءت من أجله في يوم الحشر، الكلمة الوحيدة التي نطق بها كانت: «بيلا را»، ساعده على الجلوس لكن خوفه عليها جعله يتنفّض واقفاً لينادي من جديد، صعقته كثرة الجثث الملقاة على الرمل، صعقه خوفه من أن تكون بيلا را بينهم، أخذ ينظر في الوجوه مقلّباً الجثث فاعرة الأفواه والأعين، في الظلام تعثر ببدر و هو يلطم خديه أمام أمه، كانت بيلا را ممددة على الرمل مسلمة الروح محدقة في مجهول لا يعرفه، هزّها موقناً أنها لن تتركه وحيداً، هزّها حتى خشي بدرو عليه من الجنون، فاحتضنه باكِتاً.

كانت الرحلة من بدئها قاسية وشاقة، خمسة أيام من السير على الأقدام حتى وصلوا إلى الجزيرة الخضراء، من فرّ إلى الجبال قدراً، ومن بقي شهد مصيره في أسراب الموت البطيء، الكثيرون رحلوا من قبل، مئات الألوف هاجرت على مدار أعوام ثلاثة، كانت بلنسية في أول الأمر حين فشلت ثورتها، وصرخ القساوسة والجند في وجه الملك بأنه لا مفر من إلقاء الموريسكيين في البحر، لكن النبلاء كانوا يخشون على مزارعهم

وبساتينهم من البوار، فظلوا يراجعونه في قراره، غير أنه كان يخشى من نزول الأتراك على شواطئه في الجنوب، فكر كثيراً ثم وَّعَّ قراره بتهجير موريسكيي بلنسية، وسرعان ما ترك الأمر للقساوسة وقادة الجند، فأعدوا جداولهم بالأسماء والمناطق والبيوت والعائلات واضعين علاماتهم على الأبواب، مستبيحين الأراضي والأموال والأعراض والدماء باسم المسيح، حين علم الجميع أن الأمر جاد ولا رجعة فيه، فكروا في الفرار، أهل بلنسية كانوا الأفضل في ذلك، جبالهم تتصل بالغجر الجوالين على الحدود، وتحمل الهاربين من البروتستانت المضطهدين كالموريسكيين في دينهم، فلم لا يجتمع الضعفاء، قرى كثيرة باعت أرضها وبيوتها وفرت بأموالها نحو الشمال، فحرّم الملك التنقل بالمال، حرّم البيع أو الشراء على الموريسكيين في كل البلدان، البعض حفروا خنادق ودفنوا أنفسهم فيها، والبعض اختفوا في الكهوف عسى أن تمر الموجة من على الرؤوس سريعاً فلا تصل إليهم أيدي الجند ومقارعها، لكن الكثيرين جُمعوا في قطارات طويلة من القرى إلى المدن، ومنها إلى الشواطئ حيث السفن القادمة من طنجة وسلا وتطوان وشفشاون والعرائش والجزائر وتونس، لكل قرية يوم يساق أهلها إلى الكنيسة لتفتيشهم وتجهيزهم للرحيل، كان القساوسة يفاوضونهم حتى على أبنائهم، البعض كان يرفض والبعض كان يستسلم خوفاً من المجهول، وأملًا في عودة قد تكون قريبة، في الصباح كانت طوابير المُرَحَّلِينَ تنطلق كقطعان ماشية أو أسراب قطط خائفة نحو الجنوب، ولم يكن مسموحًا بالتوقف لأكثر من مرتين في اليوم، واحدة في الظهيرة وأخرى مع المساء، حتى إن الناس كانت تحلم بالراحة فلا تجدها، ينامون في سيرهم ويتبولون على أنفسهم ويصرخون. «قد

تعبنا»، فلا ينالهم غير السهام وضرب المقارع على الرؤوس والأكتاف، ومن تنفذ دوقاته منهم فلا طعام له ولا شراب، ولا ينقذه من الموت جوعاً غير اقتسام طعام موريسكي آخر، على طول الطريق كانوا يتنفسون التنن الصادر من جثث نافقة لمن سبقوهم، متعثرين بجيف وبقايا عظام يزيحونها بأقدامهم، في المسافة من إشبيلية إلى الجزيرة الخضراء اجتاح الجنون زوجة مجيد بن محمد، مصرة على عدم السير والعودة لابنها الذي تركوه للقساوسة في طليطلة، فقررت أن تفك وثاقها وتنطلق خارج الصفوف، نالها سهم استقر في صدرها، هاج زوجها مجيد غاضباً من أجلها، واثارت حمية الرجال لكسر الأغلال، فتوقف السير وارتبكت الصفوف وهجم الجند بالمطارق والسيوف ليقضوا على الثورة في مهدها، كان مجيد وخمسة آخرون قد حُكم عليهم بالموت أمام الجميع، وطحنت المطارق أجساد يونس والربيع والفضل حين رفضوا الحكم على أخيهم، فبكى محمد مقبلاً أيدي الجنود كي يرفعوا غضبهم عن أبنائه، ويمنحوا القتلى كرامة الدفن، فرقَّ قلوبهم إليه، ونزلوا على طلبه مانحين الجميع راحة قبل أن يكملوا الطريق من جديد.

حين وصلوا إلى الجزيرة الخضراء كانوا قد أصبحوا كائنات بلا معالم، فظلوا منكسي الرؤوس في انتظار السفينة القادمة، حين أتت وضع الربان خطته للصعود عليها، جاعلاً النساء في جانب والرجال في جانب، وبادئاً بمن يملك دوقات خمس كي يضمن مكاناً قبل الجميع، بعدها يصعد العجائز والصغار ثم النساء، ثم يأخذ بقية حمولته من الرجال الذين لا يملكون المال، كان محمد راغباً في الصعود بعائلته كاملة على ظهر

سفينة واحدة، لكن الربان تلا قواعده، فصعدت بيلارا برفقة بدرو، وأصر  
يونس والفضل والربيع على أن يكونوا مع أبنائهم، أملين أن يكون لهم  
مكان في نهاية الأمر على ظهر السفينة مع أبيهم، لكن السفينة امتلأت،  
وصرخ ربانها أنها لن تحتل المزيد، فلم يسمح الحراس بركوب أحد،  
وأقسم الربان أن سفينتين في طريقهما إلى الجزيرة، فودع يونس والفضل  
والربيع أباهم مواعدينه باللقاء في الصباح، كان الليل قد مضى نصفه  
والموج يضرب بأواجه المتلاطمة السفينة المكتظة مسقطاً البعض عنها  
وقاذفاً الرعب في قلوب الآخرين، وراح الملاحون يقاومون غضبه بجَلْدٍ  
غريبٍ نازحين بأوانيهم الماء الذي طغى على الألواح والدُّسر، كانت  
وجهة السفينة إلى بن لوشي، لكن الموج حدا بها إلى طنجة، وعلى  
مبعدة فرسخين توقفت ليعلن ربانها أن عطلاً أصابها، ولا يمكنه الدخول  
إلى الشاطئ القريب، لم يكن لأحد أن يصدق ولا أن يبصر الشاطئ من  
مكانه، فراح الشد والجذب يبلغ أشده حتى يئس الناس وقرروا المجازفة  
للنجاة، لكن بيلارا لم تنجُ وخرجت منه فاقدة الحياة.

ظهرت العين الراعية لمحمد بن جهور على شاطئ طنجة قائلة: «لم يبقَ إلا القليل»، بكى محمد قائلاً: «لكن الحياة لم تنته»، حينها سألته: «أي البلاد تريد؟»، فقلب كفيه: «كل البلاد سواء، فخذني لأرض مطمئنة»، حينها امتطى عبد الله بن جهور جواده وأخذ يقطع السهول والهضاب والوهاد، بينما محمد وبدرو يتوكآن خلفه من طنجة إلى محلة القصر الكبير، ومنها إلى جباليا المحيطة بتطوان، حين رآها محمد على البعد توقف ليملاً صدره بهوائها قائلاً: «كأنني أشم ريح البشرات»، فداعبه بدرو: «نحن ضيوفك يا بن جهور»، حينها هزَّ محمد رأسه وأكمل سيره حيث لا يدري، فلما أخذ بهم التعب كل مأخذ قالاً ناوي إلى حديقة بيت تحمينا من الضباع والذئاب، وكان بيت القاضي محمد بن عياش أول دار ذات حديقة في طريقهم، كان بابه كأنه قطعة قذت من جسد سفينة عظيمة، فأوماً محمد لابن أخيه: «اطرق لنا هذا الباب»، حين خرجت صبية في العشرين من عمرها استملح بدرو وجهها قائلاً لعمه: «كأن ريح البشرات أجمل»، فابتسم الأخير طالباً أن تبلغ سيدها أن محمد بن جهور

يريد النزول بحديثكم الليلة، فأغلقت الباب خلفها وغابت حتى ظنا أن طلبهما غير مجاب، فاستدارا قائلين: «لأن تستبيحنا الوحوش على نواصي الطرق خير من إراقة ماء الوجه»، لكنهما لم يقطعا بضع خطوات بعيدًا عن البيت حتى خرج الرجل بعبيده وخدمه قائلاً: «ما أخرني عن الأمير ابن الأمير إلا استقباله كما يليق بالأمراء».

جلس ابن جهور في ضيافة القاضي بن عياش عدة شهور قبل أن يصل أبناؤه إلى تطوان، فقد انتظروا يومين على شاطئ الجزيرة الخضراء حتى أتتهم فأقלטهم إلى بن لوشي حيث من المفترض أن تصل سفينة أبيهم وزوجته ييلارا وابنها بدرو، لكنهم حين سألوا الناس قالوا ما رأيانهم مروا بديارنا، فأخذوا يتنقلون ما بين العرائش وأصيلا وشفشاون وغيرها من مدن الموريسكيين حتى وصلوا إلى تطوان، فعلموا أن أباهم بصحبة القاضي الكبير، وأنه يجلس كل يوم بالمسجد الجامع ليقصّ على الناس ما جرى لأهله في الأندلس، فأقاموا معًا بضع سنين عكف فيها ابن جهور على أن يكمل كتابه عن موريسكيي البشرات ومحتتهم، لكن البربر اعتدوا على موريسكي كان في طريقه للمدينة فقتلوه، فحكم عليهم القاضي ابن عياش بدفع دية كبيرة لأهل الرجل، فلم يعجبهم ذلك، واتهموه أنه يحابي النصارى، فغضب القاضي وأمر بجلدهم أمام الناس، فما كان منهم إلا أن كمنوا له بعد يومين بالقرب من بيته فقتلوه، كان يومها بصحبة ابن جهور الذي أخذ يصبح طالبًا النجدة دون أن يغشه أحد، فظل يكيه حتى لحق به بعد شهور.



حين مات محمد بن جهور خرج الموريسكيون في تطوان وطنجة وشفشاون ومحلة القصر الكبير لوداعه، كان الجميع موقنين أنه آخر الكبار الذين خرجوا من الأندلس، لكن موته هو وصديقه ابن عياش ما كان إلا بداية لظهور الفتن وفساد الرأي، فقد أخذ الموريسكيون يتهمون البربر بأنهم أجلاف لا يعرفون الحضارة، ورد عليهم البربر بأنهم خسروا دينهم وسيحيون ويموتون نصارى، وبات كل فريق منهم يكيّد للآخر حتى أوشكت المدينة على الحرب، فظهر عبد الله بن جهور لحفيده يونس قائلاً: «اجمع أهلك واذهب إلى تونس»، لكن بدرو رفض الرحيل قائلاً: «لم يبقَ لي ما يستحق الشتات من أجله».

كانت الرحلة أطول مما توقع يونس، وشعر إخوته أن خروجه بهم ما كان إلا محض هوى في نفسه، ولولا أن أمارات جدهم أخذت تلاحقهم لاعتدوا عليه وتركوه عائدين، كانوا كلما أحكموا قبضتهم ليفتوا في عضده وجدوا ما يلزمهم بالخضوع لرأيه والسير خلفه، ففي تلمسان نهبت أموالهم، وفي وهران هاجمهم الأعراب وكادوا يأخذونهم أسرى، ولولا أن العين الراحية لم ترضَ لهم بالهوان، وأخذت تطارد الأعراب في الشعاب، لكان مصيرهم في أسواق الرقيق، وعلى مقربة من تونس توافقوا على قتل يونس والخلاص منه، فما لبثوا أن عصفت الريح، وتكاثف السحاب وهطلت الأمطار وزأرت الوحوش حتى اعترفوا له بذنبهم، فانقشع الظلام وظهرت النجوم وفرت الذئاب، فظلوا ملازمينه

حتى وصلوا قصبة الحاكم في تونس الخضراء، فدخل يونس على الداى  
خوجا ملقيًا السلام، ومعرفةً بنفسه وآله وما جرى لهم في البلاد البعيدة،  
فهشَّ له الرجل وأجلسه بجانبه قائلاً: «أوصاني أبي عثمان داي بريح  
الأندلس ونسيمها، فما بالكم وأنتم ملوكها وأبناء ملوكها!»، فابتسم  
يونس: «لا نريد إلا أن نكون من عموم الناس»، حينها أرسل الرجل مناديه  
في المدينة معلناً أن الداى استضاف آل جهور في حومة الأندلس، فمن  
أراد منكم إكرامه فليكرمهم، لكن الأيام سرعان ما ولَّت، ومات خوجا  
ومن أتى بعده، ونسي الناس أن بني جهور لم يكونوا إلا من الحفنة التي  
قبضت على الجمر، فطمعوا في أرضهم وشكَّوا في دينهم.

في اليوم الذي زحفت فيه الجموع إلى ميدان التحرير جلس الموريسكي على المقهى المجاور لبيته يحصي خسائره في الحياة، فقد اختفت الجدة وخادماتها مثلما اختفت ناريمان والطبيب، أبلغ الشرطة وبحث في المستشفيات وسأل كل مَنْ يعرف وَمَنْ لا يعرف دون أن يصل إلى جواب مبين، شعر أنه بمثابة شجرة عجوز تكاثفت عليها الريح من كل جانب، فجلس ينظر للعابرين براياتهم وأعلامهم وأناشيدهم المليئة بالحماس، متابعًا الجموع وهي تمر في مشهد طويل لا ينتهي عبر الشارع الكبير، طاف بخياله وجه ناريمان فتذكر قدر الشبه بينها وبين جدته، ولم يعرف لأي منهما اجتاحه الحنين فجأة، فأجهش بالبكاء كطفل ضلَّ طريقه في الزحام، حين رآه النادل على هذا النحو اقترب منه سائلًا: «فيه حاجة يا أستاذ مراد؟»، فتوقف عن البكاء ومسح وجهه بيده ناظرًا إليه: «لا مفيش»، ثم نهض كَمَنْ تذكر موعدًا لينساب مع العابرين في نهر الشارع الكبير، كانت علامات الفرحة آخذة بالجميع، بدت له القاهرة كما لو أنها أنهت أيام حداثها، وجد نفسه محاطًا بالجموع المتدفقة في

الشوارع إلى الميدان الكبير، فلما لم يبقَ فيه موطئ لقدم أخذ الناس يطوفون في الأزقة والحارات والميادين المحيطة، كانت النساء في ميدان طلعت حرب تحتفل بفرح لا حدود له، وبانت الحياة متوقفة على إيقاع صرخاتهن في المكان، توافد الحشود جعل العالم أضيق من ثقب إبره، وجعل الناس كما لو أنها لا تعرف في حياتها غير الثورة، قال في نفسه: «ما أشبه اليوم بالبارحة!»، وتسحَّب بأقدامه إلى حيث الرصيف الذي اعتاد من عليه التطلع إلى «محنة الموريسكي» في فتريته، حين وجد المكتبة مغلقة استدار بوجهه متطلعًا للتمثال القابض على وثيقة حجرية ليقرأها على الجموع المحتشدة أسفل منصته، تذكر وثيقة وقف العائلة وتخليها تنام الآن بين آلاف الوثائق في دار الكتب، فhez رأسه واستدار متجهًا نحو باب اللوق، لكنه بعد خطوات فوجئ بمن يطرق على كتفه هاتفًا: «رايح فين؟»، هكذا وجد نفسه وجهًا لوجه أمام مقدم الأمن، فارتمى في أحضانه وقررا الجلوس على مقهى لتدخين الشيشة ومتابعة الأمواج البشرية في تدفقها.

حين سأله المقدم عن أحواله كاد يخبره أن جدته اختفت وراشيل باعت البيت، لكنه بعد تردد طويل ابتسم قائلاً: «ألّفت كتابًا»، بدهشة رسم المقدم علامات البهجة على وجهه سائلًا عن المكان الذي سيصدر منه، لكن مراد لم يكن في خطته النشر ولا حتى التفكير فيه، فابتسم المقدم: «دع الأمر لي، عندي صديق ناشر»، ثم التفت عنه لمتابعة مسيرة آخذة في التقدم بطولها وأعلامها.

كان على مقدم الأمن أن يستأذن لمتابعة عمله، فنهض مراد لا يعرف إلى أين يمكنه الذهاب في هذا الزحام، في النهاية ترك أقدامه تحدد مسارها كما تريد، ولم يكن لها أن تتخذ مسارًا غير الذي تعودت عليه، فوجد نفسه يتحرك في مواجهة القادمين من دار القضاء العالي، كان الجميع يتحدثون عن أن الأمر انتهى، وأن ثمة خارطة طريق جديدة للبلاد، حين وصل إلى بيت الموريسكي قطع الممر المؤدي للمدخل الخلفي، موقنًا أن التاريخ لا يقوم على مصادفات.

نفث زفرة طويلة من أعماقه وأخذ في صعود السلم المشيع برائحة الرطوبة والغبار، متفكرًا في جدته التي ما عاد له أن يستمع لحكاياتها عن أجداده، حين ارتقت أقدامه بضع درجات لمحها على بسطة الدور الأول جالسة في ضوء شفيف كما لو أنها في انتظاره، مسح عينيه ونظر في وجهها النضر وثيابها ذات الألوان الزاهية، ثم همَّ أن يلقي بنفسه في أحضانها سائلًا: «أين كنت يا جدتي؟»، لكنها أوقفته بإشارة من أناملها: «تأخرت يا بني»، فوقف مذهولاً لا يعرف بمَ يجيب، واستغرق الأمر جهدًا منه ليقول: «على أي شيء؟»، فابتسمت: «هذا ما لم يقله الموريسكي»، ثم همَّت بالقيام فانحنى ليعاونها، لكنها أشارت إليه من جديد كي يلزم مكانه، وأخذت في صعود الدرجات كما لو أنها لم تكن يومًا مقعدة، كانت تمشي في هالة من نور لا تلهث ولا تنظر لأبواب البيوت، توقَّع أنها ستدخل شقتها لكنها لم تفعل، فقد أكملت الطريق نحو الصعود،

فظل يسير خلفها كطائر صغير معلق بفروع شجرة كبيرة، حين وصلت إلى الباب الفاصل ما بين السلم والسطوح استدارت إليه: «ليس الآن يا مراد»، حين فتحت الباب تدفق منه ضوء لا حدود لوهجه، شعر مراد بأنه غير قادر على فتح عينيه، فوضع يده على وجهه ليرى من تحت أنامله كيف دخلت جدته في ذلك السطوع المبهر، كما لو أنها قطرة انسابت في نهر عظيم.

حين فكر في الصعود خلفها وجد الباب مغلقاً أمامه، فألقى بتحية السلام عليها واستدار للتزول، سمع أصداً صوتها من خلفه تقول: «ولك مني السلام»، حينها أخذت أقدامه تتحسس الدرجات وروحه تحلق في البعيد، شاعراً أنه نصفان، أحدهما يمشي على الأرض والآخر يطير في السماء، رأى النجوم مبعثرة في الفضاء، والموريسكيين يسعون خلفها على الأرض، فتح باب شقته وجلس في كرسيه يتابع الأحداث، كانت راشيل على الشاشة تتحدث من بلد عربي عن الشرعية وصناديق الانتخاب، رآها ترتدي حجاباً وتلقي كلمات نارية كما لو أنها خطيب على منبر كبير، فابتسم متعجباً من تغير الأحوال، وزادت ابتسامته حين فتح بريده الإلكتروني فوجد رسالة بموعد مؤتمر الموريسكيين، وأن كل ما عليه أن يملأ استمارة التعريف بشجرة العائلة، فملأها وبضغطة واحدة على زر في لوحة المفاتيح حجز مكانه بين الحضور.

«تمت»

القاهرة - الجمعة 3 أكتوبر 2014



## تعريف بالكاتب

- صبحي موسى.. شاعر وروائي مصري، من مواليد 1972 بمحافظة المنوفية.
- حصل على ليسانس الآداب في علم الاجتماع من جامعة شبين الكوم عام 1994.
- صدر له من الأعمال الروائية: «صمت الكهنة»، و«حمامة بيضاء»، و«المؤلف»، و«أساطير رجل الثلاثاء» التي حصلت على أفضل عمل روائي لعام 2014 من معرض القاهرة الدولي للكتاب.
- وله من المجموعات الشعرية: «يرفرف بجانبها وحده»، و«قصائد الغرفة المغلقة»، و«هانيبال»، و«لهذا أرحل»، و«في وداع المحبة».
- عمل مديرًا عامًا للنشر بالهيئة العامة لقصور الثقافة لمدة عامين، ويعمل الآن رئيسًا لتحرير مجلة «الثقافة الجديدة».





بمجرد اختفائه من الصالة أخذ الشخص المرافق يخرج جهازاً من حقائبه، وراح يوجهه نحو الأركان والجدران والأسقف باحثاً عن شيء ما، حين خرج مراد من غرفته سأل بغضب عما يحدث، فردت راشيل بأن ذلك حفاظاً على سلامته، ولم يكن ذلك مقنعاً له، فجاءت نبراته بغلظة لم يتوقعها أي منهم: «لا أعتقد أن أمري يشغل أحداً كي يتجسس عليّ».. هنالك انطلقت ضحكة مشبعة بالأنوثة والدلال: «ليس هناك أهم من عميد الموريسكيين لنشغل بأمره»..



هذه الرواية تأخذ القارئ إلى عوالم شجية، وتربط بين الماضي الأسطوري المفعم بالأم، والحاضر الاستثنائي المشبع بالأمل.. من خلال شخصية «مراد»، الموريسكي الأخير، أو عميد الموريسكيين، الذي يعيش في مصر حياة أشبه بحكايات جدته عن المجد الغابر، وحماية العين الراعية للأبناء والأحفاد، وكفاح الأجداد لاستعادة الملك الضائع، وغيرها من تفاصيل أجاد الكاتب في سبكها، وأبدع في حبكها؛ ليصل الماضي بالحاضر، عبر أسلوب شيق، رصين.

صباحي موسى.. شاعر وروائي مصري، صدرت له عدة أعمال روائية وشعرية، منها: «صمت الكهنة»، و«أساطير رجل الثلاثاء» التي حصلت على أفضل عمل روائي لعام 2014 من معرض القاهرة للكتاب، و«قصائد الغرفة المغلقة»، ولهذا أرحل». عمل مديراً عاماً للنشر بالمهنية العامة لقصور الثقافة لمدة عامين، ويعمل حالياً رئيساً لتحرير مجلة «الثقافة الجديدة».



للشراء عبر موقعنا  
store.almasnah.com



9 789774 279737

الدار المصرية اللبنانية